بدر الكبرى

الدكتور احمد مطلوب

« ان الذين توفاهم الملائكة ظالمي انفسهم قالوا : فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين في الأرض · قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فاولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا (٩٧) · الا المستضعفين من الرجـال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا (٩٨) · فاولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا (٩٩) · ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الارض مراغما كثيرا وسعة ، ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيما (١٠٠)

(النساء)

هذه آيات بينات دعت الى الهجرة وحببتها للمسلمين الذين كانـوا يذوقون الويل من كفار قريش وممن ضرب الله على قلوبهم فاذا هي لا تعي رسالة السماء ، ولا تؤمن بالنبي محمد عليه الصلاة والسلام · وقد رسم القرآن أروع صورة للمهاجرين الذين تركوا أهليهم وديارهم وأموالهم وفروا بأنفسهم يحملون عقيدة سامية ، ويحملون رسالة ستبقى تنير العالم ، وتضفي عليه أسنى ما تصبو اليه الانسانية في كل زمان ومكان ·

يقول الله تعالى في المهاجرين : « والسابقون الأولون من المهـاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه ، وأعد لهم جنات تجري تحتها الانهار خالدين فيها أبداً ، ذلك الفوز العظيم » ·

(التوبة ١٠٠)

ويقول عز وجل : « والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة ، ولأجـر الآخـرة أكبر لو كانوا يعلمون (٤١) · الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون (٤٢)

(النحل)

ويقول سبحانه في المهاجرين والانصار : « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون (٨) • والذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون (٩) • والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا انك رؤوف رحيم (١٠) (الحشر)

ومضى المسلمون الى المدينة المنورة ليبشروا بدينهم الجديد ، وليحفظوا أنفسهم من العذاب الذي كانوا يلقونه من المشركين ، ويصونوا ايمانهم من ان يتزعزع وهم في جحيم الكفر وأتون العذاب • وكان لهجرة الرسول الاعظم وصحبه الاخيار أكبر الاثر في الدعوة الاسلامية ، فبعد أن كان النبي الكريم يجادل المشركين والكفار بالتي هي أحسن ، وبعد أن كان المسلمون في مكة يتحملون الأذى صابرين محتسبين ، ويتحاشون الاصطدام بالكفار دفعا للشر والاذى ـ صار الرسول عليه الصلاة والسلام وصحبه يواجهون المشركين والكفار بقوة وصلابة ، ويتربصون بهم الدوائر ليزعزعوا كيان الشرك والالحاد ، وينشروا الدعوة الاسلامية في الآفاق • وقد أمرهم الله سبحانه وتعالى ـ بالجهاد وخوض المعارك لاعلاء كلمة الله • ونزلت الآيات التي تفرض الجهاد على المسلمين فرضا ، وتدعوهم الى القتال والنزال •

وكانت سورة البقرة ـ وهي أول سورة نزلت في المدينة ـ عنوان هذا الجهاد ، ففيها قوله تعالى : « ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون (١٥٤) ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وبشر الصابرين (١٥٥) •

وقوله : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا ان الله لايحب المعتدين (١٩٠) • واقتلوهم حيث ثقفتموهم ، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ، والفتنة أشد من القتل ، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ، فان قاتلوكم فاقتلوهم ، كذلك جزاء الكافرين (١٩١) •

وقوله : « كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون (٢١٦) •

وقوله : « وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم » (٢٤٤) •

وتوالت آيات الجهاد والحث عليه في سور أخر ، يقول سبحانه وتعالى في سورة « آل عمران » : « **ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون ان كنتم مؤمنين** » (١٣٩) •

ويقول : « **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين** »(١٤٢) •

ويقول في سورة « النساء » : « **لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ، وكلا وعد الله الحسنى ، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما (٩٥) • درجات منه ومغفرة ورحمة، وكان الله غفورا رحيما (٩٦)** » •

وهكذا فرض الجهاد على المسلمين ، وكان هذا أمرا محتوما بعد تلك السنوات الصعبة التي مرت بهـا الدعوة الاسلامية ، وبعد ذلك الصراع الذي كان يحتدم في بيوت مكة ودروبها وشعابها ، وبعد تلك الجفوة التي بدأها المشركون ، وتلك المقاطعة التي ابتلي بها الرسول (ص) وصحبه الاخيار •

وتحمل النبي ـ عليه السلام ـ هذه الصعاب وتصبر على تلك الجفوة والمقاطعة ، وحث المسلمين على تحمل الاذى ، والسوء الذي كان ينزله بهم المشركون ؛ لان نصر الله قريب ، فسوف تعلو كلمة الله ، وتسطع شمس العزة والقوة ، وتبوء كلمة المشركين بالخزي والانتحار ، وتأفل سطوتهم ، وتتوارى شياطينهم التي أضلتهم السبيل ، وأفسدت نفوسهم وعقولهم ، فلم يحفظوا الا ولا عهدا ، ولم يرعوا ذمة ولا حرمة ، ولم يحترموا صلة الرحم والقربى بينهم وبين الرسول والمسلمين •

وشاء الله أن يكون رمضان شهرا مباركا ، وان ينزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، وان ينصر الرسول والمسلمين في وقعة بدر الكبرى التي كانت حدا فاصلا بين الكفر والايمان ، وبين الشـرك والتوحيد • وقد أكدت هذه المعركة للمسلمين أنهم ـ لابد ـ منتصرون ، وان دعوتهم ستملأ الدنيا عدلا ونورا بعد أن ملئت ظلماً وجورا • وقذفت في قلوب الكفار والمشركين الرعب ، وزعزعت كيانهم ، وفرقت شملهم ، وأشمتت بهم القبائل والاعداء •

وكان خروج الرسول الكريم الى كسر شوكة قريش ، وخضد عودهم يوم الاثنين لثمان خلون من شهر رمضان المبارك من السنة الثانية للهجرة • واستعمل عمرو بن أم مكتوم على الصلاة بالناس ورد أبا لبابة من الروحاء واستعمله على المدينة ، ودفع اللواء الى مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد

مناف بن عبدالدار . وكان أمام رسول الله « صلى الله عليه وسلم » رايتان سوداوان ، احداهما مع علي بن أبي طالب ــ كرم الله وجهه ــ يقال لها « العقاب » ، والاخرى مع بعض الانصار .

وسار النبي الكريم ومعه الانصار والمهاجرون ، والنصر أمامهم ، واعلاء كلمة الله بغيتهم . وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا قافلتهم وتجارتهم ، فاستشار الناس وخبرهم عن قريش . وهنا اتضحت البطولة باجلى مراميها ، وتجلت التضحية بأسمى معانيها ، وظهرت سرائر المسلمين على حقيقتها ، فقام أبو بكر الصديق ــ رضي الله عنه ــ فقال وأحسن ، وقام عمر بن الخطاب ــ رضوان الله عليه ــ فقال وأبدع ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال : « يا رسول الله ، امض لما أراك الله فنحن معك ، والله لا نقول كما قالت بنو اسرائيل لموسى : « **اذهب أنت وربك فقاتلا ، انا ههنا قاعدون** » ولكن اذهب انت وربك فقاتلا ، انا معكما مقاتلون . فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا الى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه » .

واراد الرسول العظيم أن يستوثق من أمر الانصار فقال عليه الصلاة والسلام : « اشيروا علي أيها الناس » .. وانما يريد الانصار ، وذلك انهم حين بايعوه بالعقبة قالوا : « يا رسول الله انا برآء من ذمامك حتى تصل الى ديارنا ، فاذا وصلت الينا فأنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا » . فكان رسول الله يتخوف أن لا تكون الانصار ترى عليها نصره الا ممن دهمه بالمدينة من عدوه ، وان ليس عليهم أن يسير بهم الى عدو من بلادهم . فلما قال ذلك الرسول قال له سعد بن معاذ : « والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ » .

قال : « أجل » .

قال : « فقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، انا لصبر في الحرب ، وصدق في اللقاء . لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله » .

وكيف تكون التضحية والبذل والفداء والاخلاص للدعوة الاسلامية وللرسول الكريم ؟ وكيف لا يسر النبي باصحابه ، ويعجب ببطولاتهم الفذة ، ويفرح بايمانهم العميق ؟ وكيف لا يحث السير الى مقارعة أعداء الله ؟

ولم تمض أيام قلائل حتى كان المسلمون والمشركون عند بدر ، وتزاحف الناس ، ودنا بعضهم من بعض ، فكانت وقعة بدر الكبرى يوم الجمعة صبيحة السابع عشر من شهر رمضان . وكان الرسول عليه السلام يحرض المسلمين على القتال ويقول : « والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم

اليوم رجل فيقتل صابراً محتسبا ، مقبلا غير مدبر ، الا أدخله الله الجنة ».
وكان لهذه النفحات أثر عظيم في ايقاد حماس المسلمين واندفاعهم للذود عن دينهم الحنيف . وما هي جولات حتى أتم الله على المسلمين النصر ، وفرت قريش ، فطاردهم المسلمون يأسرون من لم يقتل ولم يساعفه حسن فراره بالنجاة .

وكان دخول المسلمين المدينة المنورة في أول شوال وهم في أسعد أيامهم ، ورجع المشركون الى مكة في أسى واكتئاب ، تلاحقهم لعنات الله والشرر الذي انطلق ليحرق الكفار والمشركين ، وليضيء درب المؤمنين في مسيرتهم التي شاء الله ان تنطلق من مكة فالمدينة الى سائر الاقاليم والامصار .

وقد خلد القرآن الكريم هذه الوقعة الفاصلة في محكم آياته ، فقال في سورة « الانفال » :

« كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ، وان فريقا من المؤمنين لكارهون (٥) . يجادلونك في الحق بعدما تبين ، كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون (٦) . واذ يعدكم الله احدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ، ويقطع دابر الكافرين (٧) . ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون (٨) . اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين(٩) وما جعله الله الا بشرى ، ولتطمئن به قلوبكم وما النصر الا من عند الله ، ان الله عزيز حكيم (١٠) اذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان ، وليربط على قلوبكم ويثبت به الاقدام (١١) اذ يوحي ربك الى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا ،سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الاعناق ، واضربوا منهم كل بنان (١٢) .

وقال في سورة « آل عمران » :

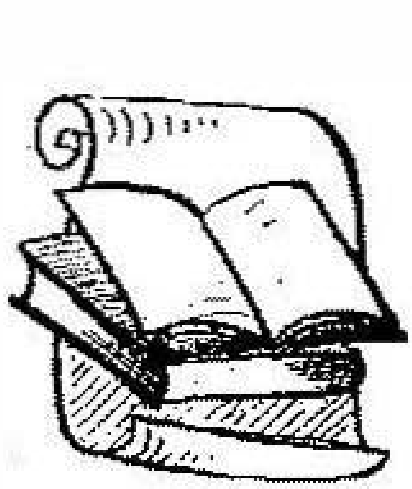
« واذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال ، والله سميع عليم (١٢١) . اذ همت طائفتان منكم أن تفشلا ، والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون (١٢٢) ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون » (١٢٣) .

وخلد التاريخ العربي الاسلامي بدراً الكبرى ، وخلدها الشعراء على مدى الزمان من لدن حسان بن ثابت وكعب بن مالك الى يومنا هذا ،

وسيخلدها الادب والتاريخ الى ما شاء الله • وستبقى هذه الوقعة العظيمة نوراً يستضيء به العرب والمسلمون ، وستظل مناراً يهتدي بـه السائرون في سبيل اعلاء كلمة الله ، وتوحيد الامة ، واقامة دولة العرب الكبرى • وستخلد على الزمن ، وتبقى منار نخوة وعزة ، وتضحية وفداء ، وايمـان وصبر ، كما كانت أول مرة •

ان وقعة بدر علمت المسلمين كيف يكون الايمان بالله ، وكيف تكون الغلبة للفئة القليلة المؤمنة على الفئة الكثيرة الكافرة ••• وعلمتهم أن هذا الدين جاء ليخرج الناس من الظلمات الى النور ، وانه دين لا تقف أمامـه الحدود والجبال ، والاقاليم والدول ، بل هو دين عالمي جاء للناس رحمـة وهدى ••• وعلمتهم ان هذا القرآن الذي انزل على النبي محمد ـ عليـه السلام ـ دستور يضع العالم في الطريق ، ويهدي للتي هي أقوم ، وينظم الحياة بكل أبعادها : السياسية والاجتماعيةوالاقتصادية والثقافية، ويضفي على العالم نوراً يسعى بين أيدي الناس ويعمر قلوبهم بالايمان ••• وعلمتهم ـ بعد هذا كله ـ كيف يكون البذل والتضحية والفداء ، وكيف يندحـر الشرك وينجاب الظلام •

ان معركة بدر نور يستضيء به الناس ، وستبقى كذلك مـا بقيت الارض والسماء ، وما بقيت نفوس مؤمنة ، وما بقي رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه • وما أعظم ذكرى يوم انتصر فيه الحق على الباطل ، ولاذت جموع الشرك والالحاد بالفرار ، ورجع المؤمنون الى المدينة فرحين مستبشرين ليندفعوا من جـديد نحو الخير ، وليبنوا للعرب والعالم كلـه حياة كريمة ومستقبلا زاهراً تعتز به الايام وتخلده الدهور •



محكمة المياه في بلنسية

الدكتور فيصل دبدوب

قال المقري نقلا عن الجغرافي البكري « تشابه اسبانيا بلاد الشام بسحر مناخها وصفاء هوائها ، واليمن بمناخها المعتدل صيفا وشستاء ، والهند بعطورها الزكية الرائحة ، وبلاد فارس بأهمية مكوسها وعـدن بمنتوجات سواحلها » .

وعلى ذكر منتوجات سواحلها اقول بأن العرب في اقطارهم لايعرفون اسبانيا معرفة تامة فقد رحلت الى هذا الفردوس المفقود وشاهدت بـأم عيني ارض الاندلس وسواحلها ، وكورها ومزارعها ، ومدنها وقصباتها ، واهلهـا في حواضرهم وارايافهم وعاينت سحنهم واشكالهم وعاداتهم واخلاقهم . وقد تبين لي : بعد ان زرت هذا القطر بأن اسبانيا في حاضرها مدينة للعرب بتراثها الحضاري وطابعها الحياتي (البايولوجي) المتجسم في خلقة ابنائها ، وبوفرة انتاجها الزراعي وجودته ، وكمثال على أثـر الحضارة العربية على اسبانيا اذكر اعمال الري في منطقة بلنسية فانهـا شاهد صدق على ما اقول .

لقد حول العرب بلنسية الى بستان حقيقي رغم ان تربتها ليست فائقة الجودة كما ان ميزات مناخها ليست أفضل الميزات الزراعية اذ ان نسبة هطول الامطار منخفضة جدا (٤٨٠ مليمتر في السنة) . ولـكن عرف العرب طرق الاستفادة من مياه نهرها الغزير (نهر توريا) منذ الفسنة أو أكثر فانشأوا السواقي العديدة تروي الاراضي القاحلة بمياه النهـر فاحالتها الى جنات تجري من تحتها الانهار .

ان السواقي التي اوجدها العرب ما زالت باقية حتى ايامنا هـذه وهي تشكل عملا هندسيا رائعا بشهادة أبرز الشخصيات الفنية الحديثة فلا عجب ان اصبحت منطقة بلنسية اليوم عبارة عن بستان كبير كثير الخصب وافر المنتوجات ، تلك المنتوجات الزراعية التي حازت تقـدير واعجاب المستهلك داخل اسبانيا وخارجها .

ان هذه الجنة العربية التي يرجع عهدها الى اكثر من الف سنة تجري

فيها سبع سواق تشير اسماؤها الى مصدرها العربي وهي : ساقية قوارت ، وابن عشار ، ومسلطة ، وفهارة على الضفة اليمنى وساقية الترمس ، ومستليا وراسكانيا على الضفة اليسرى للنهر ، ويتفرع منها قنوات وافرة تنقسم بدورها الى فروع عديدة تشمل مساحة واسعة من أراضي الري ·

هذا وقد اشاد الدكتور (روزيه) رئيس جامعة لوزان في سويسرا بهندسة الري العربية في بلنسية اذ قال (لقد طوفت بلاد الاندلس ورأيت آثارها الباقية من عهد العرب فاعجبت بها كل الاعجاب ومما شهدته السدود القائمة الى اليوم في ولاية بلنسية فان أهل هذه الولاية من الاسبان اليوم يعيشون بفضل هندسة مهندسى العرب لهذه السدود ولم يتيسر لمدينة القرن العشرين ان تقيم أرقى مما انشأ ابناء جنسكم (ويعني العرب) في القرون الوسطى ، ولحسن الحظ لم يقو التعصب الديني الذي دك كثيرا من المعالم في أرض الاندلس على نسف هذه السكور على وادي الاحمر وغيرها والا لهلك أهل ذلك الاقليم عطشا ، ومن الأسف ان مدنية هذه بعض آثارها تذهب ولا من يبكيها فقبح من قضوا عليها) (راجع مجلة المجمع العلمي العربي ، الجزء السابع من المجلد الثاني تموز سنة ١٩٢٢) ·

مهما يكن من أمر فان العرب لم يقتصروا على القيام ببناء الاقنية على هذه الطريقة العجيبة بل نظموا ايضا توزيعها بين المزارعين بشكل قانوني ليستفيدوا جميعهم منها فأنشأوا هيئة تحكيمية تسمى « محكمة المياه » ، قام بخلقها الخليفة الاموي الحكم الثاني خليفة قرطبة ، وكان قاضيه في بلنسية آنذاك عبدالرحمن بن حبال ، وقد تأسست هذه المحكمة في أواخر عام (٩٦٠م) ومازالت تقوم بدورها في الوقت الحاضر · وعندما فتح الملك خيمي الاول بلنسية احترم هذه الهيئة الشرعية وحافظ عليها كما احترمها جميع الحكام الذين استلموا زمام الامور في اسبانيا حتى يومنا هذا · واعترف التشريع الاسباني بشرعية وقوانين المحكمة المذكورة اعترافا صريحا ·

لقد كان عام (١٩٦٠م) عام الذكرى الالفية لتأسيس « محكمة المياه » وحضر الاحتفالات بهذه الذكرى وزير العدل الاسباني وبصحبته وزراء الزراعة والاشغال العامة ، وقد اشار الخطباء في تلك الاحتفالات الباهرة بالحضارة العربية وبمآثر العرب الرائعة في الاندلس ، ومما يلاحظ بان تكفير الاسبان عن خطاياهم التي ارتكبوها ضد العرب قد جاء متأخرا جدا ·

اما محكمة المياه هذه الطارفة التليدة فتقام في العراء كل خميس في مدينة بلنسية منذ تأسيسها من قبل العرب حتى اليوم ، وانتخب يـوم الخميس من بين أيام الاسبوع لتجري فيه محاكمات المياه لانه اليوم السابق للعطلة الاسلامية (الجمعة) ويتم اجتماع المحكمة عند مدخل كاتدرائيـة بلنسية التي كانت المسجد الجامع للمسلمين زمن العرب ·

تتألف المحكمة من سبع قضاة ينتخبهم الشعب من بين المزارعين المنتجين،

قاض عن كل ساقية • واختصاص هذه المحكمة هو الفصل في الدعاوى الناتجة عن توزيع المياه • ويقوم عادة الحارس الاكبر لكل ساقية بتقديم الدعوى بناء على طلب المدعى الذي يعتبر نفسه مغبونا فيقدم الاستدعاء ويحضر المدعي والمدعى عليه امام المحكمة ويدافع المدعي عليه عن نفسه ويجوز احضار الشهود والكشف عن الحوادث في المكان عينه ، ولكن يكتفي غالبا بسرد الواقع لتعرف المحكمة تفاصيل القضية وبعد تداول يجري بصوت منخفض بين اعضاء المحكمة يعلن الرئيس الحكم وهو غير قابل للاستئناف •

لمحكمة المياه ميزات نادرة ، تجري المحاكمة في العراء كما قلنا ، ويتكلم الجميع اللغة البلنسية وعلى القضاة ان يرتدوا اللباس الرسمي – وهو عبارة عن قميص أسود – (وهذا الزي تقليد عربي) وذلك قبل الجلوس على مقاعدهم ، وتفرض العقوبة المالية بالنقد المتداول ، ولكنه يجب الاشارة الى قيمتها بالليرات القديمة • ويتقاضى الرئيس عادة نصف ليبرة من الحلوى عن كل جلسة ، وهذه الحلوى تصنع في معمل خاص مشهور ببلنسية يكلف باعدادها •

ومما تجدر الاشارة اليه ان القوانين التي تطبقها المحكمة مقتبسة باكثرها عن قوانين الري التي كانت سارية ببعلبك في القرن الثامن الميلادي وبعضها مقتبس من مجموعة قوانين (حمورابي) التي ترجع الى ماقبل أربعة الاف سنة ، وهذا يعني ان اقدم الشرائع في العالم تطبق في القرن العشرين كل يوم خميس عند مدخل كاتدرائية – مسجد – بلنسية •

ان قوانين بعلبك وشرائع حمورابي دخلت الى اسبانيا عن طريق الجيش العربي الذي جاء لنصرة طارق بن زياد وشارك في فتح بلنسية التي استوطن فيها •

في خلال الحرب العالمية الثانية كان أحد سفراء الدول العظمى بمدريد ذا ثقافة عالية وميل شديد الى الدرس والتنقيب في الابحاث التاريخية ، حضر محكمة المياه ودرس تاريخ نشأتها وبعد أن اطلع على تاريخها الطويل المستفيض قال يظهر ان هذه المحكمة خالدة الى الابد ويظهر أن العرب لم يتركوا الاندلس نهائيا بعد •

أقول أجل ان هذه المحكمة خالدة خلود التراث العربي في الاندلس وباقية بقاء السمرة العربية الظاهرة على ملامح الاسبان في الفردوس المفقود •

●

الأصالة وتطور مقومات الشعر

تتمة ما نشر في الجزء الاول من السنة الاولى
والجزء الثالث من هذا العام

نعمان ماهر الكنعاني

اذا تركنا فترة بني أمية بالشام ، وجئنا العباسيين في العراق ، وجدنا الشعر وقد سار بخطى واسعة في مجال تطور مقوماته الى جانب المحافظة الى الاصالة ، لا بل وجدنا الاصالة نفسها يتأرجح تقييمها نتيجة لما ظهر من تطور هذه المقومات ، وهذا أمر لم يحدث في عصور الشعر الاولى ، في الجاهلية او صدر الاسلام ، أو أيام بني أمية . اذ أن هذه العصور الثلاثة جعلت للاصالة مقاييس لم ينلها التطور في جوهرها ، بل واكبها وسار بها وسارت به سيرا مواكبا ، بحيث تقرأ المعنى السامي في اللفظ الخشن أو الانيق ، أو ما هو بين الخشونة والاناقة ، دون أن تسأل عن شيء جديد ، أو عنصر ثالث تشترطه في تقييم ما قرأت .

فالفاظ لبيد وصوره صنو اصالة لبيد في شعره ، وألفاظ الفرزدق وصوره توأم أصالته ، سواء كانت بعض هاتيك الالفاظ خشنة أو الصورة صحراوية ، أو كانت سلسة مدنية متحضرة ، كذلك هو الشأن في شعر ابن ابي ربيعة وهو الرقيق الالفاظ غالبا والحضري الصورة على الاعم الاغلب .

وهؤلاء الشعراء ، لبيد الجاهلي ، والفرزدق الجامع بين البداوة وتهذيب الاسلام ، وعمر الملتزم بالسلاسة اللفظية وتلوين الصورة ، كل هؤلاء حافظوا على أصالتهم الشعرية ، أو كانت أصالتهم هي الابرز ، الى جانب ما حدث في شعرهم كسلسلة متصلة حلقات الزمن ، من تطور في مقومات شعرهم لدى نقادهم وقارئيهم . الا أن الامر في ظل العباسيين اختلف نسبيا ، وزاد هذا الاختلاف في تالي أيامهم عنه في أوائلها ، حتى نال الاصالة ذاتها ، فاستجدت مقاييس وقامت مدارس نقد ، واشتدت مناظرات كانت الاصالة فيها موضع أخذ ورد . ولم يكن التحكيم المعاصر لها يستطيع الحكم بالسهولة المألوفة قبل عصرهم ذاك .

فبشار بن برد ، وهو من شعراء الصدر الاول العباسي ، قد أدخل على شعره أكثر ممن تقدمه من مقومات الشعر ، وحافظ على الاصالة التي

لم يكن الزمن قد حان لتعرض النقاد لها كما حدث فيما بعد •

يقول بشار :ـ

ليس يعطيك للرجاء ولا الخو
ف ولكن يلذ طعم العطاء

يسقط الطير حيث ينتثر الحب
وتغشى منازل الكرماء

لا أبالي صفح اللئيم ولا تجر
ي دموعي على الحرون الصفاء

فأنت هنا تقرأ المعنى الدقيق مع التفنن في المدح • فالممدوح كريم ، ولكن كرمه ليس ككرم شعراء الجاهلية الذين ينعتون به ممدوحيهم نعتا بسيطا خاليا من التفنن • ان ممدوح بشار مجبول على العطاء ويلتذ به ، فهو حين يعطي انما يعطي عن سجية أصيلة فيه ، وعن شهوة في العطاء ، لابدافع خوف من أحد ولا بدافع مأرب يود تحقيقه عن طريق الجود • وهذا الممدوح كثر حوله الناس كما يكثر الطير حول الاماكن التي ينتشر فيها الحب • فقد وصف بشار ممدوحه بالتجاء الناس اليه وترددهم الى منزله طمعا بجوده دون ان يشير الى ذلك بصراحة جامدة بل عن طريق وصف الطير والحب وسقوط الطير على الاماكن التي ينتشر الحب فيها •

وهذه صورة جديدة من صور الكرم أو صور المدح بالكرم ، سمت عن أخواتها صور المدح بالكرم في عصور ما قبل بشار ، اذ أنها جاءت صورة متفننة فيها براعة انتقال وحلاوة تمثيل ، انها صورة متطورة للمدح بالكرم ، صورها الشاعر بالفاظ واسلوب نالهما الصقل والتهذيب وحافظا على قواعد الشعر الاساسية •

ويقول بشار أيضا :ـ

أظلت علينا منك يوما سحابة
أضاءت لنا برقا وأبطأ رشاشها

فلا غيمها يجلي فييأس طامع
ولا غيثها يأتي فيروى عطاشها

وهي صورة هجائية متطورة أيضا ، فالمهجو وعد وماطل ولم يبر بوعده ، كما لم يكشف عن تخليه عن وعده مما جعل صاحب الامل أو أصحاب الحاجة الموعودين بقضائها على يديه يطيلون الانتظار الممل دون جدوى ، فالمهجو رجل كاذب الوعد مماطل ، لا غناء ولا جدوى من وعوده ، ولكنه يعرف كيف يجعل الآخرين متعلقين به منتظرين لجدواه •

فهذه صورة من صور الهجاء بالبخل فيها تفنن وفيها تطور لم نألفه في عصور ما قبل الشاعر أو ما قبل عصر الشاعر •

فاذا تقدمنا في العصر العباسي الاول ، اكثر ، وسرنا خطوة أو خطوتين ، رأينا تطورا أكبر ومفاهيم لمقومات الشعر أجد وأحدث •

يقول أشجع السلمي في مدح الرشيد : ـ

وعلى عدوك يا بن عم محمد ... رصدان نور الحق والاظلام
فاذا تنبه رعته واذا غفا ... سلت عليه سيوفك الاحلام

وهذا التفنن في تصوير خوف أعداء الرشيد منه في يقظة أو منام لأن نور النبوة كفيل برصدهم ، تفنن اكثر تطورا مما سبقه بصورة عامة من شعر عصور ما قبل عصر الرشيد ، الا أن الاصالة ومفاهيمها لم تتعرض للمحاكمة بعد ، وان كانت دلائل ذلك قد ظهرت في التجديد والتفنن والتطور على الصور التي صورها القدماء بأصباغ غير أصباغ العصر ، كما هو الشأن مثلا في مدح بشار وهجائه ، أو مدح الرشيد وهجاء اعدائه ببيتي اشجع السلمي •

وعند أبي نؤاس بدأ التحول الكبير في عرض الصورة ورسم الاطار والتمرد على ما اصطلح عليه السابقون ، واذا أردت التحديد أكثر ففي القسم الثاني من حياة النواسي الشعرية حين مل القول في مثل :ـ

يا دار ما فعلت بك الايام ... ضامتك والايام ليس تضام

أو في مثل :ـ

ذريني أكثر حاسديك برحلة ... الى بلد فيه الخصيب أمير

وصار يفتن في تصوير معانيه افتنانا لا أشك في أن معاصريه أنكروه عليه بادىء ذي بدء ، وان كان التاريخ لم يحدثنا عن هذا الاستنكار كما حدثنا عنه في شعر أبي تمام •

لقد تفنن أبو نواس في صوره اكثر ممن سبقه فصار يقول :

فأرسلت من فم الابريق صافية ... كأنما أخذها بالعين اغفاء
رقت عن الماء حتى ما يلائمها ... لطافة وجفا عن شكلها الماء
فلو مزجت بها نوراً لمازجها ... حتى تولد أنوار وأضواء

ونصل أبا تمام فتراه قد أضفى على الشعر ما لم يجرأ أحد جرأته عليه في التجديد والتفنن ومخالفة اسلوب القدامى في الاستهلال والاختتام ، بل حتى عده البعض أنه قلب مقاييس الشعر ومفاهيمه • ولكن الدارس لأبي تمام لا يجد انقلابا في المقاييس ولا ثورة على المفاهيم ، قدر ما يجد انطلاقا في التعابير ، وابتكارا في العرض وعدم انصياع الى جمود ، ثقل على تطور الحياة العباسية في نعيمها وغضارتها ونضارتها ، فجاء أبو تمام ليقول شعرا بلغ

من التطوير في أسلوبه والتجديد في استعاراته ما جعل الاصالة نفسها تكون عرضة لامتحان جديد غير ذاك الذي كان يجري في خيمة الأدم ومعلمها النابغة الذبياني ، لأن هذا الاسلوب في عرض الصورة البيانية والاستعارات والتشبيهات غير المطروقة ، وهذه المعاني المبتكرة التي لبست الفاظا فصلت لها تفصيلا كل هذا هز النقد هزا ووضع القارىء في موضع جديد من مواضيع القياس وتطبيق قواعد النقد المألوفة . فحدث الجدل وأقيمت الموازنة وطالت المناقشة ، في هذا الشعر حتى اتهم بأنه مخالف لشعر العرب وما ألفوه ، بل وذهب البعض الى القول بأنه شعر لا يمثل الاصالة الشعرية .

ومعنى هذا القول أن الشعر على يد أبي تمام قد هز مفهوم الاصالة الشعرية نفسه لدى بعض النقاد آنذاك .

قال أبو تمام في رثاء محمد بن حميد الطوسي وكان على رأس حملة لقتال بابك الخرمي وقدفر الجيش أمام بابك وثبت محمد حتى قتل :ـ

وما مات حتى مات مضرب سيفه ... من الضرب واعتلت عليه القنا السمر
وقد كان فوت الموت سهلا فرده ... اليه الحفاظ المر والخلق الوعر
فاثبت في مستنقع الموت رجله ... وقال لها من تحت أخمصك الحشر

وقال يصف شعره من قصيدة في المديح :ـ

كشفت قناع الشعر عن حر وجهه ... وطيرته عن وكره وهو واقع
بغر يراها من يراها بسمعه ... ويدنو اليها ذو الحجى وهو شاسع
يود وداداً أن أعضاء جسمه ... اذا أنشدت شوقاً اليها مسامع

وقال :ـ

ديمة سمحة القياد سكوب ... مستغيث بها الثرى المكروب
لو سعت بقعة لا عظام أخرى ... لسعى نحوها المكان الجديب

ففي الابيات الثلاثة الاولى رثا الشاعر قائدا فوصف ثباته وإباءه وعناده في الملمات ، وصفا واقعيا لا أثر للبهرجة فيه ثم استعار للموت مستنقعا داسته رجل المرثى وهي استعارة لم يألفها نقاد قبل أبي تمام فتبرموا بها ونعتوها بما يدل على عدم تذوقهم هذا اللون من الاستعارة ، ولكن الابيات الثلاثة هذه كانت وما زالت من خيرة شعر الرثاء كما شهد لها بذلك نقاد ما بعد أبي تمام حتى اليوم .

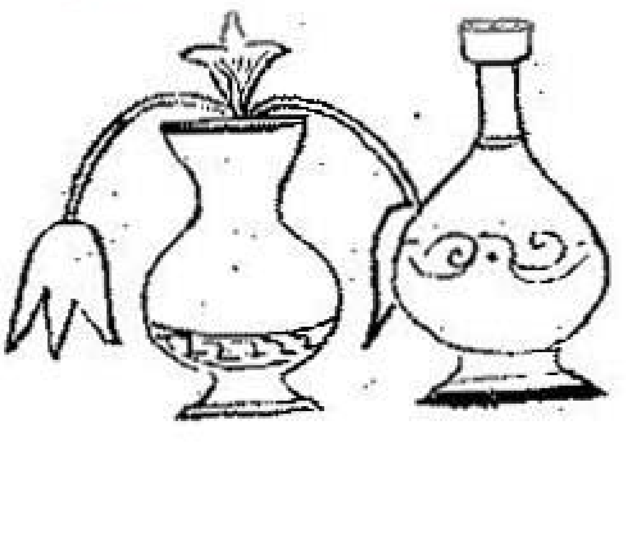
أما الابيات التي وصف الشاعر فيها شعره ، فقد جاءت هي الاخرى جديدة الاستعارة والتشبيه فللشعر قناع كما أن له وكرا وشعر الشاعر من اللطف والابداع بحيث تتمنى أعضاء الجسم أن تنقلب آذانا لتسمعه .

وأما الديمة التي هي مناط أمل الارض المجدبة فقد جعلت مكانة الممدوح بها من الكرامة والتعظيم ما جعل المكان المجدب يتمنى الانتقال اليها لو أن في

مقدور الاماكن والمواقع أن تتحرك وتنتقل ٠

فهذه الصور المتلاحقة المتجددة في شعر أبي تمام ، سواء ما كان منه في الرثاء أو في المديح أو في الوصف ، خطت بمفاهيم الشعر العربي خطوات واسعات ، كانت جديرة بأن تنشىء مدرسة لها تتبنى أسلوبها ، وتدعو الى دراسته ، كما كانت جديرة بأن يتحزب عليها المحافظون المتزمتون فينعتونها بأنها مخالفة للشعر العربي في أصالته وأسلوبه ومفاهيمه ٠ وهذا ما قصدته من قولي أن الشعر العربي الذي بدأ يتململ تململا محسوسا من مواقعه على يد أبي نؤاس صار يتحرك بخطى واسعة في مجال التطور الاسلوبي والتجديد في المفهوم والخروج بالإصالة عن مفاهيمها المحددة خروجا كادت أن تتهسم لاجله بالمروق ٠

وسارت مدرسة أبي تمام في طريقها الفسيح تستقطب المعجبين ، وتغيض المتزمتين حتى وصل الشعر بعدها الى قمة سامقة من النضج والخصب كما في شعر أبي الطيب المتنبي ٠



لسوى الأنواء ما كان ضنينا

عبد الغني الخضري

هذه الصورة لم تشهد بها ... أي فن يبعث الاعجاب فينا
صورة جامدة ما حركت ... من رآها من جميع الناظرينا
لم تلح للعين ملكا انما ... ظهرت للعين شيطانا مبينا
رجل وامرأة من جنسه ... من بنات الجن كادت ان تكونا
صورة ما بعثت لوحتها ... رقة يخشع منها الصالحونا
فهي ان تعمم لزالت لطخة ... سودت تلك الوريقات جبينا
عجبا ماذا راى من خطها ... فهي تقسذي بمحياها العيونا
أترى قد رامها اطروحة ... لينال المجد والفتح المبينا
ام ترى قد خطها مختبرا ... يصهر الخائن فيه والامينا
ما بهذا المنظر الفج سوى ... خطل لاح به الفن هجينا
خسرت صفقة من صورها ... ومضى بالربح قوم آخرونا

*

بيد اني رق قلبي لفتى ... لاح في تصويره طفلا رزينا
يقرأ الناظر في جبهته ... سوف يمسي الطفل انسانا رصينا

*

ايها الطفل الى المجد الى ... من له يسعى الاباة العارفونا
جانب الجهل وحارب كل من ... رام أن يقطع بالجهل السنينا
وزن الاعمال بالعقل تنل ... خير ما يبغي الفتى دنيا ودينا
سر مع الدهر كما شاء فما ... نازع الدهر امرؤ الا أدينا

انت انسان فكن فيما حوى … كل هذا اللفظ من معنى قمينا
لم يردك الله للاكل ولا … ان تعب الماء طينا أو معينا
كل من يمشي على وجه الثرى … نائل عيشا وان كان مهينا
انما رغبته في ان يرى … لملاك الجو في الارض قرينا

✱

لا تكن صعبا فاحرى بالفتى … ان يجر الناس بالاخلاق لينا
وجديسر بك لو عاونتهم … اشرف الامة من كان معينا
حالف العفو فما حالفه … احد الا وساد العالمينا
قابل الدهر بأنس وابتعد … عن صروف الدهر شجوا وشجونا
مضغة تحت الحوانى راعها … لا ينم قلبك مكبوتا حزينا
كن على العافين نورا مرزما … اسوء الاسواء ما كان ضنينا
علم النشء وكن مدرسة … ترشد النشء بنات وبنينا
فظروف الدهر لا يفهمها … غير من مارسها حينا فحينا
لا تنم ليلك الا واعيا … لم يفز الا الوعاة الساهرونا
قم واصلح امة غافلة … ساسها الخصم فضلوا غافلينا
قوم المعوج في سيرته … كن لما يعليه في الدنيا ضمينا
وخذ استقلالك الغالي فمن … ترك استقلاله الغالي اهينا
خير ما تملكه حرية … طالما زدنا لذكراها حنينا
انما الدنيا ادكار فابتعد … ان يكون الذكر للذم خدينا
هذه الحكمة عظلم حقها … جاءت التحرير فيها لا اثينا

●

العقد النفسية

ضياء الدين ابو الحب

... ما يزال استعمال اصطلاح العقد النفسية شائعا في أفواه الناس مع غموض دلالته في اذهانهم اذ لايدرك عدد كبير منهم العوامل المسيطرة في تكوين تلك العقد وما علاقتها بالاعراض المرضية التي تظهر في سلوك الافراد الذين يعانون منها . ولهذا فان من الضروري لنا ان نحدد مفهوم العقد النفسية وان نتحرى اسباب نشوئها لكي نرى ان كان في مقدورنا تجنبها او التخفيف من حدة ظهور آثارها في حياة الافراد الذين نعني بتنشئتهم والسهر على تربيتهم والعناية بهم .

ويمكن تعريف العقدة النفسية بانها « عبارة عن مجموعة من الافكار أو الحوادث أو الذكريات المصطبغة بمشاعر انفعالية طاغية والتي كبتت في المنطقة اللاشعورية من العقل بسبب كونها ذات طبيعة مؤلمة جدا ولذلك لم يكن بالامكان ان تظل شعورية » ولا نعني بالالم الناتج عنها ان يكون ألما جسميا أو موضعيا وانما هو شعور بعدم الرضى وعدم الارتياح او حالة من حالات الحصر والاكتئاب وما اشبه ذلك .

ويتجلى لنا أثر العقد النفسية في هروبنا بصورة لاشعورية من الافكار التي تخامرنا والاحداث التي تواجهنا فنحاول نسيانها أو التغطية عليها لانها تسبب الالم لنا . وكل تداع في الافكار او ترابط بين حادث بسيط نمر به حاليا وحوادث اخرى منسية قد يثيرها يبعث الانفعالات المرافقة لها الى سطح الشعور .

فهذا رجل ينهض في صباح احد الايام من نومه وهو يبدو في صحة ممتازة وارتياح تام وبعد ان يتم شؤونه اليومية المعتادة بعد النهوض من الفراش يقصد الى منضدة الكتابة ليحرر رسالة الى احد معارفه وما يكاد يكتب تاريخ اليوم في اعلى الرسالة حتى يتوقف عن الاسترسال في كتابة الخطاب اذ يطغى عليه شعور من الكآبة والانقباض مما لا يدرك له سببا

مباشرا او معلوما • وعندما جاء ليرى المحلل النفسي ليتحدث معه عن العوامل المؤدية الى بروز هذه الظاهرة في سلوكه وجد ان كتابته التاريخ في مقدمة الرسالة صادف عقدة في ذهنه لها علاقة بتاريخ معين في حياته الماضية ومنذ سنوات عديدة يوم حدث له أمر غير مناسب ظل مطويا عن عالمه الواعي اذ لم يتذكر الخبرة المؤلمة الاصلية التي عانى منها عندما كتب تاريخ الرسالة ولكنه تعرض للانفعال الذى رافق الحادثة فسبب له مزيدا من الكآبة والانقباض وهذه كلها دليل على العقدة النفسية الثاوية في القسم اللاشعوري من عقله •

وهذه امرأة تثار حدة مزاجها حول حصول بقعة وسخ لغطاء مائدتها وفي عملها هذا انما تتنفس عن « عقدة نفسية » ظلت حبيسة في اعماقها من شعورها بالسخط ضد اخ او اخت لها كان احدهما يسبب الضيق لها او يحطم احدى لعبها عندما كانت صغيرة السن ففي نفسها عقدة ضد تخريب ممتلكاتها وهذه العقدة ذاتها تجعلها لا تتسامح تجاه اي مضايقة توجه نحوها •

وعند دراستنا مثل هذه الحالات نجد ان الحوادث المؤلمة تظل قابعة في اللاشعور لانها لا يمكن حلها في وقت حدوثها • فالشخص الذى يواجه انفعالية شديدة الوقع على النفس ولا يمكنه التعبير عنها او التنفيس عن الالم الذى يرافقها فانها تصبح في حالة مكبوتة او منسية والطريقة الوحيدة لتحرير الطاقة الشفائية التي تجمعت حولها هو بنقلها الى مستوى التعبير الشعوري عنها وعندما يتحدث المريض عنها فانه يعيشها مجددا ويحياها خالية من الالم الذى ينغص له الحياة كلها •

ان العقد النفسية مسؤولة عن كثير من المحاب والمكاره التي نوجهها للاشخاص الاخرين الذين قد لا نعرفهم وسبب ذلك وجود سلسلة طويلة من الافكار والحوادث المقترنة مع بعضها والتي تربط العقد النفسية بالنتائج التي نواجهها الان والتى لا نعرف لها كلها غير ان معناها ينجلي لنا اذا سبرنا غور تلك المشاعر وتذكر الحوادث والاشخاص الذين لعبوا دورا رئيسيا في تكوين تلك العقد فينا منذ السابق • ومن الامثلة على ذلك تعلقك بشخص لا تعرفه وانما لمجرد وجود شبه في المظاهر والسمات التي تذكرك بشخص تعودت على الاعجاب به في عهد مبكر من حياتك ولم تستطع التعبير له عن ذلك لموانع مختلفة فطمست معالم ذلك الشعور في الذاكرة ولكنه برز لك الان بكل معالمه الانفعالية البعيدة الاثر • ومن الامثلة الاخرى وجود كره لا سبب له لاحد ابناء الجيرة والمحلة بالرغم من عدم تعرفك عليه شخصيا وذلك لانه يثير في نفسك اقترانا للمكان الذى برزت به في حياتك الطفولية فعانيت من خبرات انفعالية غير ملائمة لك والتي ظلت جسيمة في اعماق الذات وانبعثت اثارها عند مواجهتك الدار أو الشخص الذى ينتسب اليها ذلك الجار فيجعلك تتوجس الريبة من لقياه •

وقد يمكن جس اثار العقدة النفسية في الارتباك الظاهر الذي يعاني منه الشخص الذى يؤدي واجبا امام احد رؤسائه او من ذوي السلطة عليه فلا يحسنه ويظل في حالة يرثي لها من التشوش وفقدان السيطرة على تفكيره وعمله وهذه الحالة يمكن ارجاعها الى خوف ذلك الفرد من الصورة المؤنبة لابيه يوم كان ما يزال طفلا غض الاهاب حيث يحاسبه ابوه على كل عمل يقوم به ويصر على التفتيش عن اغلاطه وهفواته فتبقى العقدة غير محلولة في النفس تثار الانفعالات المرتبطة بها كلما صادف الشخص من يتعقب اعماله ويستقصي عليه الاخطاء التي يقع فيها .

فيتجلى لنا مما سبق عرضه ان العقد النفسية ما هي الا دوافع مكتسبة دائمة التأثير في سلوك الفرد ومشاعره تكسبه عادات لا تصلح لتلاؤمه مع المجتمع وتولد له صعوبات في النهوض بمسؤولياته في الحياة الاجتماعية كما تجعله عاجزا عن حل مشكلاته بالطرق المنطقية والمعقولة التي يقر اعضاء الهيئة الاجتماعية قبولها والمصادقة عليها .

ومن العقد النفسية الشائعة الذكر في كتابات مدرسة التحليل النفسي التي اوجدها سيجموند فرويد هي « عقدة اوديب» وقد جاءت هذه التسمية من الاسطورة اليونانية للملك اوديب الذى قدر له ان يقتل اباه ويتزوج من امه . ومصدر هذه العقدة في حياة كل طفل وجود رغبة لاشعورية في تعلق الولد الصغير بأمه والغيرة والكره لابيه وحب البنت اباها والاستعاضة عن حب امها بالغيرة منها والنفور عنها . ويعتقد فرويد ان الولد الصغير يبدأ استطلاعه الجنسي لامه سافرا وصريحا وذلك في رغبته في الانضواء معها في فراش واحد عند النوم واصراره على الاستئثار بها كليا لنفسه دون ابيه وانه يتألم حين يرى اباه وهو يظهر المودة والتلطف لها . اما البنت الصغيرة فهي على النقيض من ذلك فبالرغم من عناية الام بها وحرصها على بذل المزيد من الخدمات لها فانها تبقى شاخصة النظر الى ابيها ومتعلقة به وشديدة الاعجاب لشخصيته وتمنحه من الود والاهتمام ما لا تبذل بعضه لامها وقد تضيق ذرعا بأمها وتود لو انها تحل محلها في عناية الاب بها دون امها .

وتستند مدرسة التحليل النفسي الى هذه النظرية في تفسير عقدة اوديب الى ما يلاحظ عند العصابيين من الاشخاص الذين ما يزالون مرتبطين ارتباطا انتكاسيا ــ مثلما كان الامر يوم كانوا اطفالا ــ باحد الابوين ولا يستطيعون ان يكونوا ارتباطات الحب الجنسي القائمة بأحد الاشخاص ممن يختارونه زوجا لهم من خارج دائرة الاسرة التي ينتمون اليها . فمن اليسير علينا ان نشاهد شابا ما زال مرتبطا بخيوط حماية الام له وانه يتجنب ان يختار له شريكة في حياته لانه يريدها صورة طبق الاصل لامه ويعتمد عليها اعتمادا انفعاليا مثلما كان معتمدا على أمه يوم كان طفلا غريرا .

ومن عقدة اوديب نجد ان الحالة الشعورية في الفرد تمنعه عن التفكير بامه لانها من المحرمات عليه ولذلك فانه يكبت فكرة تعلقه بالام لانها تولد له تجسسا بالاثم وشعورا بالجريمة فيكافح هذه الفكرة بابقائها مكبوتة على شكل رغبة لاشعورية لا يمكن التعبير عنها • وتظهر اثار هذه العقدة في الشاب الذى يرى في الفتيات اللاتي يتعرف عليهن صورة مماثلة لامه حيث يرى ان من المحضور عليه لاشعوريا الزواج باحداهن ما دام الحضر والتجريم قائما ضد الزواج بالام •

وشبيه بذلك موقف المرأة العصابية التي تصاب بنفس الانحراف من جراء طغيان عقدة اوديب في سلوكها والتي تجعلها قادرة على تكوين ارتباطات حب قوي وعنيف بالرجال الذين يشبهون اباها الى حد بعيد ومن الطبيعي ان الرجال الذين يحلون محل ابيها لا يكونون وسائل مناسبة للزواج باحدهم ما دام العارض المنعي في الزواج بالاب قائما يمنع الشعور الواعي من التفكير فيه •

ويظهر اثر عقدة اوديب في الاشخاص العصابيين والذين تطغى عليهم اثار هذه العقدة التي تنغص حياتهم وتربك مستقبل ايامهم فتحقق العقدة النفسية هذه رضى جزئيا للزواج من الرجل الارمل او المرأة الارملة وبهذا يتسنى لهما تحقيق دافع عقدة اوديب الاصيلة فيهما • فالزواج للفتاة بالرجل الارمل او المتزوج سابقا يعني تحقيق الزواج عمن يقوم مقام الاب • او الزواج للشاب بالمرأة الارملة او المرأة المتزوجة سابقا هو في الواقع بمن يقوم مقام الام •

والخلاصة فان في كل واحد منا عقدا نفسية تتطلب منا ان نتعرف على بواعثها فينا والكشف عن اثارها في تحوير سلوكنا وابعاده عن السبيل القويم • ولهذا السبب فاننا نحتاج الى مساعدة عقل اخر مدرب من رجال التحليل النفسي او العلاج العقلي للتغلب على جدار الكبت الذى اقيم حول خبرات حياتنا الطفلية المبكرة والتي اصبحت عوامل ممهدة لاصابتنا بالامراض النفسية ومعاناتنا المصاعب والمشاكل والازمات في عمر متأخر ولابد من فك تلك العقد النفسية من عقالها للخطورة بالدعوة والامان ••

عندما جاء موند الى بغداد

خيري العمري

منذ بدء تكوين الحكم الاهلي في العراق والصراع في فلسطين بين العرب والصهاينة يشغل ذهن الرأي العام العراقي ويثير اهتمامه وقد عنيت الصحافة المحلية بهذه القضية عناية بالغة فكتبت المقالات الضافية في شجب الحركة الصهيونية واستنكار وعد بلفور .

ولعل جريدة (الاستقلال) التي كان يصدرها (عبدالغفور البدري) كانت من اشد الصحف حماسة في الدفاع عن فلسطين وقد استطاعت ان تفضح البوادر الاولية لمظاهر النشاط الصهيوني في العراق وتنبه الرأي العام الى ذلك ، ففي شهر ايلول من عام ١٩٢٣ تسرب الى بغداد كتاب بعنوان « النهضة الاسرائيلية وتاريخها الخالد » يتضمن دعوة صريحة الى الصهيونية فشنت (الاستقلال) حملة شديدة على الكتاب في (٤) ايلول ١٩٢٣ وقالت في نقده « .. الكتاب ليس كما يدعي المؤلف في عنوان كتاب نهضة وتاريخ بل دعوة الى الانضواء الى لواء الصهيونية لانه يحبذ الصهيونية وأعمالها ونحن نعتقد أن نشره ليس دفاعا عن مصلحة الاسرائيليين للعرب بل تزلفا الى الصهيونية وهذا كان الشعور الذي استحوذ علينا حين مطالعتنا الكتاب » ثم خاطبت اليهود في بغداد قائلة ... « .. اننا نناشدهم ان يقاطعوا الكتاب واذا كانوا مخلصين فليبينوا رأيهم في الصهيونية وصدر هذه الجريدة مفتوح .. »(١)

وفي اليوم التالي واصلت الحملة ومضت تفضح مظاهر النشاط الصهيوني في بغداد فقالت « نأسف كثيرا ان نرى يهود العراق يقبلون على مثل هذا الكتاب ونندهش كيف تسمح الحكومة العربية العراقية وسانسورها (كذا) !!(٢) بنشر هذا الكتاب ويشهد الله اننا كنا قد غضضنا الطرف عن الصهيونية ولكننا لما رأيناها تتفشى بيننا ورأينا النجمة الصهيونية مرسومة على أبواب المخازن والتبرعات تذهب الى فلسطين كما بلغنا وكتاب

(النهضة الاسرائيلية) يباع على مشهد منا رأينا السكوت عن ذلك خيانة للعرب والوطن ٠ »(٣)

لذلك كانت حوادث فلسطين الدامية تترك صداها العميق في الرأي العام وقد سارع الجمهور بسبب موقف الصحافة وفي مناسبات مختلفة من عام ١٩٢٥ ـ ١٩٢٦ و١٩٢٧ الى عقد الاجتماعات الاحتجاجية وجمع الاعانات المالية لمساعدة فلسطين العربية ٠

وفي أوائل عام ١٩٢٨ تناقلت وكالات الانباء العالميـة ان (السير الفردموند) وهو أحد أقطاب الحركة الصهيونية وكبار رجال المال سيقوم بجولة في أقطار الشرق الاوسط ، وربما سيزور العراق لاغراض اقتصادية منها ما يتعلق بدراسة مشروع مد أنابيب النفط من العراق الى البحر الابيض المتوسط ومنها ما يتصل بدراسة امكانية تحسين الاراضي الزراعية في العراق باختيار السماد الكيمياوي الملائم للتربة ٠

وقد اثارت هذه الزيارة لاقترانها بالاحداث الدامية في فلسطين ارتياب الرأي العام وشكوكه ، وسرعان ما تحولت تلك الشكوك الى مشاعر عميقة من السخط والغضب عندما سرت في بغداد اشاعة مفادها ان السير (الفرد موند) سيصل العاصمة في (٨) شباط وان الطائفـة اليهودية تستعد للترحيب به وتقيم الاحتفالات ابتهاجا بمقدمه وقد استفزت هذه الاشاعة الجمهور لما تنطوي عليه من تحد لمشاعره الوطنية ولما تضمنته من استهانة بعواطفه القومية ، وقد حفزت تلك الاشاعة طلبـة دار المعلمين والثانوية المركزية والحقوق وغيرهم الى عقد اجتماع في (نادي التضامن) تداولوا فيه الأمر مع بعضهم فاستقر رأيهم على انتهاز هذه الفرصة للقيام بمظاهرات تعبر عن سخطهم على الحركة الصهيونية وتفصح عن مشاعرهم القوميـة ، وقد شجعهم على ذلك نجاح المظاهرات التي قامت في العام الماضي دفاعا عن « النصولي » وانتصارا لحرية الرأي وما حققته تلك الحركة من (بطولات) وما اثارته من صدى بعيد في مختلف الاوساط وتسلل الطلبة بعد هـذا الاجتماع فمضى بعضهم يعد الشعارات(٤) وراح بعضهم الآخر يحضر الاعلام الوطنية وانصرف آخرون الى تحريض الطلبة على الاشتراك في هذه الحركة ٠

وفي ظهر يوم (٨) شباط(٥) اجتاحت شارع الرشيد مظاهرة طلابية تحمل الاعلام العراقية وترفع لوحات كتب على بعضها (ليسقط وعد بلفور) (فلتسقط الصهيونية) (تحيا الامة العربية) وتشق هتافاتها التي تردد تارة (فليسقط بلفور ووعده) وطورا (بيت المقدس عربية) وحينا آخر (فليرجع الزعيم الصهيوني الفرد موند) عنان الفضاء ٠

وبعد ان سارت المظاهرة في شارع الرشيد عبرت الى جانب الكرخ حيث انضمت اليها جموع شتى من الجماهير ، واتجهت نحو جسر الخر بعد ان اتسعت وتعاظمت بحيث بلغت في تقدير بعض الصحف (٣٠٠٠) شخص ٠

وقد تصدى رجال الشرطة الى هذه المظاهرة في محاولة لمنع مواصلة سيرها نحو جسر الخر ، فاشتبكوا معها في معركة عنيفة استعان فيها الطلبة بالحجارة والعصي والقناني واستخدم فيها الشرطة هراواتهم وخيولهم فداسوا بسنابكها بعض الطلبة ممن اصيبوا بجروح بليغة وفشلت محاولاتهم في تشتيت المظاهرة فواصل الطلبة سيرهم نحو جسر الخر في جو من الحماسة ونشوة الظفر .

وعند جسر الخر رابط الطلبة وعيونهم ترقب بحذر ونشاط وتفتش السيارات القادمة بغية العثور على سيارة (الفرد موند) حتى اذا خيم الظلام ولم يجدوا أثرا لسيارة (موند) عادوا الى شارع الرشيد في الليل وهم يهوسون بحماس اشد « ردينا السير موند وجينا » والمارة في الشارع تصفق لهم والنساء من الشرفات تزغرد(٦) .

* * *

لقد فوجئت حكومة (عبدالمحسن السعدون) بهذه المظاهرة العنيفة وخشت ان يتعرض (الفرد موند) الى اعتداء ، فسارعت الى حمايته من غضبة الشعب وثورة الجماهير ، فاوسلت بعد ان فشلت الشرطة في منع المظاهرات من الوصول الى جسر الخر بسرعة مدير شرطة بغداد ـ حسام الدين جمعة ـ مع قوة من الشرطة الى نقطة (ابي منيصير) حيث استقبل من هناك (السير الفرد موند) ووضعته تحت حراسة مشددة ونقله تحت ستار الظلام الى الكاظمية ومنها الى الاعظمية والى (دار الاعتماد البريطاني) حيث حل ضيفا هناك مع زوجته وابنته الليدي (أيرليا) اما حاشيته فقد نزلت في دار السير اليازر خضوري أحد أثرياء اليهود المقيمين(٧) في لندن .

وبادرت الحكومة في مساء اليوم نفسه الى اتخاذ اجراءات سريعة فكبست الشرطة (نادي التضامن) وابعدت رئيسه (يوسف زينل) الى البصرة وفق احكام المادة (٤٠) من قانون دعاوى العشائر !! وذلك باعتباره الشخص الذي يختفي وراء تلك المظاهرات .

واستدعت عددا من مدراء المدارس لاستجوابهم والتحقيق معهم وسارعت وزارة المعارف الى اتخاذ قرارات سريعة يقضي بعضها بالطرد المؤبد وبعضها الآخر بالطرد الموقت بعد ان عقد وزير المعارف اجتماعا مع مديري المدارس وأساتذتها هدد فيها برمي المتظاهرين من الطلاب بالرصاص!!(٨) وفي (١٩) شباط عندما انعقد مجلس الوزراء باغت المستشار القانوني لوزارة العدل المستر (دراور) الوزراء باقتراح يتضمن اصدار مرسومين الاول رقم (١٣) يخول وزير المعارف حق جلد الطلبة ، والثاني رقم (١٤) يخول وزير الداخلية سلطة وضع الاشخاص تحت الرقابة وكلا المرسومين يتضمنان اثرا رجعيا بحيث يشملان الوقائع السابقة لصدورهما.

وقد اثار الاقتراح ازمة فاحتج وزير العدلية (حكمت سليمان) على

ذلك باعتباره قد فوجيء بعرض هذه المراسيم ولم يؤخذ رأيه بها وأعرب عن رغبته في الاستقالة[٩] • واعترض وزير المعارف (توفيق السويدي) على مبدأ الاثر الرجعي لتلك المراسيم واعتبارها شاملة لحوادث المظاهـرات الواقعة قبل صدورها وهدد بالاستقالة الا ان المستشار القانوني أراد ان يعالج الازمة فعدل اقتراحه بحيث حذف الاثر الرجعي بسن المرسوم رقم (١٣) الذي يخول وزير المعارف جلد الطلبة وإبقائه في المرسوم رقم (١٤) الذي ، يخول وزير الداخلية سلطة وضع الاشخاص تحت الرقابة فصرف السويدي النظر عن الاستقالة بحجة ان المرسوم رقم (١٤) الذي اعترض عليه لوجود الاثر الرجعي فيه لا يعود تنفيذه اليه وانما لوزير الداخلية ! •

وقد بادرت السلطات الى احالة عدد من الشباب الى محاكم الجزاء بتهمة القيام بتظاهرات مخالفة لاحكام المادة ٨٤ و٨٥ من قانون العقوبات البغدادي فتطوع كل من كمال السنوي وعبدالعزيز جميل ومحمد سالم الكيلاني بالدفاع عنهم[١٠] •

وقد قال محمد سالم الكيلاني في مرافعته (••• ان الطلبة دائمـا يقيمون المظاهرات السلمية تأدية لواجبات وطنية ولم يكن قصد المتظاهرين السلب والنهب والاخلال بالامن وانما الامر كان بالعكس فان المتظاهرين قاموا بمظاهرات يشترك كل منا فيها روحيا ، ولو نظرنا الى قواعد علم النفس لوجدنا ان تعريف الجماعة عبارة عن ذات معنوية غير مركبة تحس بشعور واحد وترمي الى غاية واحدة فتكون والحالة هذه الجماعة العراقية بأسرها مشتركة في هذه الجمعية والتفرق المادي لا يعني شيئا - لذلك فان المادة ٨٤ لا تنطبق لانها تنص على عقاب جمعية والجمعية يجب ان تكون نظاما خاصا وغاية خاصة وشخصية معنوية ••• واذا تسنى لنا ان نحتج بقاعدة لا جريمـة ولا عقاب الا بنص فيكون لنا الحق ان نقول ان قانون العقوبات البغدادي ليس فيه مادة تنص على أعمال هؤلاء المتهمين ••• »[١١]

* * *

وقد كسبت تلك المظاهرات عطف الراي العام لانها جاءت تعبر عن حقيقة مشاعره فسارع الشعب الى عقد اجتماع في (جامع الحيدرخانة) في أول جمعة من وقوع تلك المظاهرات ، أعرب فيها عن انتصاره للطلبـة واحتجاجه على اعتقالهم وطردهم وتعالت في ذلك الاجتماع هتافات عاليـة بسقوط الصهيونية وحياة العرب ، وطلعت الصحف في اليوم الثاني حافلة بأخبار المظاهرات وانباءها فأصدرت جريدة (العراق) ملحقا خاصا نقلت فيـه الى الجمهور تفاصيل المظاهرة وما رافقهـا من ملابسات ولم تكتم الصحافة المحلية رغم ما كانت تعانيه من اضطهاد عطفها على هذه الحركة وانبرت تهاجم الحكومة على الاجراءات التي اتخذتها بحق الطلبة • فقالت العراق « ••• لقد كان لصدور المرسومين ١٣ و١٤ أمس صدى عميق في

نفوس الناس فباتوا يتساءلون ما يراد بهم وما هو الوضع الجديد الذي انقلبت اليه البلاد ؟ ... وكيف سينشأ ويربى هؤلاء الشبان الذين يعاقبون بهذا النوع من العقاب الجلد ؟؟ ... »(١٢)

وكتبت جريدة النهضة تقول (... ان قيام بعض الافراد الشواذ اخواننا الاسرائيليين لاستقباله - أي الفرد موند - كزعيم صهيوني جعل العواطف تختلف بالنسبة الى الغاية المتوخاة لان اولئك النفر ما ارادوا لذلك الا اظهار عواطفهم تلقاء اخوانهم في فلسطين كما اننا نرغب الى الحكومة الاتلوم الطلبة على اظهار مثل هذه العواطف ..)(١٣)

وعندما تعرضت (بغداد التايمس) الى تلك المظاهرات بالدس وحاولت ان تستعين بعبارة وردت في تقرير الشرطة لتدلل على انها مظاهرات همجية وتنعتها بأنها (اضحوكة العالم) تصدت لها جريدة (العراق) ومضت ترد عليها وتقول ان الطلبة في مختلف أقطار العالم المتمدن يقومون بتظاهرات من شأنها ان تعزز الشعور القومي وتكون موضع التقدير ، وتساءلت كيف تسرب التقرير الرسمي وهو سري الى (بغداد تايمس)؟؟(١٤)

وطلع (ابراهيم صالح شكر) بحملة شديدة على (البغداد تايمس) قال فيها (ما انتهز الطلبة قدوم موند الا لما له من الزعامة بين القائلين (بالصهيونية) والعاملين على تمكين وعد بلفور في سورية الجنوبية أو فلسطين كما تسميها (جغرافية الاستعمار) ... اما ان تقوم جريدة البغداد تايمس فتمس شعور الطلبة في العراق وتستهتر بهم وتصفهم بما لا يناسب الادب والكرامة فذلك ما ننقم منه وذلك ما يبعث الحنق في النفوس فهل لوزارة السعدون ان تعلم (البغداد تايمس) كيف يكون الغريب أديبا في بلاد الناس ؟)(١٥)

وبالرغم من الرقابة الشديدة التي فرضها السير (هنرى دوبس) المندوب السامي البريطاني على البرقيات الخارجة من العراق ، فقد تسربت الى الخارج وتناقلتها وكالات الانباء العالمية ، فذكرت وكالة رويتر في ١٠-٢-٩٢٨ (ان السير الفرد موند وزوجته وحاشيته ... اضطروا الى دخول بغداد عن طريق غير مألوفة لينجوا من تهديد جمهور مؤلف من عشرة آلاف شخص لمنعه من دخول بغداد لما اتصل بهم انه قادم لادخال الصهيونية في العراق ...)

ونشرت الديلي اكسبريس مقالة بعنوان (الرقابة تكم الافواه في العراق) أشار فيها مراسل الجريدة الى ان السلطات العراقية تحجز البرقيات لتعرضها على المندوب السامي ، وان سكرتير المندوب السامي منعه من ارسال البرقيات حول مظاهرات الطلبة ضد السير الفرد موند ، وان المراقبة الشديدة التي اعتبرها في الحرب الاهلية في ايرلندا وخلال اقامته في موسكو لم تبلغ الشدة التي بلغتها الرقابة في العراق ذلك الوقت .

وقد كان لهذه المقالة صداها الشديد ، بحيث اثيرت في مجلس

العموم البريطاني وقام النائب البريطاني (الكومندر كنور ذى) فحمل حملة شديد على الحكومة تدد فيها بسياسة الشدة والقمع •

واهتمت الصحافة العربية بتلك المظاهرات فكانت السياسة الاسبوعية تنشر تطوراتها وذيولها ونتائجها •

وكتب محمود عزمي يعلق على هذه الحركة قائلا (انها نفسية العراقيين القلقة ·· وقلقها هذا يدعوها الى تلمس الانفجار وتنتهز أي فرصة لتنفجر فيها انفجارا يخفف من وطأة أسباب القلق الاصلية بقصد التخفيف)(١٦) •

وقالت جريدة الشورى (ايه يا عاصمة العباسيين ·· لقد غضبت للقدس كما غضبت عاصمة الامويين منذ ثلاثة اعوام ·· لقد اضطـــربت اعصابك قبل ان يحل الفرد موند ارضك وقبل ان يمس ترابك، ان غضبة دمشق يوم زيارة بلفور وان غضبة بغداد يوم زارها السر الفرد موند لدليل على أن سكان الجزيرة العربية كأعضاء الجسم الواحد ان تألم منه عضو تألم الجسم كله • »(١٧)

وابرق طلبة الجامعة الوطنية في (عالية) والطلبة العرب في باريس يحتجون على فصـل الطلبة ويطالبون باعادتهم ، كما بعث (محمد عزة دروزة) مدير مدرسة النجاح في دمشق بما تبرع به الطلبة السوريون الى اخوانهم العراقيين •(١٨)

* * *

وفي صفوف الطلبة بدت روح التضامن ، فعندما جاءت الشرطة لتاخذ المفصولين من القسم الداخلي من دار المعلمين شيعهم زملاؤهم تشييعا حارا فتسابق فيه الطلبة الى القاء الخطب وانشاد الاشعار •(١٩) وحين سافر (حسين جميل) وهو أحد المفصولين من كلية الحقوق الى دمشق ليواصل دراسته سارع الطلبة الى توديعه باحتفال كبير يكشف في ذلك(٢٠) الوقت عن وحدة الشعور بينهم ، وقد مضى احدهم ـ عثمان قادر ـ يكتب في الصحف يرد على تخرصات (البغداد تايمس) و (العالم العربي) ويدعو الى مقاطعة الجريدتين المذكورتين •(٢١)

وفي صلابة وعنـاد رفع الطلبة الى (عبدالمحسن السعدون) رئيس الوزراء احتجاجا ، نص على (··· تبلغنا بتاريخ ١٤ شباط ١٩٢٨ قرار وزارة المعارف الجليل القاضي بطردنا من المدرسة طردا مؤبدا بناءا على ادعائها بأن لنا صلة بالمظاهرة التي اقيمت ضد الصهيونية يوم ٨ شباط ١٩٢٨ ، وبما أن القرار الوزاري المشار اليه مجحف بحقوقنا فنحن نطلب من فخامتكم أن تصدروا امركم الى هذه الوزارة باعادة النظر في قرارهـا المذكور نظرا للاسباب التالية :

١ ـ أن وزارة المعارف الجليلة لم تجر تحقيقاتها في قضيتنا وفق القواعد القانونية فأنها لم تحضرنا امام المحققين ولن تسمع منا دفاعا يبرىء

ساحتنا أو شهودا ينفون عنا التهم التي الصقت بنا بالاقوال المجردة واما أخذنا بالشبهات خلافا للقاعدة الشرعية القائلة بأن الحدود تدرأ بالشبهات • وانه لشيء كبير يا صاحب الفخامة ان يعاقب بهذا العقاب الصارم عدد غير قليل من الشباب بمجرد الاقوال والشبهات •

٢ ـ ان الحادثة التي عوقبنا من أجل الاشتراك بها وقعت في اصيل ٨ شباط أي في وقت غير وقت الدوام في المدارس وأن طلاب المدارس انما يعاقبون اذا ارتكبوا أفعالا مخلة بالنظام المدرسي ولم يكونوا بوجه من الوجوه معرضين للعقاب عن أمور لم تقع في بناية المدرسة اللهم الا اذا تصرفوا بأخلاق مشينة لا يقبلها نظام المدارس وان المظاهرة ضد الصهيونية لم تكن من هذا القبيل بكل كانت حركة شريفة سامية •

٣ ـ ان القواعد القانونية لا تجيز العقاب بدون نص وليس باستطاعة الوزارة الجليلة أن تبين لنا المادة التي استندت اليها في طردنا ومعاقبتنا اياها هذا العقاب الصارم •

٤ ـ ان مظاهرة ٨ شباط ليست من الحوادث المخلة بالنظام العام وسلامة الدولة لان المظاهرة المذكورة اقيمت احتجاجا ضد الصهيونية التي تعاني مرارتها فلسطين العربية الشهيدة ، وان الصهيونية يا صاحب الفخامة ليست من المبادىء المعترف بمشروعيتها في العراق حتى يكون الاحتجاج عليها مخالفة للنظام العام أو يهدد سلامة الدولة •

وانها بالضد من ذلك فان السماح بالدعوة اليها وتثبيت أصولها وجعل هذه البلاد مسرحا يرتع فيه زعماؤها ودعاتها مما يستوجب الاخلال بالنظام العام وسلامة الدولة لان الرأي العام العراقي مجمع على مقاتلتها ومقاومتها ونحن على يقين من أن قلب كل عربي يخفق عطفا على فلسطين العربية كما خفقت قلوب المتظاهرين بالامس •

وأن قولنا بمشروعية المظاهرة يوم ٨ شباط لا يستفاد منه اننا كنا من المتصلين بها وان اردنا أن نصارح فخامتكم بأن الاشتراك في مثل هذه المظاهرة السلمية لا يستلزم هذه الضحايا •

٥ ـ ان العقوبات التي فرضتها الوزارة لم تفرض من مقام ذي اختصاص بفرضها لان هيئة التحقيق في هذه الحادثة لم تؤلف من مدرسي المدارس التي طرد طلابها وأن القواعد المتبعة تستلزم اشتراك المدرسين لانهم ادرى بطلابهم وأهدى من غيرهم الى سبيل التحقيق المنتج •

٦ ـ نحن لا ندري ما هو الاصلاح المنشود من طرد عدد غير قليل من الشبان من المدارس وحرمانهم من ارتياد مناهل العلم مع أن الغاية

المتوخاة من العقوبة هي الاصلاح فنحن نعرض اليكم يا صاحب الفخامة طلبنا هذا منتظرين اصدار امركم الى الوزارة الجليلة باعادة النظر في قرارها المنوه عنه وارجاعنا الى مدارسنا ولكم الشكر ٠

بغداد ٧ـ٢ـ١٩٢٨(٢٢)

وكانت مشاعر الطلبة ذلك الوقت تتقلب بين الامل واليأس والتشاؤم والتفاؤل وقد عبر (فائق السامرائي) عن ذلك الشعور الذي كاد يسود الطلبة بمقالة طلعت في جريدة (الاستقلال) بتوقيع ـ أبو نزار ـ جاء فيها « يقوم الطالب المصري والطالب السوري بعمل يدعوه اليه الواجب وهو ماض العزم رابط الجأش ٠٠٠ عالم بان وراءه أمة بأسرها تحزن لحزنه وتفرح لفرحه ٠٠ اما هنا فقد طرد الطلاب وسجنوا واهينوا واودعوا المستشفيات وسحقوا بسنابك الخيل وضربوا بأعقاب البنادق فماذا كانت النتيجة !! ٠٠٠ تأكد ايها القارىء باني سمعت بأذني كلمات التشفي والتبكيت ما لكم والسياسة ؟ احرصوا على درسكم ؟ ما أنتم وهذه الامور ؟ ٠٠٠ اما في مصر فهذا محمد محمود لا يجرأ ان يمس الطلاب بسوء وها هي اجتماعاتهم ونواديهم يشرف عليها زعماء الوفد ورجالاته ٠٠٠ ولو انصفنا الطلاب هنا لما عذلناهم لتهافتهم على المقاهي ما زال ارتياد النوادي الادبية يصبح خطرا وما زال الخراطهم في عقد منتسبيه هو الذي يؤدي الى اغلاقها وما حدث نادي التضامن عنا ببعيد !! ٠٠٠ »(٢٣) وبادر حزب الشعب الذي كان يتزعمه (ياسين الهاشمي) الى رفع احتجاج الى (عبدالمحسن السعدون) رئيس الوزراء في ١٦ شباط ١٩٢٨ جاء فيه : (٠٠٠ ان اصدار مثل هذه المراسيم يجعل وضع البلاد تحت الادارة العرفية ولا يلائم بأي وجه الاحوال الاعتيادية التي تسير فيها الانتخابات العامة وكذلك نشير الى العقوبات المنصوص عليها في المرسوم الى الاعمال التي سبق نشرها ٠ ان القوانين والشرائع التي اتفق على عدم جواز ذلك فعليه نقدم احتجاجاتنا الشديدة على هذا العمل وعلى اعادة عقوبة الجلد الى المدارس ٠٠)

ومن الموصل ارسل الحزب الوطني الذى كان (سعيد الحاج ثابت يترأسه) كتابا في ٢١ آذار ١٩٢٨ يحتج فيه على فصل الطلبة ويطالب باعادتهم الى المدارس ٠ وامام هذه الحملات التي انهالت على الحكومة انبرى (سلمان الشيخ داود) يدافع بحماسة عن تلك المراسيم ويتهم (ياسين الهاشمي) بانه وراء تلك المظاهرات فقال (٠٠ ان الهاشمي يحتج على هذه المراسيم باسم حزب الشعب ويحتج بشدة ٠٠ وهكذا نجد الهاشمي يذكر الحزب الذي اتخذه مطية لاغراضه في الشدة وينساه في الرخاء ٠٠ وقد يكون احتجاجه تكفيرا عما أصاب الطلاب الاعزاء من المصائب وقد

يكون احتجاجه لترضية الشبيبة العزيزة التي اتخذها مطية لتنفيذ أغراضه الشخصية وآماله الخائبة ... اني اود ان يكون المحرضون في طليعة المتظاهرين وفي مقدمتهم ولكن يا للأسف وجدتهم يختبئون وراء جدران منازلهم »(٢٤) .

* * *

وعندما افتتح البرلمان دورته غير الاعتيادية في مايس ١٩٢٨ انتقلت المعركة من ميدان الصحافة الى قاعته ، فقامت المعارضة التي تضم نواب (حزب الشعب) وغيرهم بحملة شديدة ضد المرسومين ١٣ و١٤ وما ينطويان عليه من مجافاة للدستور ! وذلك في الجلسة المنعقدة في ٢٥ تموز ١٩٢٨ .

فقال محمود صبحي الدفتري (... ان هذه المراسيم اعطت سلطة لوزير الداخلية بان ينفي أو يلقي القبض على من يعتقد أو يثبت لديه بانه حرض أو يحرض على عمل يخل بالامن وهذه السلطة كانت موجودة في عهود التأريخ وكنا نسمع بها عن الامبراطورية الروسية وفي زمن الحكومة العثمانية قبل اعلان الدستور ... ولكن لم نر انه اعطي هذا الحق لحكومة ما في زمن الدستور وفي زمن القوانين وفي زمن وجود مجلس الامة .. »

وتساءل ياسين الهاشمي(٢٥) قائلا (ما الذي ينجينا نحن وينجي الامة العراقية من ان تتكرر هذه المراسيم التي اتفقنا جميعا على استهجانها) ؟

أظن ان الطريق الوحيد هو ان يرفض مجلس الامة هذه المراسيم وبهذا الرفض يكون قد أيد نظرية الحكومة وجعل بيد الزمن الذين تعرض عليهم هكذا مراسيم سلاحا قويا فيقال ان مجلس الامة عرضت عليه سنة ١٩٢٨ مثل هذه المراسيم فرفضها ... وبهذا نكون قد امنا المستقبل وطمنا وجداننا بصفتنا مقرين بان هذه المراسيم لا تطابق القانون الاساسي ولكن اذا حاولنا حمل الاكثرية على تصديق هذه المراسيم نكون قد جنينا على الامة ... »

وقال رشيد عالي الكيلاني « .. ان الحكومة شملت المرسوم على ما قبله وهذا ما لم يسبق له نظير بل أصبحنا مهازل أمام العالم . ان يوسف زينل نفي وتكبد أضرارا ومشاقا ومتاعب وهو فرد من أفراد الامة فمن يحتمل هذه المسؤولية ؟ لهذه الاسباب أطلب من المجلس ان يسوق هذه الوزارة الى التحقيق النيابي حتى لا تتكرر امثال هذه الاحوال واقدم اقتراحي بذلك » .

وحمل (محمد جعفر أبو التمن) على وزارة المعارف وعقوبة الجلد، التي نص عليها المرسوم وما تنطوي عليه من جرح لنفوس الطلبة فقال

مخاطبا توفيق السويدي وزير العدل « ٠٠ بدلا من ان تكسر شوكة الطلبة وان تمس عزة نفوسهم بالجلد الامر الذي لا يحسن بأية حكومة ان تعمله كان عليه ان ينتقد هو مثل هذه المراسيم ولا يصدرها ٠ »

وقال محمود رامز (ان الطلاب قالوا فلتحي الوحدة العربية ولتسقط الصهيونية واني بصفتي نائبا اشترك معهم وأقول كلمتهم !) ووقف ناجي السويدي يلتمس المبررات لاصدار المراسيم وفي معرض خطابه غمز الملك فيصل الاول فقال (٠٠٠ اشهد ان الحكومة كانت مضطرة لوضع هذه التدابير الوقتية وانها كانت متألمة وانا اشهد على تألمها ٠٠٠ حسب تحقيقاتي ان الحكومة ما استعملت هذه الاجراءات وطلبت العقاب الموضوع في المرسومين سوى في قضية واحدة وهي القضية التي تجرى المناقشة عليها الآن ٠٠٠ وزيادة على ذلك أقول ان المظاهرة التي جرت لم تتلقاها الجرائد العالمية بهذا المعنى ومن الجملة اذكر خلاصة عن جريدة (الدلي اكسبريس) فقد نشرت بيانا للسر الفرد موند تقول فيها ان هذه المظاهرات لم يكن لها شأن في البلاد لانها وقعت من قبل الاولاد ٠ وان أكبر سلطة وأعلى مركز في البلاد اظهر عطفه العظيم على القضية الصهيونية ! ٠ فأنا أجلب أنظاركم الى انه يجب الا نحرج المراكز العالية بان تكون مضطرة الى بيانات كهذه ! ٠٠٠ »(٣٦)

* * *

لم يستطع الفرد (موند) بسبب تلك الضجة التي اثارها الطلبة ضده ان يبقى في بغداد أكثر من أسبوع ، زار خلالها في تكتم شديد بعض المدارس والنوادي اليهودية وحضر مأدبة أقامها له الملك فيصل وصرح الى جريدة (التايمس البغدادية) تصريحا اثنى فيه على فيصل وقال انه جاء الى العراق لمشاهدة أطلال بابل !! ودراسة بعض المشروعات الاقتصادية !! وفي (١٥ شباط)(٢٧) ١٩٢٨ غادر بغداد مع حاشيته على متن طائرة نقلته الى الرطبة حيث كانت سيارة نيرن الكبرى التي حملته الى بغداد بانتظاره ، وقد علقت (السياسة الاسبوعية) قائلة ان السير الفرد موند اختار السفر بهذا الاسلوب خوفا من قيام المظاهرات !!(٢٨)

وقد يكون من المفيد قبل ان نأتي على هذه الحكاية التي كشفت عن (بطولات الطلبة في سبيل مشاعرهم القومية ، ان ندرج ما جاء في التقرير البريطاني الذي كانت (دار الاعتماد) ترفعه سنويا عن العراق الى (عصبة الامم) ففيه ما يؤيد صحة ارتياب الطلبة بزيارة موند الى بغداد وفيه ما يشير الى ان وزارة السعدون قد أستغلت المراسيم التي اصدرتها في تلك الفترة لاغراض انتخابية ٠

وقد جاء في التقرير (٠٠٠ اللورد ملشت الفرد موند معاضد للحركة الصهيونية زار العراق في أوائل شباط وقبل ذلك قام برحلته الى فلسطين

وحصل على اطلاع تام على أعمال الصهيونية غير ان زيارته للعراق كانت بقصد درس الإحوال الزراعية والوقوف على عدم امكان أو امكان تحسين الزراعة في الاكثار من السماد الكيمياوي لها · ولما كانت الطائفة اليهودية في بغداد قد اظهرت رغبته في تنظيم الحفلات العامة على شرفه فقد راجت اشاعات مشوهه عن الاستحضارات التي اجريت في ذلك في بغداد واختلف دعاة السوء !! الفكرة القائلة بان اللورد جاء يبشر بالصهيونية لذلك كان وصوله الى بغداد في شباط قد أتاح الفرصة للقيام بمظاهرة ساخطة ضد الصهيونية وكان معظم المتظاهرين من أولاد المدارس في بغداد وجمهور متحمس من رعاع البلد ! انهمكوا في ضرب الحجارة والقناني واستعملوا العصي بحرية ضد الشرطة ··· وقد أظهر التحقيق ان التظاهرات كانت قد نظمت من قبل الرجال الذين ظهر بانهم يستخدمون عمدا كل وسيلة تصل اليها ايديهم ليثيروا الاضطرابات وكانت خطتهم ان يختفوا وراء الستار ويستخدموا من هناك الاولاد وتلامذة المدارس والكليات لذلك قررت الحكومة وضع تشريع خاص يمكن السلطات من معاملة المحركين من امثال هؤلاء وتوطيد النظام في المدارس ·

ولما لم يكن مجلس الامة مجتمعا فقد عرضت على الملك اصدار مرسومين الاول (١٣) يخول السلطة جلد تلامذة المدارس الذين في عمر (١٨) سنة · والثاني (١٤) يخول وزير الداخلية سلطة تحديد محل الاقامة من يحرضون لارتكاب جريمة منصوص عليها في الباب الثاني عشر ووضعهم تحت المراقبة · وهذه السلطة قد أدت بلا شك خدمة كبيرة للحكومة في حفظ الامن أثناء الانتخابات العامة وفي (٢٤) من شهر ايار عندما كانت الانتخابات قد انتهت الغي المرسومان ·)(٢٩)

---

(١) الاستقلال العدد ٢١٦ في ١٤ ايلول ١٩٢٣ ·

(٢) رقيب المطبوعات ·

(٣) الاستقلال العدد ٢٢٠ في ٥ ايلول ١٩٢٣ ·

(٤) كتب تلك الشعارات الخطاط بلال ·

(٥) روي لي (يوسف زينل) انه كان في ذلك الوقت يدرس في (مدرسة التقدم) وهي احدى المدارس التابعة للطائفة اليهودية واستطاع بالرغم من شدة التكتم ان يعرف من بعض الطلبة والاساتذة موعد وصول الفرد موند الى بغداد ·

(٦) ملحق جريدة العراق في ٩ شباط ١٩٢٨ ، جريدة العالم العربي في ١٠ شباط ١٩٢٨ ·

(٧) السياسة الاسبوعية ١٨ و٢٥ فبراير ١٩٢٨ كانت الحاشية مؤلفة من الفرد موند وعقيلته وابنته الليدي ايرليا والسير فردريك كمبيل وعقيلته والبارون جورج منشن وشقيقته والمستر نعمان سكرتير الفرد موند ·

(٨) طرد طردا مؤبدا من الحقوق (حسين جميل وعبدالقادر اسماعيل) ومن دار المعلمين (مزاحم ماهر ، سعيد عباس ، صالح عبدالوهاب ، عبدالوهاب الخطيب ، عبدالحميد الخالدي ، عبدالرزاق قاسم ، محمود الحمودي ، حسن مرهون ، عزيز علي ، اسماعيل علي ،

عبدالحافظ ابراهيم) ومن الثانوية المركزية كل من (سعيد عبدالاله ، أحمد قاسم راجي ، أدهم مشتاق ، عزيز شريف ، عبداللطيف محي‌الدين) وطرد طردا موقتا لمدة شهر كل من (جواد حسين ووديع فتح‌الله ومحمود عبدالجبار وعبدالهادي عبدالخالق) ومن الثانوية المركزية ، ولمدة اسبوع كل من (عبدالجليل علي وحسين راجي وخضر الحاج طالب) من الثانوية المركزية أيضا ، وطرد لمدة شهر من مدرسة الكرخ (عبدالعزيز علي الخليل وسعيد حميد) .

(٩) استقال حكمت سليمان في ٣ حزيران ١٩٢٨ لهذا السبب وذلك بعد انتهاء الانتخابات .

(١٠) حكمت محكمة جزاء بغداد على (خالد سعيد ويوسف داود وسعيد فتاح) بخمس جلدات وعلى كل من (عنايت‌الله محمود ورؤوف محمود وعلي أمين وجاسم علي وكمال‌الدين عبدالمحسن وحسن علي وعاصم فليح) بالحبس الشديد لمدة شهرين مع وقف التنفيذ باستثناء علي أمين وحسن علي لوجود محكومية سابقة ، وافرجت عن كل من (باقر عباس ، أنيس زيتو ، عبدالوهاب علي ، البير نسيم) .

(١١) العراق في ١٦ آذار ١٩٢٨ .

(١٢) العراق في ١٥ شباط ١٩٢٨ .

(١٣) النهضة في ١٧ شباط ١٩٢٨ .

(١٤) العراق في ٢١ شباط ١٩٢٨ .

(١٥) الزمان في ٢١ شباط ١٩٢٨ . الزمان في ١٠ نيسان ١٩٢٨ .

(١٦) السياسة الاسبوعية في ٣ مارس ١٩٢٨ كان روفائيل بطي يراسلها من بغداد .

(١٧) الزمان في ٢١ شباط ١٩٢٨ . العالم العربي ٣٠ آذار ١٩٢٨ .

(١٨) رسالة من محمد عزة دروزة الى ياسين الهاشمي . العراق ١٤ نيسان ١٩٢٨ . راجع عريضة الطلبة المفصولين الى رئيس الوزراء في ٨ آذار ١٩٢٨ .

(١٩) العراق ١٧ شباط ١٩٢٨ خطب (اسماعيل علي) وعبدالحافظ الحصيبي في ذلك الوداع .

(٢٠) العراق في ٣٠ آذار ١٩٢٨ .

(٢١) العراق في ١١ شباط ١٩٢٨ .

(٢٢) الزمان في ٩ آذار ١٩٢٨ وقع العريضة كل من (مزاحم ماهر السامرائي) ، أدهم مشتاق ، سعيد عباس السامرائي ، عزيز شريف ، أحمد قاسم راجي ، صالح عبدالوهاب ، اسماعيل علي ، سعيد عبدالاله ، عبدالوهاب الخطيب ، عبدالحميد الخالدي ، محمود حمودي الجلبي ، عبدالحافظ ابراهيم الحصيبي ، عزيز علي ، عبدالرزاق قاسم ، حسن مرهون ، عبداللطيف محي‌الدين ، من طلاب الثانوية المركزية ودار المعلمين اما حسين جميل وعبدالقادر اسماعيل فقد رفعا عريضة مستقلة ومن المعروف أن علي محمود هو الذي صاغ العريضتين .

(٢٣) العالم العربي في ٢٨ شباط ١٩٢٨ .

(٢٦) ياسين الهاشمي ومحمود صبحي الدفتري من حزب الشعب المعارض .

(٢٧) محضر المجلس النيابي للدورة الانتخابية الثانية لسنة ١٩٢٨ .

(٢٨) روى لي مزاحم الباجه‌جي انه كان في ذلك التاريخ ممثلا للعراق في لندن وقد تقدم اليه السير الفرد موند بطلب سمة دبلوماسية له ولحاشيته فرفضت الطلب لانه لا يتمتع بتلك الصفة ولكن بعد أيام وردتني برقية من الحكومة العراقية تشير باعطاء سمة دبلوماسية .

(٢٩) السياسة الاسبوعية ٢٥ فبراير ١٩٢٨ .

(٣٠) العالم العربي في ٢٦ تشرين الاول ١٩٢٩ .

محاكمات شهيرة

روبرت كرين

مدحت الجادر

هذه المحاكمة مظهر من مظاهر الصراع الديني في انكلترا ، ومثل لطغيان الاعتبارات السياسية على مقتضيات العدالة · واهميتها تأتي من انها ارتكبت ضد رجل من رجال القضاء لا ذنب له سوى اداء واجبه ، وان المحكمة التي اجرتها قد استسلمت لبواعث بعيدة عن روح العدالة ، وان ادانة المتهمين فيها لازالت موضع شك كبير يرجح ان هؤلاء قد ذهبوا ضحية تعصب ذميم · وفيما يلي تفصيل ذلك :

في عصر اليوم الثاني من تشرين الاول عام ١٦٧٨ غادر سر ادمندبري كودفري مثواه بالقرب من جيرنك كروس ، ليقوم بزيارة طويلة لمكان بالقرب من سينت كليمنت دينس ، ثم لم يره احد حيا من بعد ذلك · لقد كان هذا الحادث ، بل هذه الجريمة كما تبين بعدئذ ، من الالغاز الكبرى في تاريخ القضاء البريطاني ، وظل كذلك حتى بعد ان أدين ثلاثة اشخاص ونفذ فيهم حكم الاعدام ·

والقتيل هو الولد الثامن لعائلة ذات عشرين طفلا · درس في اوكسفورد ليصبح محاميا ، غير انه لم يستطع ان يمارس هذه المهنة فعلا ، بالنظر لاصابته بالصمم · ولذلك اتجه نحو التجارة فصار من كبار تجار الخشب ، واقام له مرفأ في ويستمنستر بالقرب من جيرنك كروس · وحين انتشر وباء الطاعون الكبير في عام ١٦٦٥ بذل كودفري جهودا محمودة لاغاثة المنكوبين والمتضررين بلندن فمنح على ذلك لقب فارس · وقد زادت شهرته في الفترة التي اصبح فيها حاكما · وكان الحكام يومئذ يقومون بدور هام في التحقيق في الجرائم وادراك المجرمين ، وفي هذا ظفر كودفري بسمعة طيبة حتى عده البعض أحسن قاض عرفته انكلترا وقتئذ · وكان يترك اطيب الاثر في نفوس جيرانه اينما ولى ، على كثرة عمله وطول انشغاله ، فهو في سلام مع الناس اجمعين الا الذين خرجوا على القانون فأصبح من نصيبه مطاردتهم وانزال العقاب بهم ·

ولما طال غيابه المفاجيء ثارت الشكوك حول سلامته ، وظن انه قد قتل من قبل الكاثوليك الرومان • وقيل ان الدافع لذلك هو اخفاء التحقيق الذي كان يجريه في تصرفاتهم المشبوهة • ثم أصبح ذلك الظن يقينا حين عثر في صبيحة السابع عشر من تشرين الاول على جثته في حفرة قريبة من الحقول في برمروزهل • وكان حسامه مغمدا في جسمه كما لو كان قد انكفأ عليه بتعمد ، فحسب البعض ان الحادث ربما كان انتحارا • غير ان الكشف الطبي اظهر بشكل جازم ان الجروح قد حدثت بعد الوفاة ، وان كودفري قد انتزعت حياته بعنف قبل عدة ايام من العثور على جثته • فنحن اذن ازاء جريمة قتل لا ريب فيها •

فمن هو القاتل ؟ لقد اتجه الرأي العام في حينه الى ان الفاعل هو زمرة من متآمري الكاثوليك الرومان ، ولذلك جرى التحري بينهم من قبل ان يعثر على الجثة • وكان الامر واضحا • فقبل الحادث بفترة وجيزة كان هناك رجل يدعى عزرا تونك يدبر مؤامرة كاثوليكية ، ثم انضم اليه آخر اسمه تايتس اوتس • وفي السادس والعشرين من تشرين الاول عام ١٦٧٨ التقى الاخير بكودفري فنقل اليه مع اليمين معلومات هامة عن المؤامرة ،فراح الحاكم يبذل كل جهده في التحقيق في تلك المعلومات • يضاف الى هذه الحقيقة ان الرجل قد اختفى في اثناء اوبته عند منطقة ستراند حيث تقيم الملكة وزمرة من الكاثوليك • وقد اقر برونس احد المقبوض عليهم ، وهو مستخدم لدى الملكة ، بالجرم وذكر اشخاصا ساهموا في اقترافه • فالقي القبض على ثلاثة منهم هم : روبرت كرين وهنري بيري ولورنس هل ،وهرب ثلاثة آخرون اثنان منهم ان لم يكن كلهم من القساوسة •

وكانت المحكمة التي نظرت الدعوى برئاسة سكروكس ، وهو قاض سيء السمعة ، ومعه عضوان همان وايلد ودولبن • وكان الى جانب المدعي العام اربعة آخرون من رجال القانون والاختصاص يساعدونه في مهمته • وبمضي الوقت الذي استغرقته المحاكمة ، استقال بعض هؤلاء وفقد منصبه البعض الآخر ، غير انهم حين حل شباط من عام ١٦٧٩ كانوا جميعا لايزالون من ذوي النفوذ والسلطان ، وعلى يقين من وقوع المؤامرة في حينه• وكان البرلمان والرأي العام يشاركانهم هذا الاعتقاد • ومن ذلك يظهر ان السلطات العليا قد ادانت المتهمين مقدما ، كما ان الجماهير كانت تصرخ طلبا للثأر • ولذا لم يكن من المتوقع في جو كهذا ان يلقى المتهمون محاكمة عادلة • ولقد كانت الظروف في انكلترا ، يومئذ ، من اسوأ الظروف التي تواجه متهما بجرم سياسي ولذلك كان الناس جميعا ، وبضمنهم المتهمون، يعلمون مقدما ماذا ستكون نتيجة المحاكمة اذا لم تقع احدى المعجزات •

وكانت رواية الادعاء العام للحادث على هذا النحو : في اليوم الثاني عشر من تشرين الاول انطلق كرين الى منزل كودفري فأخبر الخادمة انلديه

شغلا مع سيدها • وكان هو وهل يترصدان حركات سر ادمنديري منذ صباح ذلك اليوم • وبعد منتصف النهار مضى كودفري الى دار بالقرب من سينت كليمنت دينس حيث مكث الى ما بعد الساعة السابعة مساء • وفي عودته الى منزله كان عليه ان يمر بمنطقة ستراند حيث يقوم سومرست هاوس قصر الملكة آنئذ ، حيث كان المتآمرون يتربصون لقتله • وما كاد المراقبون يعلنون مقدمه ، حتى وضعت خطة المؤامرة موضع التنفيذ • فقد استنجد احدهم بالقاضي مدعيا ان اثنين من خدام الملكة يختصمان ، فرفض التدخل بادىء الرأى ، ولكنه رضخ اخيرا للالحاح الشديد فمضى الى ساحة القصر • وما كاد يتوغل فيها حتى غلقت الابواب • وتوجه القاضي الى اثنين كانا يتظاهران بالعراك هما بيري وقس اسمه كيلي ، فلما اقترب منهما كفا عما كانا يفعلان • هنالك انطلق بيري ، بواب القصر الى الباب الرئيسي لحراسته ، بينما كان برونس يحرس الباب الخلفي • واوشك القاضى ان ينصرف ، ولكنه ما كاد يحاول ذلك حتى اتاه كرين من خلفه ، فأحاط عنقه برباط فأحكم برمه ، ثم هجم هل وكيلي وقس آخر يدعى جيرالد على الضحية فاجهزوا عليها • وبعد ذلك تقدم برونس ليستيقن من النتيجة ، فلاحظ ان الساقين تختلجان ، فتولى كرين لوى رأس القتيل بكل قوته • ومع هذا بقي جيرالد في مرية ، فاقترح ان تطعن الجثة بالسيف فعارض الآخرون مخافة ان تبقى آثار الدم حتى صبيحة اليوم التالي •

ونقلت الجثة الى مثوى هل في القصر ، فأخفيت هناك فترة قصيرة ، ثم نقلت الى غرفة ثانية ، وبعد يومين من ارتكاب الجريمة نقلت الى غرفة ثالثة • وقد ادرك الفاعلون ان نقل الجثة من غرفة لاخرى داخل القصر لابد ان يفتضح ، فقرروا التخلص منها ، فجاءوا بهودج يحمل على الاكتاف (Chair Sedan) فاجلسوا الجثة بداخله • ولما اشار اليهم احدهم من الخارج بأن الطريق خال حمل برونس وجيرالد الهودج الى الشارع فانطلقا به نحو كوفنت كاردن حيث بلغ منهما الاعياء مبلغه فاضطروا الى التوقف، فحمل الهودج عنهما هل وكيلي حتى منطقة لونك ايكر فاستأنف برونس وجيرالد حمله حتى بلغا به منطقة بالقرب من سوهو • وكان هناك شخص قد هيأ جوادا بانتظارهم • فأجلسوا الجثة على ظهر الجواد، وربطوا الرجلين حول بطنه ، وركب هل خلفها ، ثم مضوا على هذا النحو الى الحقول الواقعة بالقرب من بريمورس هل ، فانتقوا مكانا ملائما ، فاودعوا الجثة في احدى الحفر بعد ان تركوها تهوى على سيف صاحبها • وتركوا بالقرب منها بعض مخلفات الرجل وكذلك نقوده لكي يوحوا بأنه قد انتحر ، ثم انصرفوا في بهمة الليل •

وفي اليوم التالي اكتشفت الجثة ، وكان رأى الجراحين اللذين فحصاها ان كودفري قد مات منذ ايام ، وان الجروح قد احدثت بجسمه بعد

موته • وكان من العسير جدا ان يقتنع المحلفون بوقوع الانتحار ، اذ كانت كسور العنق تدل على عنف لا يمكن لاحد ان يجريه مع نفسه • ثم لم تكن هناك اية فائدة في أن يلوى شخص عنق آخر قد انتحر بسيفه ، كما انه كان من المستحيل ان يلقي القتيل بنفسه على سيفه مرتين بعد ان يكسر عنقه شخص آخر •

وبدأت المحاكمة وكان تايتس اوتس الشاهد الاول ، فأفاد بأنه سبق ان ادلى بمعلومات الى القتيل ثم جاء توماس روبنسن ، من موظفي المحاكم ، فشهد بأن كودفرى قد فاتحه بمخاوفه من ان يكون الضحية الاولى للتحقيق الذى كان يجريه حول تلك المعلومات • ثم جاء برونس ـ وكان اثناء التحقيق قد اعترف ثم جحد اعترافه ، ثم عاد واعترف ثانية ـ فشهد بتفاصيل المؤامرة ، والقتل والتخلص من الجثة • وقد اعترض هل على شهادته بأنها مزورة لتذبذبه في ادائها ، ولكن القاضي سكروكس وجدها مقبولة بحجة ان رجوع الشاهد عن اعترافه فيما سبق لم يكن معززا باليمين • ثم نوقش المتهمون فلم يحسنوا الدفاع عن انفسهم ، لافتقارهم الى محامين يرشدونهم الى اوجه القانون التي هي في صالحهم ، واستغل رئيس المحكمة هذا الوضع فاستدرج كلا منهم الى الاعتراف بأنه قد كان يعرف برونس •

وبعد ذلك تقدم شاهد يدعى وليم بدلو فذكر انه قد تعرف على جماعة من اليسوعيين (Jesuits) طلبوا اليه أن يقتل شخصا لم يسموه • ثم رغبوا اليه في ان يتعرف على كودفرى ففعل ، ومن بعد ذلك التقي بالاب جيرالد • وفي ليلة الجريمة اخبره اصحابه اليسوعيون بأن شخصا ما يجب ان يزاح من طريقهم • فلما سألهم عنه أجابوه بأنه شخص تلقى معلومات خطيرة من اوتس وتونك • ثم تواعدوا معه على ان يوافيهم في سمرسست هاوس ، ولكنه ادرك ان هناك جريمة قتل تدبر ، فلم يحضر في الموعد المضروب • غير انهم دعوه يوم الاثنين ، الى مشاهدة الجثة فعرف صاحبها، ورأى آنئذ كرين في ساحة القصر ، ولكنه لم يدع انه قد عرف هل ولا بيرى• ثم جاء الشرطي الذى وجد الجثة والجراحان اللذان اجريا الكشف عليها فأدلوا بشهاداتهم • ثم قدم الاتهام شهودا آخرين ليثبتوا ان هل وكرين قد ذهبا فعلا الى منزل كودفرى قبل وقوع الحادث ، وان المتهمين قد كانوا يعرفون كلا من برونس وجيرالد وكيلي ، وانهم قد اشتركوا في ارتكاب الجريمة •

وجاء دور المتهمين فقدم هل شهود دفاعه • وكان اولهم المشرفة على الدار التي يسكن فيها ، فشهدت بأن هل رجل موضع للثقة ، ولا يخرج في المساء مطلقا • ولكن رئيس المحكمة استدرجها الى الاعتراف بأنها كاثوليكية ، ثم اعلن عدم ثقته بشهادتها لهذا السبب • وفي اثناء مناقشتها زل لسانها فذكرت انها كانت مع اسرتها خارج المدينة في شهر تشرين الاول،

فسر الادعاء العام واعضاء المحكمة لهذه الزلة لانها تعني عدم وجود الشاهدة مع هل وقت ارتكاب الجريمة • وعبثا حاولت الشاهدة المذكورة ان تصحح خطأها على الرغم من ان الخادمة قد ايدت وقوعها في الخطأ ، فبينت بوضوح ان تركهم للمدينة قد كان في شهر ايلول وليس في شهر تشرين الاول •

وهاتان المرأتان كانتا تسكنان في المنزل الذى قال برونس ان الجثة قد وضعت فيه اول مرة ، فشهادتهما بأنهما كانتا طوال الوقت في المنزل ، وبانه من المستحيل وضع جثة بدون علمهما لها اهميتها • ومع ذلك لم تلق من المحكمة سوى قول رئيسها للخادمة : (لقد كان من حسن حظك ان التهمة لم توجه اليك) ثم تقدم شهود آخرون على حركات هل قبيل وقوع الجريمة ، وقد تطرق احدهم الى تصرفات المتهم في الليلة التي قبض عليه فيها ، فتساءل رئيس المحكمة عن فائدة ذلك فاوضح هل ان الشهادة تدل على انه قد علم باكتشاف الجريمة في وقت مناسب ، فكان بوسعه ان يهرب لو كان مشتركا فيها حقا • فعلق الرئيس على ذلك بقوله : (ولقد كنت تهرب فعلا ، لو علمت بأنهم سيجدون في اثرك بمثل هذه السرعة) وكانت بيانات شاهد هل الاخير تدور حول اخلاق المتهم وسلوكه • فحاولت المحكمة ان تطعن في الشاهد من ناحية المعتقد ، ولكن الاخير راح يضللها حتى حسبت انها قد وقعت على كاثوليكي آخر ، ففطن المدعي العام الى الفخ الذى ستقع فيه المحكمة فاعلن على الفور ان الرجل بروتستانتي •

ثم اذن للبواب بري ان يبدي دفاعه • فشهد له احد الشرطة بأن مودجا لم يخرج من قصر سمرست هاوس في ليلة السادس عشر من تشرين الاول ، وايد ذلك الخفير تروئوب • واذا كانت هذه الشهادة صحيحة فمعناها ان بروتس قد كذب فيما ذكره عن التخلص من الجثة • وقد حاول القضاة ان يحملوا الشاهدين على الاقرار بانهما كانا بعيدين يحتسون الخمر ، ولكنهما انكرا ذلك اشد الانكار • وهكذا بقيت شهادتهما قائمة من غير ان يثبت عكسها •

وبعد انتهاء الشهود نهض المدعي العام فذكر انه لا يريد الاطالة في خطابه بعد ان تبين ان الاتهام كان اقوى ، وان الدفاع كان اضعف مما قد توقع • ثم اعقبه محامي الدفاع فقصر جهده على الدفاع عن برونس •

ثم بدأ رئيس المحكمة بتلخيص الدعوى بايجاز حتى انتهى الى النتيجة التالية مخاطبا المحلفين : (وجماع القول ان هناك دليلا عظيما على المؤامرة نفسها ، يستخلص من اننا لانستطيع ان نتعرف على باعث لها غير ان هذا الرجل كان يجب ان يقتل ، اما لانه قد علم شيئا لم يرد القساوسة ان يفشيه ، او لانهم ارادوا ان يتحدوا العدالة وان يقذفوا الرعب في قلوب الذين يريدون تطبيقها عليهم • وهذا بحد ذاته ينطوي على دليل عظيم اتركه لتقديركم ، بعد ان تتذكروا بقدر ما اتذكر انا ، البينات التي جاءت ضد

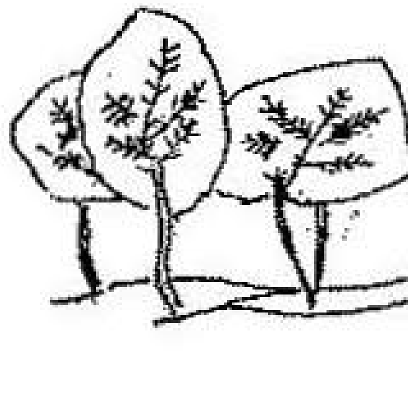
المتهمين او لصالحهم) •

ثم انسحب المحلفون لاتخاذ قرارهم ، وما اسرع ما عادوا ليعلنوا ان المتهمين مجرمون ، فأيد الرئيس القرار قائلا : (لو كانت هذه هي كلمتي الاخيرة على وجه الثرى لاعلنت ان هؤلاء مجرمون •) وعند ذلك انفجر تصفيق شديد من قبل الحاضرين •

وفي اليوم التالي صدر حكم الاعدام على المتهمين ، ونفذ فيهم جميعا بعد عشرة ايام وهم يعلنون براءتهم حتى النهاية •

فهل كان هؤلاء مجرمين فعلا ؟ ان المحاكمة لا تدلنا على وجه الحق في هذه القضية اذ كانت غير عادلة ، ولكن هذا لوحده ليس دليلا على البراءة ، فاذا صدق برونس ، فالمتهمون جميعا قد اشتركوا في القتل ، ولكن هذا الشاهد الرئيس بقي متذبذبا بين اعترافه وانكاره من جهة ، وبين رواياته المتناقضة من جهة اخرى • يضاف الى ذلك هذا السؤال ، ما الفائدة من قتل كودفري ؟ لقد اشار رئيس المحكمة الى فكرة الارهاب ، ولكن المجرمين جميعا يعلمون جيدا ان هذا السلاح ماض ضد الشهود لا الحكام ، وفي هذه القضية لم يصب الشهود بأى سوء •

ومن المشكوك فيه حقا انه قد كانت هناك مؤامرة فعلية ، وان كان احتمال وجودها قائما طوال الوقت • ثم ان النصوص العقابية ضد الكاثوليك ، وكون الملك جيمس كاثوليكيا ، كانت من المحتمل ان تشجع هؤلاء على التآمر لاسقاط الحكومة والظفر بحريتهم الدينية • ومع ذلك فان الباحث المنصف قد يساوره شعور قلق بأن اوتس وزملاءه ومن خلفهم المتهورين لا يستبعد ان يقترفوا هذه الجريمة لأثارة الرأى العام ضد الكاثوليك • ولكن هل وقع ذلك فعلا ؟ هذا ما لا نعرفه • وهكذا ستظل هذه الجريمة لغزا لا حل له أبد الدهر •



قلق

عبد الصاحب ياسين

أسفت لاني بهذا الشتاء ... وهول دياجيه لم أنعم
سرى قلق بي هد الفؤاد ... وهز النخاع ، ولم يرحم
هواجس تحرمني أن أصيخ ... الى الرعد في قصفه المرزم
وأملأ سمعي عصف الرياح ... كولولة الثاكل الأيم
وأرنو الى سعفات النخيل ... تقوم مع الريح في مأتم
وأصغي الى نقرات الحيا ... على لوح نافذتي المعتم

* *

تمر علي وتنأى الفصول ... كأن لم تطف بي ولم ترحل
غدا سيعود الربيع ازدهى ... بمطرفه الانفس الأجمل
سيحتشد الزهر شتى الصنوف ... على القفر ، والدرب ، والمنزل
سيمتلئ الجو شدوا فكم ... هزار يضج وكم بلبل
ستغدو الصبايا ويغدو الشباب ... الى اللهو في فصله الأمثل
وفي مجهل عبرته العيون ... سأحيا وهمي في معزل
كأني لا قلب لي في القلوب ... يرف ، ولا أعين تجتلي

* * *

وبعد غد يقبل الصيف في ... لياليه ذات السنى الغامر
سرى البدر فيها يجوب الفضاء ... سرى الحلم في خاطر الشاعر
كأن سناه اذا ما أطل ... على النهر ، اشراقة الخاطر

وأصباحه النـافثـات الحنين ... الى الامس في كبـد الذاكـر
تفيض على كـل شـيء حياة ... تمـور مع الألـق المائـر
ولكنني والـرؤى الغائمـات ... سأجتـازه غـائم الناظـر
مطيفـا بأنسـامه الوادعـات ... اطـافة ذي حنـق نافـر

* * *

ويأتي الخريف كوجه الأسيف ... تـذكر أحبـابه الراحلـين
ينث الكآبـة مـر السحاب ... ويقطر وجـه الفضـاء الحنين
وترسـل أوراقـه الساقطات ... أباديـد لحن الوداع الحزيـن
شعاع يمـوت ، ولون يغيـم ... وحس يذوب ، وصمت يرين
جمـال خفي يشـيع السمو ... ونعمـاه في أنفـس الناعمـين
وقلبـي بما هـده من صراع ... سيبحث عنه .. فلا يستبين !

* * *

ويذهب عـام ، وعـام يجيء ... وقلبي دنيـا صراع مقيـم
تـرف رغـائبـه كالجنان ... وتلظى هواجسـه كالجحيـم
وينزو الطمـاح به للكفـاح ... فيرتد عجـزا بغيظ كظيـم
وتكنفـه الظلـم الزاخـرات ... هواجس تطمس لمح النعيم
ويمضي الصبى ، ويليه الشباب ... صريعـي هواجس ليست تريم
وتطوى الحياة ، ويدنو الحمام ... فيالمـآل شقي هضيـم !

شوبنهور

« دنيا الشؤم والهم »

ابراهيم الخال

قال عنه فريدريك نيتشه في كتابه « شوبنهور كمرب » : « انه عاش وحيدا ، في عزلة مطلقة ، ولم يكن يتخذ له في حياته صديقا قط . وما بين الواحد المفرد واللاشيء ، تمتد الابدية » .

والواقع ان شوبنهور كان قد فقد أباه ولما يتجاوز السابعة عشرة من عمره . ثم ناصبته أمه العداء الشديد ، وعاش بعيدا عنها ، كما انه لم يتزوج ، ولم يعد يعيش في جو عائلي ، ولم يحاول أن يتخذ له صديقا من الناس ، بل قصر صداقته على كلبه ، « شوبنهور الصغير » . كل ذلك في جو من الحزن ، والخوف ، واليأس ، والتشاؤم الذي لم تشهد له أوربا مثيلا من قبل .

وكان آرثر شوبنهور قد ولد في مدينة دانزيغ في اليوم الثاني والعشرين من شباط عام ١٧٨٨ ، أي قبيل الثورة الفرنسية التي انحرف بها الكورسيكي الشاب عن اهدافها في الاخاء والحرية والمساواة ، ليجر على اوربا في عصره سيلا من المصائب ، ولتغرق الشعوب الاوربية من بعده ، في بحر متلاطم من الحزن والالم والدموع ، وهو ما خلق ذلك الجو التشاؤمي في عالم تقوضت أركان مدنيته بحيث قال عنه « غوته » : « اني أحمد الله على اني لست من أجياله الجديدة » .

ولقد نزحت عائلة شوبنهور من دانزيغ الى مدينة همبورغ بعد أن فقدت المدينة حريتها بضمها الى بولندا ، وذلك يوم كان آرثر ابن خمس سنين عام ١٧٩٣ . فالظاهر ان شوبنهور الاب ، كان من محبي الحرية الذين يأبون اخضاع اقتصاد بلادهم لمصلحة أجنبية ، اذ المعروف عنه انه كان من أكبر رجال الاعمال في دانزيغ ، ومن كبار وجهائها وتجارها المرموقين

لكن هذا الأب ، مع الاسف ، كان عصبي المزاج للغاية ، شديد الحساسية ، تستثيره التوافه لدرجة تفقده السيطرة على نفسه وتفكيره ، لذلك لم يدهش لنبأ وفاته أحد يوم مات منتحرا عام ١٨٠٥ ، تاركا ولده الحبيب آرثر الى رحمة جدته التي ما لبثت أن توفيت مجنونة بعد أبيه ، ثم الى تصرفات أم كانت من قبل تلبس مسوح الرهبان ، فاذا هي بعد موت

الأب ، من ألأم ما خلق الله من حقيرات فاجرات •

ولقد ورث شوبنهور عن أبيه ، كما يقول هو ، « ارادته » اذ كان ذلك الأب الفاضل من المعروفين بقوة ارادتهم رغم الحال العصبية التي كان يعاني منها • أما عن أمه ، فانه ورث ذكاءها المفرط ، فقد كانت تلك الفاجرة من أذكى ما عرفه القرن التاسع عشر من النساء • والحق ، فان والـــدة شوبنهور هذه ، كانت من أبرز كاتبات القصة في عصرها ، وكانت مكانتهـا الادبية قد جمعت حولها الكثير من مشاهير تلك الايام •

وكانت مدينة « فايمار » آنذاك ميدانا رحبـــا للاثم والحب الحر الرخيص • لذلك ما ان ووري والد شوبنهور التراب ، حتى سارعت امـــه الى السفر الى هذه المدينة لتنطلق مع نزعاتها الجنسية الجامحة دون خوف من عرف أو تقليد •

وسلوك شائن مثل هذا الذي سلكته السيدة شوبنهور ، كان لابـــد وان يترك أثره العميق في نفسية ولدها الشاب الذي لم يعرف غير الحياة الفاضلة الشريفة في كنف أبيه • لذلك كان لابد من اثارة خصومات عنيفة بين الأم وابنها عندما أصبح البيت الذي يعيشان فيه سوية ، مباءة للمجون والفســوق •

وان من الادباء ، قاتلهم الله ، من يمضي الليل في أفانين الاثم بـــين الكاس والطاس • وكان على رأس هؤلاء في فايمار تلك الايام ، أديب عصره الاكبر ، « غوته » الذي عرفت حجرات السيدة شوبنهور لياليه الداعـــرة الحمراء مع عشيقته كريستينا • لكن غوته ، وهو الاديب الاريب ، كثـــيرا ما كان يرى في آرثر عقلا راجحا لم تعد تمتلكه أمه التي استعبدت تفكيرها النزوات والشهوات • لذلك كان يعمد غوته الى اغاظة الام ان هو رأى تقصيرا منها في مداراته ، بالتصريح لها برأيه في « ان شخصية ابنها الادبية والفكرية ستطغى يوما على شخصيتها ، وان العالم سوف لا يتطرق الى ذكرها ، رغم علو كعبها في كتابة القصة ، الا عندما يذكر اسم ابنها شوبنهور » •

وكان في حساب السيدة شوبنهور ان تغطي سلوكها الشائن ، ونقصها الفاضح بين النساء ، بفيض قريحتها وقلمها • أما وقد أصبح ابنها عدوها الاول الذي سيكسف اسمها بأنوار فكره ، فهو ما لا يطاق بالنسبة لامرأة معقدة مثلها • واذن فلابد من التخلص من آرثر بكل ثمن ، خاصة وانه أصبح ينغص عليها لذاذاتها بذكرى الحياة العائلية الفاضلة التي كانت تعيشها في ظل أبيــــه •

بعد ذلك بلغ بينهما الخصام مداه • ثم قرر شوبنهور الشاب أن يعيش في بيت منعزل عن بيت أمه بعد ان رأى أنه لا يستطيع الاستمرار في ذلك الجحيم • وكانت أمه قد وجهت اليه في تلك الفترة رسالة قالت فيها :

« انك لثقيل الظل ، ولا يمكن أن تطاق أو أن يعيش معك أحـــد •

وان الغرور والخيلاء قد طغى على كل صفاتك ومزاياك ، وقد أصبحت غير ذي نفع لاحد في هذه الدنيا لسبب بسيط ، هو انك لا تستطيع كبح ميولك في تعقب عيوب الآخرين » ٠

وكانا بعد أن افترقا ، يلتقيان على سبيل الصدفة في بيوت غيرهما من المعارف والاصدقاء ٠ وهما اذ كانا يلتقيان على هذه الصورة ، فقد كانا يتخذان من بعضهما موقف الغريب من الغريب فلا يكلم أحدهما الآخر الا لماما ، وعند الاضطرار وكأن لم تكن بينهما أية رابطة رحم ، أو معرفة ٠

وكانت النار تزداد استعارا بين الشاب الطالع غيرة على سمعة العائلة كلما أمعنت أمه في التنقل بين أحضان أدباء العصر تحت ستار الرابطة الادبية ، وهو ما كان يدفع بشوبنهور في كثير من المناسبات الى الذهاب اليها يلومها ويتوسل اليها أن تكف عن سلوكها الشائن الذي أزرى بسمعة الادباء والادب ٠

لكن الأم الفاجرة لا تزداد من جانبها الا عنادا ، كما لا تزداد الا عداوة وجفاءا وكأن الولد ليس ابنها ، أو أنها انجبته لا لتغمره بعطف الامهات ، انما لتكون له عدوا مبينا ٠ وتلك علاقة ومعاملة قلما شهدنا مثيلا لها في تاريخ رجال الفكر والادب ، بل وحتى بايرن ، شاعر انكلترا الذي ولد في نفس عام النحس الذي ولد فيه شوبنهور ، لم يشهد أو يصادف من عداوة أمه له ما شهده وصادفه هذا الاخير ٠

وذات يوم ، عندما اشتد الخصام بين شوبنهور وامه وقد وقف يعنفها في الطابق الثاني من دارها بقارص الكلام ، بادرت هذه الى الهجوم عليه كما تهجم اللبوة على فريستها ، ثم أخذته بيديها لترمي به الى أسفل درجات السلم ٠ وعندما نهض الشاب على قدميه وقد بدأ يشعر بآلام الكدمات والرضوض ، شعر في الوقت نفسه بأن العالم لم يعد مجالا للخير ما دامت القسوة قد بلغت بالأم الى امتهان أعز ما لديها ، الذي هو ولدها ، على هذه الصورة التي كادت تودي بحياته بعد أن أودت بشرفه وشرف بيته ٠ عند ذلك توجه اليها شوبنهور بكلمات مهينة ملؤها الاحتقار ٠ ثم غادرها الى غير ما رجعة ، اذ لم يحاول أن يرى وجهها مرة أخرى ، الى أن طوتها يد الموت بعد خمس وعشرين سنة من ذلك الفراق ٠

ولم يكن آرثر يومذاك رقيق الحال على الرغم من استيلاء امه على أغلب ثروة أبيه ٠ لذلك قرر أن يشق طريقه في الحياة على هواه مستعينا بما لديه من المال ، فكان أول شيء فكر به هو مواصلة الدراسة ، فاختار الفلسفة على أمل أن يجد في تضاعيف كتبها جوابا على سر هذا الوجود الذي أشقاه أول ما أشقاه بحرمانه من عطف الابوين ، ونكبه بشرف العائلة ٠

ولقد عب شوبنهور من مناهل الفلسفة في الجامعة وخارجها الشيء الكثير ، فسيطر على مداخلها ومخارجها ومستعصياتها بعقلية جبارة طامحة ضاقت بها جميع آفاق الفلسفة التي تفتحت أمام عينيه ٠ كان يدرس ،

ويحلل ما يدرس ، وينقده نقد العالم الخبير • لكنه قلما كان يقطع بصحة رأي فيلسوف سابق ، الا ما ندر • لذلك قرر أن يمضي وحده في طلب الحقيقة التي اختفت وراء ضباب عالمه النفسي والفكري التاعس دون الاستعانة بما قطع بصحته غيره من السابقين والمعاصرين • ولقد مضى شوبنهور في الطريق التي اختارها بقدم ثابتة والحق يقال • وعلى الرغم من أن تلك الطريق كانت وعرة المسالك كثيرة الاشواك ، فانه استطاع أن ينتهي الى آخرها بنجاح ، رغم مكايدة هيجل وغيره له من معاصريه •

وكان شوبنهور قد أجهد نفسه خلال حياته الجامعية في العثور على المرأة التي تمنحه حنان الأم والزوجة والحبيبة معا دونما طائل • فلقد فشل الشاب المتفلسف في ما جال وصال من صولات غرامية ، هزمه في ميادينها الكثير من أقرانه الذين يجيدون فن الاغراء والكذب والتزلف والنفاق مما لم يبرع فيه يوما فيلسوف بحال • وكان هذا الفشل الثاني مع المرأة قد أورثه جحيما لا يطاق من الالم والتشاؤم والشك في حقيقة الناس ، وحسن نواياهم ، وهو ما ترك طابعه العميق أيضا على فلسفته التشاؤمية التي ملأت آفاق النصف الاول من القرن التاسع عشر بالرايات الحزينة المجللة بالسواد •

وكانت المانيا في عام ١٨١٣ قد أصبحت بركانا من الوطنية بفضل الافكار التي أذاعها فيخته بين الشباب • ولقد انتشرت الدعوة للتطوع وحمل السلاح ضد نابليون بونابرت في جميع المقاطعات الالمانية تلك الايام • وكان شوبنهور في الخامسة والعشرين من عمره عندما راح يطوف الاسواق لشراء ما يستطيع استعماله من الاسلحة لانزال الهزيمة بنابليون في الميدان ! • غير أنه عندما اكتمل سلاحه ، آثر أن يخوض معركة فكرية مع الجامعة قبل امتشاق الحسام بوجه الامبراطور الفرنسي ، فكان ان اتجه الى الريف ليكتب اطروحته في الاصل الرباعي للعقل المكتمل ، وهي الاطروحة التي حصل بها على درجة الدكتوراه ، وبذلك دفع الله ما كان مقدرا على نابليون من هزيمة شنيعة على يد الفارس المجلي شوبنهور !

لكن الدرجة العلمية الجديدة لم تمنع شوبنهور من الانغمار في الوساوس والشكوك كلما تقدمت به السن • لقد أصبح لا يأمن على نفسه أحدا مع توالي الايام لدرجة كان لا يستطيع معها النوم الا اذا كان مسدسه محشوا تحت وسادته • بعد ذلك انقطع حتى من تسليم ذقنه الى حلاق خوفا على رقبته من موسى غادرة • بل وحتى حاجياته البيتية التافهة ، فانه كان لا يأمن عليها ، ولا يغادر الدار دون أن يضعها جميعا في خزانات مقفلة •

وكان غراب البين في تلك المرحلة من عمر شوبنهور ينعق في كل ركن من أركان آسيا وأوربا : اخبار موجات الطاعون والكوليرا المبيرة مما يذيعه الرحالة الاوربيون القادمون من الهند وفارس وبلدان الباب العالي ، كانت تنذر أوربا بشر مستطير • والحروب النابليونية التي تركت أوربا ركاما من

الانقاض ، كانت تدعو الفلاسفة والمفكرين والكثير من الادباء الى أن ينظروا نظرة التشاؤم والشك الى كل المقاييس التي تسود حياة الجماعة ، بل وحياة الوجود كله وما انطوى عليه من كون وفناء • ولقد لمس شوبنهور آثار النكبة بنفسه يوم سافر وتجول في الاراضي الفرنسية والنمسوية عندما كان حدثا ولم يتجاوز السادسة عشرة بعد •

وها هو ذا الطاغية الكورسيكي يسقط اخيرا من علياء مجده في واترلو بعد أن شهدت أوربا في ظل عسكريته سنوات مخيفة مشحونة بالويل والدمار • وكان الذي يطل على أوربا مع شوبنهور بعد واترلو ، يرى أن لعنة السماء قد تجسدت على سطح الارض بما خيم على القارة من بؤس وشقاء •

انك اينما وليت وجهك في رحاب القارة الاوربية بعد نابليون لا ترى الا ربى مخضبة بالدماء ، ومزارع وقرى هجرها فلاحوها بعد أن أصبحت أثرا بعد عين لفرط ما عانت من سنابك خيل الفاتحين • وكانت هناك مدن مدمرة ، وملكيات واسعة التهمتها الحرائق ، وتجارة ميتة ، وأوبئة مهلكة ، ومجاعات كاسحة ، وفقر شامل ، وجرائم مريعة وسرقات ورذائل فظيعة كان الفقر يدفع اليها الناس دونما اختيار • وكانت كلمة « الموت » هي أكثر الكلمات ترددا ودورانا على شفاه الناس في كل مكان في الاصقاع الممتدة بين باريس وموسكو • وحتى انكلترة التي لم تشهد أراضيها خيل نابليون ، كانت تئن تحت ضربات البؤس والحرمان في تلك الايام • وفي ذلك يقول توماس كارليل : ان العمال الانكليز البؤساء كانوا في تلك الايام يشربون ولا يأكلون شيئا في فترات طعام الغداء • كان الواحد منهم ينتبذ مكانا بعيدا عن بقية رفاقه في العمل ليشرب ماء الساقية فقط ، مكتفيا به كغذاء اذ يبلغ ثمن وجبة الطعام من الهرطمان وحده ، عشرة شلنات وكان اكبر ما يثقل على هؤلاء البؤساء ، هو أن يطلع بعضهم على حال البعض الاخر وواقعه البائس المؤلم عند تلك السواقي • فالظاهر أن هؤلاء المساكين كانوا يخجلون من حالتهم المزرية كل الخجل •

على مثل هذه الصور الفاجعة فتح انبياء الفكر والأدب عيونهم في اوربا في مطلع القرن التاسع عشر • لذلك كان حقا علينا أن لا نسمع غير الاصداء المشحونة بالشؤم والنحس من ليرمونتوف وبوشكين في روسيا ، وهايني في المانيا ، وليوباردي في ايطاليا ، وغيرهم من فحول الشعراء في كل من بريطانيا وفرنسا أمثال بايرن وديموسيه • وكان هذا النحس والشؤم بالاحرى ، قد فجر من قرارة الحزن والفجيعة ، عبقرية أعلام الفن والموسيقى أمثال شوبن وشوبرت وشومان ، وبالتالي عبقرية أعلام الفلسفة الذين كان في طليعتهم شوبنهور يوم أصدر كتابه « العالم كارادة وفكرة » عام ١٨١٨ •

وشوبنهور في كتابه الرائع هذا ، كان متأثرا من حيث المبدأ بأحداث

عصره المريعة دونما شك • فالارادة التي خلقت من الكورسيكي الشاب كل شيء في أوربا قرابة ربع قرن من الزمان ، كانت ذات صور ثابتة المعالم ، وأصداء بعيدة الاعماق في تفكيره • كذلك كان صعود نابليون ، ثم سقوطه بالطريقة الدراماتيكية التي شهدناها اعتبارا من ظهوره كضابط صغير في شوارع باريس وطولون ، الى سرقته مكاسب الثورة والانحراف بها لتحقيق أغراضه الشخصية ، الى سحقه أوربا بالحديد والنار ، ثم الى انهياره في واترلو ونفيه الى سانت هيلانة في البحار النائية ، قد أورث شوبنهور هذه المسحة اليائسة الحزينة التي ظهرت على فلسفته : ان الارادة الجبارة التي تجسدت في شخصية نابليون وعصفت بالشعوب الاوربية عصف رياح الخريف بأوراق الشجر ، قد انهزمت أخيرا وخضعت لسلطان من هو أعظم منها جبروتا – الموت – •

أهي هذه اذن حصيلة الافكار الثورية التي جاء بها فولتير وصحبه أمثال دي لامبرت وروسو وديدرو ولاميتري وهلفيتيوس ؟ ولم كانت اذن تلك الضحايا التي قدمتها باريس في سبيل الحريات ؟ ألكي يسحق « ابن الثورة » بسنابك خيله حريات الشعوب ؟ بل وأين هي الثورة ذاتها ؟•• ان أطيافها قد اختفت وراء افق أسود طلعت من حلكة ظلامه وجوه جديدة لآل بوربون والاقطاعيين • أو ليس في ذلك ما يكفي أن يكون مدعاة للحزن واليأس في عالم لا تجد فيه غير البؤس والشقاء ، وغير آثار الحريق المريع الذي التهم القارة برمتها خلال حروب نابليون ؟••• كذلك قدر لشوبنهور أن يحصد ثمار العاصفة التي زرعها زبانية الفكر الثوري في القرن الثامن عشر •

يبدأ شوبنهور كتابه فيقول : « ان العالم فكرتي » • وهو اذ يقطع بهذا الرأي ، يكون في الواقع قد وقف موقف « كانت » السابق من العالم اذ يقول أن ليس باستطاعتنا ادراك ما حولنا من العالم الخارجي الا عن طريق حواسنا وشعورنا فقط •

ويهاجم شوبنهور المادية في هذا الكتاب فيقول بعدم استطاعة الانسان أن يقول أن العقل مجرد مادة اذا كان لا يستطيع ادراك ما حوله من مادة الا بواسطة هذا العقل • لذلك فانه يرى ان التوصل الى جوهر الحقيقة لا يمكن أن يتم عن طريق الابتداء بدراسة ما يحيطنا من مادة ، انما بدراسة أنفسنا وذواتنا قبل كل شيء آخر • فاذا استطعنا الوقوف على السر الحقيقي لطبيعة العقل ، تمكنا عند ذلك من ولوج الباب الذي يؤدي بنا الى السر الذي ينطوي عليه العالم الخارجي وكل الوجود فالعالم الخارجي اذن لا أكثر من فكرة قائمة بوجود العقل • وان عدم ادراكنا لماهية هذا العقل وطبيعته ، من شأنه أن يبقينا مكتوفي الايدي أمام اللغز الميتافيزيقي الذي استعصى حله طويلا على الفلسفة والافهام • عليه فان على المتفلسف أن ينظر الى باطن ذاته وخفاياها قبل أن يمد بصره الى الاطار الخارجي

لهذا اللغز الذي هو سر الاسرار التي انطوت عليها حقيقة الوجود • بل وانه « الحقيقة ما هي ؟ » •

والعالم اذا كان فكرة قائمة بعقولنا ، فانه يعني في الوقت نفسه « ارادة » • ولقد اقترب شوبنهور في هذا المفهوم للعالم من سبينوزا كثيرا اذ قال هذا الاخير بأن « الرغبة » انما هي الجوهر الحقيقي للانسان • وكان ممن أكد على هذه الارادة من المفكرين الالمان ، فيخته • لكن فيخته عندما تحدث عن « الفكرة » والعالم أصبح موضع تندر الكثير من معاصريه من المفكرين الذين راحوا يتساءلون بخبث عن « موقع زوجته ! » من هذه الفكرة •

ان الخطأ التاريخي الكبير الذي وقع فيه المفكرون ، هو اعتقادهم ، كما يرى شوبنهور ، بأن الانسان « حيوان عاقل » وحسب ، وانهم راحوا يدرسونه ويحللون طبيعة وجوده من هذا المبدأ دون غيره • عليه يرى شوبنهور بضرورة اطراح هذا المبدأ جانبا والتخلي عنه في معرض الفلسفة ، اذ ان قابلية الكائن الانساني وقدرته على « فهم » الاشياء ليست المفتاح الذي يمكن بواسطته فتح ابواب الباطن الخفي للشخصية الانسانية التي ينعكس على تكوينها سر الوجود • والحق ، فان هذا الجانب من فلسفة شوبنهور ، كان من أكبر الركائز التي قام عليها هيكل النظريات التي جاء بها فرويد •

و « قابلية الكائن الانساني وقدرته على الفهم » تتمثلان في الشعور ، والوعي "Consciousness" ، أو بعبارة أدق ، في العقل الواعي • وهذا الوعي ، كما يقول شوبنهور ، لا يفيدنا شيئا في فهم طبيعة باطن الشخصية الانسانية ، انما يفيدنا الى حد معين ، في تفهم ظاهرها الخارجي وقشرتها •

وان تحت هذا العقل الواعي تكمن ارادة "Will" واعية وغير واعية • ولكن هذه الارادة ذات قوة جبارة ، وفعالية عنيفة ، وهي دائما وأبدا في كفاح مستمر من أجل التأكيد على وجود ذاتها وحيويتها •

وقد يظهر للفهم أحيانا ، بأن « العقل الواعي » هو الذي يوجه الارادة في سلوكها ونزعاتها • غير أن مثل العقل والارادة في هذا الموضوع ، مثل جبار أعمى حمل على كتفيه رجلا أعرج سليم البصر ليدله على معالم الطريق •

واننا لا « نريد » شيئا بعينه لاننا وجدنا اسبابا تستدعينا الحصول عليه • انما نحن نبحث عن الاسباب المبررة للحصول على ذلك الشيء لاننا « نريده » • بل وحتى الفلسفات والديانات ، انما هي ، في نظر شوبنهور ، ستار أو وسيلة للحصول على الشيء الذي تنزع اليه ارادتنا ـ الحقيقة • وعند هذه النقطة يسمي شوبنهور الانسان ب « الحيوان الميتافيزيقي » ، نظرا لان سائر الحيوانات الاخرى تسعى وراء رغباتها بعيدا عن الميتافيزيقيات •

وأنت لكي تخضع الانسان لارادتك لابد لك من استمالة رغباته وارادته • فالمنطق لا يستطيع استفسار ارادة انسان ما اذا وجد الى جانبه من يلوح لذلك الانسان بما يلبي رغباته ويحقق ما تنزع اليه ارادته بعيدا عن خوانق النتائج والمقدمات وما يصاحب ذلك من وجع رأس •

والذاكرة الانسانية ، ما هي ؟ أليست هي الخادم الامين ، والمطية الطيعة للارادة ؟ فاذا كانت الذاكرة مكتبة تحتفظ بكتب النصر والهزيمة التي تعرضت لها ارادة الشخصية الانسانية فانها والحالة هذه من المكتبات التي لا تضم في خزائنها غير كتب النصر المحجل الذي يعيش على ذكراه الانسان • أما أخبار الهزائم الشنيعة ، فانها محرمة الوجود في هذه المكتبة •• وهو ما يترتب عليه هذا البهرج الزائف الذي يعيشه الانسان في علاقاته مع غيره من الناس ، انه لا يفرض على مستمعيه غير أخبار فتوحاته وانتصاراته مهما كان شكل ميادين الكفاح •• حربية كانت ، أو أدبية ، أو فلسفية ، أو جنسية أو غير •

وعلى هذا الاساس من الواقع الذي تؤكد فيه « الانا » على وجودها ، تنعدم الفوارق في « الفهم » و « المعرفة » بين هذا الانسان وذاك • ان أغبى الناس وأقلهم معرفة وثقافة سينقلب الى شخص حاذق في ميدان الفضيلة او الجريمة اذا كانت الاسئلة المطروحة عليه — الاشياء التي يريدها — من صميم ما تنزع اليه ارادته الخاصة وتتمنى تحقيقها والحصول عليها • وان الشعور بالخطر ، لمن الوسائل التي تهيىء للارادة السبل الكفيلة بالتأكيد على « الانا » ، كان سندا للفلسفات الالمانية التي جاءت من بعده تؤكد على ضرورة قيام الحروب كمبدأ من المبادىء الاصيلة لاستمرار الحياة •

والحاجة أيضا ، بالاضافة الى الخطر ، من شأنها ان تنمي قابليات العقل في ميادين الابداع والاجرام • لكن العقل دائما وأبدا ، لا أكثر من وسيلة لتنفيذ رغبات الارادة ، فهو خادمها الخاص • انه قد صمم وصور بشكل يمكنه معه معرفة الاشياء على قدر ما تمثله من حوافز ومغريات للارادة ، غير أنه ليس باستطاعته سبر أغوار تلك الاشياء ومعرفة طبائعها • عليه فان الشيء الوحيد الثابت دونما تبديل أو تغيير في الفكر الانساني ، انما هو الارادة التي من شأنها جمع الافكار والتوفيق بينها واخراجها في نسق متسلسل رتيب •

وحتى هذا الجسم الذي تمتلكه ، فانه من صنع الارادة ونتاجها • فالارادة التي تدفع الدم في داخل الجسم ، هي لا أكثر من هذا الشيء الغامض الذي اطلقنا عليه اسم « الحياة » • وارادة الحياة هذه ، هي التي ترغم الدم فيما هو يجري ، على بناء أوعيته الدموية من أوردة وشرايين وارادة الحياة تكون عادة ذات عدة وجوه • ومن هذه الوجوه ما يمكن أن نسميه « ارادة المعرفة » ، وهي القوة التي كونت الدماغ الانساني وصنعته ، و « ارادة القبض » وهي تلك التي صنعت قبضة اليد ، و « ارادة التذوق

والكلام » وهي التي صنعت اللسان ، أو « ارادة الاكل » ، أو القوة التي اوجدت القناة الهضمية ، الى غير ذلك من أشكال الارادة ووجوهها مما انتج لنا جميع أعضاء الجسم ٠

ينتج من تحصيل الحاصل ، ان الجسم بمختلف اعضائه ، والارادة بمختلف وجوهها ، انما هما وجهان لحقيقة واحدة معقدة المظهر ، وان العلاقة بين وجهي هذه الحقيقة تظهر على أتم ما يكون من الوضوح خلال الانفعالات التي تحدث داخل أعضاء الجسم المختلفة بما ينعكس عليها ، أو بما تتأثر به من مؤثرات خارجية ينقلها اليها الحس ٠

ان فعاليات الجسم الانساني بصورة عامة ، هي في الواقع فعاليات الارادة المجسدة في اعضاء هذا الجسم ٠ عليه فان جسم الإنسان بكامله ، لا أكثر من تجسيد لهذه الارادة ٠ وينتج عن هذا ، كما يرى شوبنهور ، ان يكون كل عضو من أعضاء الجسم، متفقا كل الاتفاق وخاضعا كل الخضوع لنوعية رغبة الارادة التي يمثلها ذلك العضو ، أو بالاحرى لنوعية الرغبة التي تجسدت فيه ٠

فالاسنان والامعاء مثلا ، قد جسدت الرغبة في الشبع ودفع الجوع ، واعضاء الذكورة والانوثة قد جسدت الرغبة الجنسية ٠٠٠ الى آخر الرغبات التي تمثلت في كل عضو من اعضاء الجسم ، وهو ما ينتج عنه القول بأن الجسم الانساني بصورة عامة يمثل الرغبة والارادة المحبوكة من عظم ولحم ودم ٠ وعند هذه النقطة من فلسفة شوبنهور لا يسعنا غير التساؤل « متفلسفين ! » أيضا ، عن الجديد الذي جاءت به مدرسة فرويد النفسية ٠

وتختلف الارادة عن العقل في انها لا تتعب ، ولا تحتاج الى الراحة والنوم ، بل وانها تعمل وتزاول نشاطها الاعتيادي حتى عندما يكون الانسان نائما ٠ اما العقل ، فان من صفاته التعب والكلل ، لذلك فهو بحاجة الى الراحة والنوم ٠ والنوم بالنسبة للعقل كالغذاء بالنسبة للجسم ٠ أما الارادة ، فانها في غير ما حاجة الى هذا الطعام ٠

وان أحسن أوقات العمل والنشـــاط بالنسبة للارادة ، هو وقت النوم ٠ فعندما يكون العقل الواعي نائما ، تكون ارادة الانسان الفرد حرة في جميع تصرفاتها ، لا يحدها في ذلك شيء من الاجهاد الذي يبذله الدفاع في سبيل الحصول على المعرفة ومعالجة ظواهر الاشياء في وقت اليقظة ٠ فالعقل ، والارادة ، هما الوجه المزدوج لسر الشخصية الانسانية : الاول يعمل في اليقظة ووظيفته تتعلق بظواهر الاشياء ٠ أما الثاني ، فهو ينطوي على دقائق التفاصيل غير الخاضعة للعقل ، أو بالاحرى التفاصيل التي تمثل بمجموعها قصة الكون والوجود ٠ وان الذي يترتب على هذا ، كما يرى شوبنهور ، هو أن الشخصية الانسانية في الواقع أشبه ما تكون بالمرآة التي ينعكس عليها سر وجود هذا العالم ٠ وان الكائن الانساني لا يستطيع الاحاطة بهذا السر عن طريق العقل بحال ، انما عن طريق التأمل الباطني

بتعقب حركات الارادة وتصرفاتها بعيدا عن العقل ... والارادة التي يقصدها شوبنهور في هذا المجال هي نفس هذا الكائن المبهم الذي يسميه علماء النفس اليوم ب « اللاشعور » .

وشوبنهور اذ يمد علم النفس المعاصر بهذه الكنوز من المعرفة ، فانه يتفق في الوقت نفسه مع وجهة نظر التصوف الاسلامي الذي يرفض الاعتراف بالعقل والعلوم المنقولة على أنها وسائل للتوصل الى عين الحقيقة المطلقة ودقائق اسرارها . وان المبدأ الاكبر الذي يقوم عليه التصوف كما هو معروف ، هو الانصراف الكلي الى التأمل الباطني والانسياق مع اللاشعور الى درجة الغيبوبة والتجرد عن عالم المحسوسات المتعلق بالعقل ، بحيث تصبح النفس الانسانية حرة في انطلاقها في معرض طموحها وتطلعها الى ذات الكائن الاعلى الذي فاض عنه كل وجود .

لكن شوبنهور عندما يقف على عتبة التصوف وهو يؤكد على هذا المبدأ ، نراه لا يسلك الطريق الصوفية كما فعل الكثير من اعلام التصوف في الشرق ، بل يكتفي بالقاء الخطب الفلسفية عن الانسان والوجود والعالم ، مستعيضا بذلك عن رياضة النفس ومجاهداتها في دروب السالكين . ويقينا ، فان عقلية جبارة كشوبنهور ، كان يمكن لها أن تمد الاتجاه الصوفي الى كل مكان في أوربا في القرن التاسع عشر لو قدر لها ان تلتقي أو تتأثر بشخصيات صوفية كبيرة كالغزالي أو الجنيد أو ابن عربي . لكن تفاصيل التصوف الاسلامي واصوله لم تكن واضحة المعالم على ما نعلم ، في أوربا حتى مطلع القرن الذي انجب شوبنهور . ورأيه في النوم هو انه يرى فيه نوعا من الموت الذي يستطيع الانسان بواسطته تجديد قوى العقل والدماغ المستنفذة خلال النهار . والحياة بحد ذاتها لا أكثر من كفاح ضد هذا الموت فالنوم اذن عدونا الاكبر الذي نحاول نفيه عن وجودنا ، شاء العقل الواعي أو أبى ، وذاك هو السر في فرض الارادة لوجودها ، وتأكيدها على ذاتها خلال مختلف الرغبات التي تنعكس أصداؤها على الاحلام عند النوم .

فاذا كانت أعضاء الجسم الانساني هي عبارة عن تجسيد لرغبات الارادة المختلفة ، تكون الارادة والحالة هذه الجوهر الحقيقي للانسان .

وما ينطبق على العالم الانساني ، ينطبق أيضا على عالم الحيوان والنبات وما نسميه بالجمادات . فالارادة عند الحيوان هي غريزته الواعية . وغريزة الحيوان ، كما يرى شوبنهور ، هي جوهره الواعي : انظر الى الفيل كيف يمتنع عن عبور جسر ضعيف حتى لو شاهد عبور الخيل والناس عليه ! ان غريزته المدركة قد دلته على أن هذا الجسر لا يحتمل ثقل جسمه وانه سيسقط في الماء عند مروره عليه . وانظر أيضا الى الكثير من الحيوانات وكيف تمتنع عن القفز من محل شاهق مع انها لم تعان من آلام السقوط من قبل . ان غريزتها ، رغم فقدانها العقل ، قد هدتها الى الخطر الكامن وراء مثل هذا التصرف . فغريزة الحيوان ،

هي مظهر حياته وجوهرها كما يرى شوبنهور .

وان الكون بما فيه من أشياء نسميها نحن خطأ بالجمادات ، في حركة مستمرة .. وان مجرد دوران الارض حول الشمس يعني ان كل ما نتصوره جامدا على وجه البسيطة ، انما هو في حركة . بل وان هذه الاشياء في ذاتها متحركة بجزيئاتها وكل مكوناتها ، والا فما هو الدفع والجذب والمغنطيسية والكهربائية ؟... انها قوى كما يسميها البعض . ولكن لم لا نسميها « ارادة » ... ارادة هذه الكائنات في اثبات وجود ذاتها ! وعلى هذا الاساس يمكن الاجابة على ماهية السببية التى طرحها علينا « هيوم » .. ان السببية هي الارادة بعينها في رأي شوبنهور .

وعالم النبات هو المثال الرائع على ارادة الحياة المجردة عن العقل . فالنبات يحيا حياة لا شعورية رتيبة تبعده عن الحس بالالم الذي تصوره العقول الواعية للانسان . وان ميكانيكية الحياة التي يعيشها النبات هي المظهر الصريح لجوهر وجوده الذي هو الارادة ... ارادة هذا الكائن في أن يحيا .. ارادة الحياة .

فالحركة في رأي شوبنهور اذن ، هي مظهر القوة . والقوة هي الارادة ، والارادة ، بالنسبة لكل موجود في هذا الكون ، هي الاصل والسبب ، والجوهر ... فالعالم اذن لا أكثر من ارادة .

لكن ما هو هذا العقل الذي امتاز به الانسان عن غيره من الموجودات ؟ انه في رأي شوبنهور ، « وعي الارادة » . أو بالاحرى « رغبة الارادة في أن تعرف وتتحسس ما حولها ، فهي اذن جزء منها ، أو صورة من صور رغباتها وليس جوهرها . وان امتياز الانسان بهذا العقل والادراك ، جعله في طليعة الكائنات التي تمثل سر الوجود فالعقل هو الذي أعطى « الفكرة » التي رغبت الارادة في الحصول عليها عن هذا العالم . فالفكرة هذه نفسها اذن ، من معطيات الارادة نتيجة من نتائج فعالياتها المطلقة ، الوجود . على ان امعان العقل في اجتلاء الصور الكاذبة للفكرة الحقيقية اللصيقة بهذا العالم ، كثيرا ما يستفز الارادة ذاتها ويجعلها في حرب مستعرة مع أكاذيب الفكر والعقل. ... وذاك ما نلمسه بوضوح في تجلي الشخصية الانسانية وحقيقة جوهرها عند الاحلام في النوم .

فاذا كان هذا العالم ارادة ، فارادة من هي يا ترى ؟

أهي ارادة اله الكتاب المقدس الذي يمثله البابا وهذه الكنائس الاوربية التي اذاقت الكائن الانساني ألوان الشقاء عبر القرون ؟

ان شوبنهور يشك في ذلك كل الشك . انها لو كانت ارادة « يسوع » الذي يستطيع خلق مثل هذا الوجود الجبار ، لما استطاع هذا الكورسيكي الضئيل الجسم من جعل البابا ، ممثل يسوع الناصري ، أضحوكة بين الناس ، عندما تناول من يده تاج الامبراطورية ، مترفعا عن ان يتوجه أحد .

ولو ان هذه الارادة ، هي ارادة اله « السلام » ـ يسوع ـ كما يصفه الكتاب المقدس، لما انتاب هذا العالم ، كما يرى شوبنهور ، هذا الهول من المآسي البشرية ولا يحرك ساكنا • انه في هذه الحالة يفقد صفة الاله الرحيم ، على ما يرى شوبنهور • وان كائنا بدون صفات الرحمة لا يمكن أن يعبد • أم تراه يرى هذه الاهوال ولا يستطيع ايقافها عند حد ؟ وفي حال مثل هذه أيضا ، لا يمكن أن يكون الها يعبد بحال •

ومن هذا المنطلق التشاؤمي ، وقف شوبنهور ضد المسيحية بقدم راسخة ، بل وانه سار الى النهاية ضدها ، على طريق مستقيم • وكان شوبنهور ، لو وعى حقيقة التصوف الاسلامي يومها ، على قيد شعرة من طريق اعاظم المتصوفة المسلمين ••• اذن لقال وهو يتساءل عن صاحب هذه الارادة الجبارة ، انه الله الذى ابدع هذا الوجود الذي هو فيضه •• وانما هي ارادته التي انطوت على حقيقة الكائن الانساني بجزئيها الواعي وغير الواعي المتطلع الى سر الاسرار وعين الحقيقة واليقين •

لكن شوبنهور يجيب عن السؤال الذي طرحه ب « ان ارادة الوجود هي الوجود » • فهي اذن الحقيقة الازلية الابدية الخالدة القائمة بذاتها دونما حاجة الى التفكير في هذا الاله الذي انتجته لنا اليهودية في الناصرة أو غير •

والواقع ، أن شوبنهور عندما التزم هذا الخط الفلسفي الصارم ضد المسيحية ، كان يفكر تفكيرا جديدا في التاكيد على وجود ارادته هو كفيلسوف ، واثبات ذاته المستعلية بنبوغه على أغبياء القساوسة والحاخامين الذين كانوا ينعقون فوق الخراب الذي خلفه نابليون في أوربا ، بسخف القول الذي يحبب للناس تقبل تلك الحياة التاعسة ، وذاك الهول ، على اعتبار انه ارادة اله الكتاب المقدس •

ان هذا الوجود كما ارتآى شوبنهور يومذاك ، كان « الارادة الخالدة التي تصطرع مع ذاتها في سبيل البعث بعد موت » • وان أصداء فلسفة شوبنهور هذه ، هي التي دفعت شبنجلر بعد حوالي القرن من شوبنهور ، الى تحديد معالم الحياة بواقعتين : موت وبعث ـ لا يخامرنا في ذلك أي شك •

فالوجود اذن ، ارادة مصطرعة مع ذاتها في كفاح أبدي • وان هذا الاصطراع الذاتي ، مثل الحركة التي تستهلك الخلايا في جسم الانسان من أجل بناء خلايا حية نشطة جديدة •

فالموت ، وهو العدو الاكبر للحياة التي تمثل الوجود ، يمكن للارادة التغلب عليه برغبتها في الاستمرار والبعث : أنظر الى فحل العنكبوت ، كيف تفترسه انثاه فور الانتهاء من مواقعتها واخصابها ! ثم انظر الى الانسان ، كيف يفنى نفسه في جحيم الكد والشغل في سبيل حياة أطفاله ! أوليس في ذلك ما يصح أن يكون مثلا على استمرار الحياة والبعث ممثلا في رغبة الارادة في ذلك ؟

بل وأن أكبر مقومات الارادة في اثبات وجودها ، هو رغبتهـا في المحافظة على استمرار وجودها ، وبعثها بعد موت ، ممثلة ومجسدة في الافواه والفروج : الفرج هو آلة الارادة في التأكيد على استمرار الاخصاب والحياة · والفم هو الطريق الذي صوره العقل الواعي لاستمداد القوة من علم الانسان الخارجي ، لدعم فعاليات الارادة ، أو بالاحرى الغرائز التي تصدر عنها الفروج ·

والحق ، فاننا بهذه المناسـبة ونحن نستعرض شخصية هـذا الفيلسوف العظيم وأفكاره لا يسعنا الا ان نطاطيء الهام اجلالا لفيلسوف المعرة العربي العظيم الذي قال قبل حوالي ألف سنة من شوبنهور :

واكبر من ترى في الناس قدرا يعيش العمر عبد فم وفرج

فالعلاقة الجنسية القائمة على اساس من الغريزة ، لا أكثر من تعبير عن رغبة الارادة في المحافظة على النوع · والزواج بالتالي ، هو الصورة الرتيبة للتضحية بالنفس من أجل الاخصاب واستمرار حياة الانسان على هذا الكوكب · وان الخيانة الزوجية ، في نظر شوبنهور ، لا اكثر من صورة لرغبة الارادة في البحث عن « أحسن الفحول » او « أحسن الاناث » ممن يستطيع التأكيد على بقاء الانسان ··· شاءت التقاليد أو أبت ·

والتقاليد المتعلقة بالزواج ، حيلة من الحيل التي ابتدعتها الارادة عن طريق جزئها الممثل بالعقل الواعي ، لغرض تجنب الكائن الانساني مخاطر الحياة الجنسية الحادة وويلاتها الممثلة بارادة مجنونة نعرفها بأسم الامراض الزهرية والموت · عليه كان من رأي شوبنهور المحافظة على سلامة الجنس ، وانتخاب عرق بعينه يستطيع ان يمثل كيان الوجود البشري على سطح الكرة الارضية ··· وتلك هي العين الثرة التي استمدت منها الفاشية النازية تعاليمها في ابادة العروق غير الالمانية وايقافها عن العمل في ميدان الاخصاب والانتاج · ايها الانسان الفرد ، ··· ان كلمـا يصدر عنـك في يقظتك واحلامك انما هو بدافع من « جنس » ·· ذاك هو الذي قرره لنا جميعا شوبنهور ، استاذ « فرويد » الاكبر · عليه أرجو أن لا تبتئس ، اذا همست بأذنك ، نقلا عن شوبنهور بانك عندما تقلم أظافرك ، فانما تقوم بذلك دون ما وعي منك بتحطيم الآلة التي كنت تقتات بهـا بجسم فريستك الضعيفة يوم كان يعز عليك الطعام لادامة حياة اطفالك في الغاب قبل ملايين السنين فتلجأ الى قتل اناثك ·· فهل انت ذاكر عهودا مثل هذه خلت ؟

كذلك أرجو أن يعذرني الكثير من النساء ان أنا همست بآذانهن على طريقة شوبنهور ، بأن اطالة اظافرهن على هذه الصورة الوحشية التي نراها اليوم ، انما هي تعبير عن رغبـة ارادتهن في افتراس « الفحـول الضعيفة » من الازواج البؤساء ، وتقديم كيانهم مددا وغذاء لاطفال في سن الرعاية ، ثم لمجابهة « الفحول القوية » التي ترمى الى الافتراس بعـد

الافتراش ــ ان اطالة الاظافر على هذه الصورة يمثل اصداء بعيدة لاحداث دامية مثلث وقائعها حواء سوية مع انثى العنكبوت في حياة الكهوف ٠

ان ارادة استمرار الحياة والبعث ، هي السيف المصلت على رقبة الموت ٠ وذلك هو سر قيام نابليون وهبوطه ، بل وذلك هو السر الكامن وراء الازدهار والسقوط الذي انطبعت عليه المدنيات ٠٠٠ وعند هذه النقطة من فلسفة شوبنهور ، نود أن نسأل أيضا ، عن الجديد الذي جاء به عمالقة الفكر النازي أمثال شبنجلر ، ومان ، وروزنبرغ ٠

فالقتل ، وتضحية الجزء في سبيل الكل ، يعني في رأي شوبنهور ، سنة أو غريزة تتمكن الارادة العامة بواسطتها من تجديد بناء مقوماتها والتأكيد على وجودها وأبدية بقائها في هذا العالم ٠ لكن هذا « الكل » قد أصبح في نظر الفلاسفة الالمان في مطلع القرن العشرين مع الأسف ، هو العرق الجرماني وحده الذي ارتأى هؤلاء المجانين أن يضحى في سبيل بقائه بجميع ما تضمه البشرية من عروق ٠

ثم ما هو الحب ؟ ٠٠ انه في نظر شوبنهور ، رغبة الارادة الحازمة في المحافظة على النوع ٠ فالحب هو انطلاقة الغريزة الجنسية بكل قواها في هذا السبيل ٠ وان ذلك يعني من جهة اخرى ، التضحية بالكيان الفردي من أجل الحفاظ على النوع ٠ والزيجات التي تنشأ عن الحب والعلاقات الغرامية ، هي أسوأ الزيجات كما يرى شوبنهور ٠ ذلك ان كلا من العاشقين المتحابين يحاول التضحية بكيانه الفردي من أجل الاخر ، وان هذه التضحية تتمثل في انهاك الغريزة الجنسية لدى الواحد من هؤلاء في سبيل تطمين لذاذات جنسية عارضة ، هي في الواقع صوت الطبيعة الذي يجبر الكائن الانساني على التشبث في الاخصاب والانتاج ٠ فشوبنهور يرى في الافراط الجنسي الموجود عادة لدى العشاق ، استهلاكا لقوى الجسم البشري ، وبصورة خاصة قواه الجنسية التي يراها عماد اطالة العمر ٠ فالافراط الجنسي ، في رأي شوبنهور ، يقصر في آجال الناس ، وهو يعني من ناحية أخرى التضحية بالنفس من أجل ادامة حياة النوع ٠

كذلك فان زيجات الحب ، هي اكثر الزيجات انتاجا من الذرية بسبب ما تتصف به من الحاح جنسي مميت ، وبالتالي فهي اكثر الزيجات بؤسا ، اذ ان النسل والانتاج بكثرة يخلق للزوجين الكثير من المشاكل العائلية التي تحول البيت الى جحيم لاسباب كثيرة ملموسة في حياتنا الواقعية اليومية ٠ لكن هذه المشاكل على ضخامتها ، لا تستطيع الحد من سلطان العشق واصدائه العميقة في النفس الانسانية ، وهو ما يتمثل بالغريزة الجنسية التي ظاهرها اللذة ، وباطنها الحفاظ على النوع : انظروا الى أي عاشقين ، مهما كانت ضخامة مشاكلهما العائلية ٠ ترونهما يستسلمان الى حالة هادئة واطمئنان عميق فور انتهاء العملية الجنسية التي يحصل

بواسطتها الطرفان على « لذة انتهت » بانتهاء المواقعة ٠٠ فما الذي يعنيه هذا الهدوء والاطمئنان ؟

ان العقل الواعي يتصور ان « اللذة المجردة »الموجودة في العمل الجنسي هي الغاية المرجوة من وراء الاتصال الجنسي لكن العملية الجنسية وشعور الطرفين بشيء من الاشمئزاز منها فور بلوغهما قمة اللذة ، ثم الاستسلام النفسي الى حالة من الهدوء والاطمئنان وراحة الاعصاب بعد انقضاء تلك اللذة ، يبرهن لنا على وجه التأكيد على ارتياح الارادة ذاتها بتحقيقها جميع التصرفات والحركات الجنسية من أجل أكمال العمل الذي تتم به المحافظة على سلامة النوع ، وكان الاجدر بالعاشقين ، أن يستسلما الى حالة من الحزن والأسى بعد انقضاء اللذة المنقضية بانتهاء العملية الجنسية لو كانت « اللذة المجردة » هي الغاية من الجنس ، لا أن يستغرقا في حالة من الهدوء والاطمئنان ٠

فالحب بالنسبة للارادة ، أو بالنسبة للاشعور ، مجرد رغبات نفسية مجسدة في الاعضاء التناسلية لكلا الجنسين ٠ وحيث ان الرغبة الجنسية هي اكبر الرغبات الصادرة عن الارادة باعتبارها الطريقة الوحيدة التي تؤمن بقاء الارادة الكلية على قيد الحياة ممثلة في النوع ، رأينا الكثير من البشر في عصور مختلفة ينزعون الى تقديس الغريزة الجنسية لدرجة العبادة ، فكان ان رأينا في اليونان القديمة ، وفي الهند ، هياكل تقام لعبادة هذه الغريزة مجسدة فيما ينحته هؤلاء من تماثيل لاعضاء الذكورة والانوثة ٠

لذلك فان الزواج الذي يتم عن طريق اختيار الوالدين بعيدا عن مزالق الحب ، هو في نظر شوبنهور ، أحسن أنواع الزواج السعيد ، حيث ان الوالدين عادة ، يتصرفان على ضوء العقل الواعي فيهدفان عند اختيار الازواج لابنائهما ، توفر أكبر ما يمكن من الشروط التي تهيء البيت العائلي السعيد من ناحية المعيشة والمسكن والمركز الاجتماعي وما يضمن المستقبل الجيد للنسل والذرية بعيدا عن الحرمان والفاقة ، وهي شؤون غالبا ما يكون تركيز تفكير الزوجين فيها ، مدعاة الى تضاؤل صوت الغريزة الجنسية الملحاح ، فتكون العلاقات الجنسية بينهما اذاك طبيعية غير متسمة في الاسراف والافراط الجنسي الذي غالبا ما تفرضه ظروف الحب والعشق على الجنسين بدافع من الارادة النازعة الى حفظ النوع والانتاج والاخصاب ، لمجرد الاخصاب والانتاج ، لا يهمها بعد ذلك أعاش الزوجان في جحيم من الفقر والنحس ، أو في جنة موهومة من اللذة العابرة التي تلوح وتختفي اختفاء البروق بين السحاب ٠ فاذا أمكن تشبيه الجنس البشري بالشجرة ، فان الدوافع الجنسية الموجودة لدى الانسان تمثل الحياة الداخلية لهذه الشجرة ٠ والانسان الفرد بالنسبة لشجرة النوع هذه ، اشبه ما يكون بالورقة ٠ فالشجرة هي التي تنتج الاوراق ، بينما تقوم كل ورقة

بعد ذلك بوظيفتها في ازدهار حياة الشجرة العامة الى أن تنضب قواهـا وتتغلب عليها رياح الخريف •

وانّنا جميعا كأفراد ، لا يمكن أن تكون لكل منا « فردية » مستقلة عن غيرها في حياة النوع • فما نراه من تعدد الاجسام التي تظهر لحواسنا انها مستقلة عن بعضها في حياتها ، وموزعة على أماكن مختلفة ، هو مجرد وهم باطل فرضه « الوقت » و « المسافة » على افهامنا • فالواقع ان حياة النوع الانساني ، في رأي شوبنهور ، سلسلة متصلة الحلقات دونمـا انفصام ، فما كانت تهدف الارادة الى تحقيقه من حفظ النوع في الامس ، هو هدفها اليوم أيضا ، وسيبقى كذلك غدا وبعد غد • فالتغيير الجاري بين الافراد من ولادات وموت ، والمسافات الموجودة بين هـؤلاء الافراد مما نعتقده زيفا بأنه « تعدد » ، انما هو ظواهر ، ومجرد ظواهر ، تشير الى وجود النوع واستمرارية حياته • فالتغير الجاري في حياة النـــوع الانساني اذن ، محصور في مظهره الخارجي • اما جوهر النوع ذاته ، فانه باق على ما هو عليه دون ان يطرأ عليه شيء مدى الدهور ومعنى هذا أيضا ، هو ان الفرد ذاته لا أكثر من ظاهرة من ظواهر النوع • وان المفكر الذي لا يستطيع التوصل الى وضع يده على هذه الحقيقة ، غير مقتدر على خوض دروب الفلسفة كما يرى شوبنهور •

وكان سبينوزا قد قال يوما انه لو كان لحجارة مقذوفة في الجـو عقل مدرك ، لاعتقدت تلك القطعة من الحجر بأنها تتحرك بدافع من ذاتها وارادتها الحرة في هذا العالم • ويضيف شوبنهور على قول سبينوزا هذا فيقول ان قطعة الحجر محقة في ما تقول عند ذلك لانها تشعر بأنها بعيدة وفي معزل عن القوة الاصلية التي قذفتها • وان الزخم وقوة الدفع المكتسبة التي اصبحت لدى قطعة الحجر المرمية هي أشبه ما تكون بالدوافع المحركة الموجودة في صميم تكوين الشخصية الانسانية • عليه فان طبيعة تكوين هذه القطعة ، من تماسك بين أجزائها ، وصلابة هذه الاجزاء وانجذابهـا الى بعضها مما ييسر لها سبيل الانطلاق في الجو ، هو نفسه الذي موجود في صميم حياتي الداخلية مما اطلق عليه اسم « الارادة » •• لكن الواقع ، هو انه لا ارادة قطعة الحجر المحلقة في الجو ، ولا ارادة شوبنهور نفسه ، يمكن ان تسمى ارادة حرة ما دامت تابعة اصلا الى قوة عظمى اكبر منهـا فعالية ونفوذا • فارادة الانسان الفرد غير حرة في تصرفاتها نظرا لوجود قوة تحد من فعالياتها ، هي « الارادة الكلية » ، أو « ارادة الكون » التي تخضع لها جميع الارادات الاخرى • وان ارادة الكون هذه ، هي وحدها التى يمكن ان تكون حرة في رأي شوبنهور •

فالعالم اذن ارادة ، وان طبيعة هذه الارادة وجوهرها انما هو الجنس والرغبات الجنسية النازعة نحو حفظ النـــوع ، والتأكيد على استمرار الوجود •

والرغبة من جهة أخرى تعني « الحاجة » ٠٠٠ حاجة الانسان الى أشياء بعينها تطمن رغباته ٠ ومادامت مقومات الشخصية هي « الارادة » فان الانسان يكون والحالة هذه في « حاجة » مستمرة الى الحصول على ما يطمن رغباته ٠ وحيث ان امكانيات هذا العالم محدودة ،لا تكفي لتطمين رغبات جميع افراد الناس ، اذن لابد وان تصطدم رغبات الافراد ببعضها في معرض الطموح للحصول على المزيد من الحاجات ، وهو ما يعني على وجه التأكيد بالنسبة للفرد : ١ ـ الخوف الدائم من ضياع المنافع والمكتسبات التي حصل عليها وذهابها الى أيدي الغير ٠ ٢ ـ الصراع الدائم بين الافراد على ما بأيدي بعضهم من مكتسبات ، وعلى ما في العالم من المصادر والوسائل التي قد تسد الحاجات الملحة للرغبات ٠٠ وان كلا هذين المعنيين ، لا يعني بحال ، لا سعادة ، ولا أمن أو سلام ٠

ولكن ما عسى أن يكون العالم الخالي من السعادة والامن ؟٠٠ ما هي طبيعته ؟ وما هو طابعه ؟ ان عالما مثل هذا لابد وان يكون عالما من « شر » فالعالم في نظر شوبنهور اذن « شر » و « نحس » ، وهو أيضا « شؤم » ٠

ان الخوف المقيم ، وعدم الامن والاستقرار على حال ، يعني دونما شك الالم والهم ٠ وان السعادة بالتالي ، سوف لا تعني غير « الهدنة » الموقتة مع هذا الالم الذي تصطخب به الحياة ٠ ولقد كان أرسطو مصيبا في قوله اذ قال « ان العاقل الحكيم هو من لا يبحث عن السعادة ، انما عن تحرير نفسه من الالم والقلق » ٠

وان من المضحك المبكي كما يرى شوبنهور ، أن يطبع هذا العالم بطابع الشر حتى في الساعات التي تحقق الرغبات فيها حاجاتها ، ذلك انه فور حصول الانسان على بعض الراحة بعد طول عناء ، وبعد طول مجاهدة وألم ، تراه يتولاه السأم والملل من القعود عن الصراع ، كما تراه خلال ذلك الملل ، وتلك السآمة والبطر ، يتطلع الى الحصول على حاجات جديدة بدافع من الارادة التي لا تؤكد على وجودها بالركود والبطر ، انما بالصراع بأي شكل كان من اجل الحصول على المزيد من الحاجات ، أو بعبارة أصدق ، من أجل تهيئة المزيد من الآلام ٠٠٠ فأي شر ينطوي عليه العالم أكبر من هذا الشر ؟

وتشتد زيادة الالم في عالم الشر هذا ، كلما كانت الارادة ماضية قدما نحو الكمال ٠ وان الدليل على تكامل الارادة ونموها ، هو تكامل الجزء الواعي منها ـ العقل ـ وتناميه ٠ لذلك فان الجماد والنبات لا يعاني شيئا من الالم لانه خال من الشعور والوعي ٠ بعد ذلك تبتديء سلسلة الآلام في عالم الحيوان ابتداءا من أوطأ الانواع ، حتى الانسان ٠ فالحيوانات جميعا تشعر بالالم دونما شك ٠ وبالاضافة الى هذه الآلام التي قد تقع على أجسادها ، فان هناك من الحيوانات من تعاني الآلام الاخرى بصورة واضحة عندما تتحسس بغرائزها ما يحيق بها من أخطار دائمة ٠ ويرى

شوبنهور ، ان الحيوانات التي تتفوق على غيرها في سلم الذكاء ، هي أكثر الحيوانات معاناة للالم المنبعث عن القلق الغريزي والشعور بالشر . وحيث ان الانسان هو أكبر الحيوانات وعيا وادراكا ، فانه أصبح أكبر من أن يتحمل الهم والقلق الدائمين في عالم الاهوال . كذلك فان أفراد البشر يختلفون عن بعضهم في الدرجة التي يعانون بها الآلام . وان اكثر الناس تعرضا للهم والالم ، انما هو الذكي النابه . أما العباقرة النابغون ، فانهم الصورة المجسدة للهموم والآلام ما في ذلك شك .

والحياة في هذا العالم « شر » أيضا ، لان « الحياة هي الحرب » : انك اينما وليت وجهك في رحاب الطبيعة والمجتمع لا تقرأ غير القصص البائسة للنصر والهزيمة ، ولا تشهد غير الرايات المجللة بالسواد حدادا على صرعى هذه الحرب .

والحياة اذ تحارب وتصطرع ، فانما تصطرع مع نفسها لان دوامها وبقاءها رهين بالعيش على الاجزاء الضعيفة من العناصر التي تمثل شيئا من وجودها الكلي . وحيث أن ارادة الحياة مكونة من جميع ارادات الكائنات الحية ، فان الحرب التي تخوضها هذه الحياة ضد نفسها لا تحمل غير الشعار القائل أن « البقاء للاقوى » .

انظروا الى هذا النمل الاسترالي الوحشي . ان الواحدة منها عندما تنقسم الى جزئين ، يسارع كل من رأس النملة وذنبها الى الاشتباك مع بعضهما في حرب ضارية مريرة ، فترى الرأس يطبق على الذنب باسنان حادة في الوقت الذي يمعن فيه الذنب بلسع الرأس لسعات قاتلة ، ويستمر الحال معهما على هذا المنوال الى أن يتمكن أحد جزئي النملة من أفتراس الجزء الاخر ، وان الامثلة على هذا النوع من الحرب كثيرة في عالم الحيوان .

ثم انظروا الى تلك السلاحف عندما تغادر البحر لتضع بيضها ، كيف تفترسها الكلاب الوحشية ! بل كيف تأتي النمور بعد ذلك لافتراس تلك الكلاب ؟

والانسان .. والنوع الانساني .. هل تراه خلا يوما من طبيعة الذئب ، على الرغم من طول عهده بالحياة المدنية والمجتمعات ؟

وتلك هي القبائل الهمجية التي ما زالت حتى هذا العصر الحاضر تعيش على ظهر هذا الكوكب ، وهي تقوم بنفس الدور الذي كان يقوم به بنو البشر عندما يفترس الغالب المغلوب . فبأي آلاء مجده البائس يستطيع ان يكذب الانسان ؟ اذ ما الذي غيرت المدنية والحياة الاجتماعية من طبيعة هذه « الامجاد » ؟ هل غير انها استعاضت عن مخالب الانسان الوحش بالمدفع والبارود ، وبالسجون والمعتقلات وبالنفي القاتل ايضا ؟ اين هو الكورسيكي « ابن الثورة » ، اكبر من مثل « ارادة الحياة » في أوربا بما سفكه من دماء

فيها ؟ ان ارادة جبارة ذات قوة اكبر من قوته قد تمكنت منه وسحقته : لكنها لم تقتله بمخلب أو ناب ، انما بهذا المنفى البعيد حيث راحت تسلب روحه من بين ضلوعه بألم قاتل في أعماق المحيطات بسنت هيلانة • فأي تحسن هذا ، بل وأي شؤم وشر راح يدوي في آفاق الانسانية بين صعود الغالب وهبوط المغلوب ؟ أم هل ترك صعود نابليون وهبوطه ، شيئا من راحة البال لبني البشر في أوربا ؟ ألا بئست هذه الحياة التاعسة التي لم تعد تطاق بحال اذن •

وكان شوبنهور قد عاصر الثورة الصناعية وشهد المأساة التي مثلتها في أوربا في النصف الاول من القرن التاسع عشر بالاضافة الى الخراب المريع الذي خلفته حروب نابليون • وكانت تلك الثورة آنذاك أشبه ما تكون بلعنة صبتها السماء على رأس ابناء الشعوب الاوربية بصورة خاصة • فالفقر والحاجة والحرمان ، كان يدفع ملايين الناس الى ارسال أطفالهم في سن الخامسة الى معامل الغزل والنسيج وغيرها ليشتغلوا مدة عشرة ساعات في اليوم ، ثم أربع عشرة ساعة عند وصولهم سن البلوغ ، لقاء اجور بخسة للغاية لا يكادون يقيمون بها أودهم • وكانت هذه الحالالاقتصادية التاعسة والالام والامراض المهلكة ، كالسل وفقر الدم وغيرها ، مما ينتجه الارهاق وسوء التغذية وفقدان العناية الصحية ، هي الثمن الوحيد في نظر شوبنهور، للهواء الذي يتنفسونه لغرض البقاء على قيد الحياة ، فكم سيكلفهم الملبس والطعام اذن ؟

أم هل تنتهي المأساة الانسانية عند هذا الفصل وحسب ؟ ان شوبنهور يقول كلا • اذ ليس مثل الطبيعة من هو أعدى للناس بعد انفسهم • ولقد كانت النكبات التي أنزلتها الهزات الارضية بلشبونة وهايتي وغيرهما مما ينزل الدموع الغزار من أعين المفكرين النابهين • ومن يدري ما الذي يحتمل الآن في جوف هذا الكوكب المشؤوم الذي نعيش عليه الان ؟ اذ ربما سيشطب الحياة كلها من على ظهره بانفجار هائل دونه انفجار البراكين ! أو ليس ذلك محتملا في عالم النحس ؟ ان شوبنهور يجيب عن ذلك ويقول : « كل الاحتمال » •

ولكن أين المفر من كل هذه المصائب والالام ؟ أيلجأ الانسان الى الدين ، أم الى الفلسفة ، أم الى الانتحار ؟

فبقدر ما يتعلق الامر باللجوء الى الكهنوت المسيحي ، فان الخلاص عن طريق الكنيسة من هذه الالام قد أصبح ضربا من المستحيل • اذ كيف يمكن للمسيحية أن تزيل آلام الناس في هذه الحياة ، بعد أن قطع كهنتها بأن ما أصاب لشبونة من دمار في يوم من ايام العيد ، كان بسبب خطايا سكانها البؤساء ! عليه فان الذي يأخذ على فولتير انكاره للثالوث المقدس وسخريته منه ، لابد وان يكون ، كما يرى شوبنهور ، من أعداء الجنس البشري •

جائز أن يكون في الـ « نرفانا » الهندية ما يخفف عن الناس بعض

ويلات هذه الحياة • والنرفانا الهندية التي تعني مكافحة الرغبات والشهوات ورياضة النفس ، من شأنها تخفيض رغبات الارادة الانسانية الى اوطأ الدرجات بحيث ينتج عن التمسك بها ــ بالنرفانا ــ كمبدأ تقليص ميدان هذا الكفاح الدامي ، ثم تقليص آفاق الشؤم والشر الممتدة على سبيل الحياة • ومع ذلك، فان النرفانا الهندية ليست بالجواب الكامل على كيفية التخلص من هذا الشر الى الابد ، كما يرى شوبنهور • والفلسفة كملجأ في رأي شوبنهور غير كافية بالمرام أيضا • ذلك لان « الخوف » من الموت ، هو النقطة التي تبدأ منها الفلسفة • فاذا قالت الفلسفة أحيانا بأمكانية الخلود بعد الموت ، ووجود السعادة في عالم الابدية ، فانها ستصدر والحالة هذه ، عن نفس المصدر الذي صدرت عنه فكرة الخلود الدينية ، ألا وهو « الخوف من الموت » أيضا • والخوف من الموت ، هو الالم بذاته • فعلام يلجأ المرء من الم الى ألم ؟ ذاك شيء لا يحل المسألة في نظر شوبنهور •

كذلك فان من الحماقة أن يلجأ المرء الى الانتحار في هذا السبيل • والانتحار بحد ذاته ، عمل جنوني • اذ من الجائز ان يضع هذا العمل حدا لآلام النوع الانساني بكامله • بعد ذلك لا يبقى أمام الكائن الانساني من مهرب غير الجنون • والجنون في الواقع ، كما يرى شوبنهور ، هو النقطة الحرجة التي يستقطب عندها الصراع بين الارادة والعقل ، عندما يأخذ هذا الاخير في الامعان في طرح المشاكل واسباب الالم والهم على بساط التحليل والنقد والتأمل الفكري • فالاشياء التي يطرحها العقل الواعي على بساط التمحيص ، هي كلها مما يقف بطبيعته حائلا دون تحقيق رغبات الارادة • وان انتصار الارادة على العقل بأجباره أن يسقط من حسابه تدقيقاته وتمحيصاته لهذه الحوائل والعقبات ، هي الحالة التي نطلق عليها اسم الجنون ؛ فالجنون اذن ، هي الحال التي لا يعود الانسان خلالها الى الشعور بأي نوع من أنواع الهم والقلق والالم • على أن شوبنهور ، وهو « العاقل ! » دون أدنى ريب ، يرفض امكان وجود عالم جميع افراده من المجانين ، لذلك فان مسألة الجنون تصبح في نظره مسألة فردية لا تخص النوع جميعه ، شأنها شأن مسألة الانتحار •

ومرة أخرى نسمع شوبنهور يصيح من أعماقه « أين المفر ؟ » • لكنه يجيب هذه المرة عن سؤاله بصراحة « العاقل ! » الحكيم بفلسفة لم نجد أكثر منها شؤما على الجنس البشري ، ومما لم نجد له مثيلا ، الا ما ندر ، في تاريخ الفلسفة الطويل •

ان « الموت الاكبر » ، هو الجواب الشافي لهذا السؤال الذي ما زال مطروحا أمام الفلسفة منذ يوم مولدها في أتيكا حتى هذا اليوم •

فالنرفانا الهندية بالحقيقة ، هي التي فتحت الطريق الى فكرة « الفناء الاكبر » أمام شوبنهور • والفناء الاكبر ، هذا الذي دعا اليه الفيلسوف ، لا يمت بصلة الى « الفناء » الموجود في التصوف الاسلامي كما قد يربط

القاريء بين معنى النرفانا والتصوف الذي اتخذ من رياضة النفس ومجاهدتها ركنا من أركانه • انه خطبة مشؤومة ـــ مجرد خطبة ـــ حث بها شوبنهور بني البشر على افناء الجنس البشري كله بصورة هادئة بعيدا عن الالم ، لا على قتل رغبات الانسان الفرد وشهواته بالنرفانا •

وهو اذ يبدأ متفلسفا على هذا الخطأ ، يلتقي أول ما يلتقي مع المفكر المسلم القائل :

« لدوا للموت وابنوا للخراب » •

ثم مع فيلسوف المعرة اذ أوصى أن يكتب على محبسه الثالث :

« هذا جناه أبي علي وما جنيت على أحد » •

والحق ، فان شوبنهور كان قد تجاوب الى حد بعيد مع أبي العلاء ، عندما صاح من اعماقه متسائلا بألم عميق عن « الجريمة التي يرتكبها هؤلاء الاطفال كي يعاقبوا بان يولدوا في هذا العالم » ! • واذن ، فان ايقاف التناسل والامتناع عن انجاب الذراري ، هو الطريق الامين الذي يؤدي الى فناء الجنس البشري ، وزواله ومعه جميع آلامه ، من هذا العالم المشؤوم •

لكن شوبنهور عندما يبدأ بالبحث عن المجرم الحقيقي في الموضوع ، تراه يبادر الى تشخيصه في الحال ويعلنها بصراحة منقطعة النظير قائلا ان المجرم الاكبر ، والداعي الاول الى هذه الذرية وما ينتج عنها من آلام للنوع كله ، انما هي المرأة •

فرأي شوبنهور في المرأة حالك السواد • انه يرى فيها الجريمة مجسدة بصورة بشر • بل وانه يعتبرها بأنها سر كل ما موجود في هذا العالم من شرور •

انه يسدد أول ضرباته الى جمالها فيقول عنه أنه عرض لابد وأن يفقد رونقه وتأثيره في عقليات المراهقين بعد أن تلد مرة أو مرتين • ثم انه يباهيها بجمال الرجولة الدائم ويعرض عليها الدليل الآخر في أن جسم الرجل اكثر جمالا من جسمها الى الحد الذي لا يتقبله عقل امرأة •

والنساء بصورة عامة ، في رأي شوبنهور ، قاصرات عقل ، وانهن لا يصلحن مطلقا للاعمال الفكرية ، وانهن فاشلات ، دائما وابدا ، في نظم الشعر ، وكتابة القصة ، والرسم ، والموسيقى ، ومختلف فروع الادب والفنون الجميلة • وان من المستحيل أن تظهر بين النساء فيلسوفة لان عقلها خادم أبدي لغرائزها الجنسية فهو لا يستطيع كسر طوق الشهوة والنفوذ الى آفاق المعرفة الخيرة • وان من المستحيل ان تجد انتاجا ادبيا أو علميا خالدا لامرأة ، فان ذلك كله وقف على الرجل • والمرأة بطبيعتها التي جبلت من شر ، بخيلة ومسرفة في وقت واحد : هي بخيلة على زوجها بما تحصل عليه من مادة ومال ، ومسرفة كل الاسراف في انفاق ما يحصل عليه زوجها • انها ترى أن وظيفة الرجل هي الكد والعناء في سبيل الحصول على المال ، أما هي ،

فان من وظائفها ان تبذر هذا المال وتمعن في تبذيره • كذلك فان كل ما سفك من دماء في الدنيا كان سببه المرأة ؛ اذ من ذا الذي رفع نابليون الى المناصب العالية غير النساء ؟ وهل قامت الثورة الفرنسية هكذا اعتباطا ؟ ان الاسراف والبذخ الذي قامت به نساء البلاط اعتبارا من لويس الثالث عشر فصاعدا ، هو الذي جعل فرنسا تتمرغ في أزمات الفقر والحاجة التي أشعلت نار الثورة •

فالمرأة اذن في نظر شوبنهور هي الشر • لكنها ليست كما يقـــول بعض ذوي التفكير الضعيف ، من انها شر لابد منه • انها شر يمكن اجتنابه بكل يسر وسهولة ، وان الطريق لذلك واضحة ، وهي أن لا تتزوجها البتة ، كما لا تجعل منها مطلقا ، أما لاطفال •

ان التوقف عن انتاج النسل والذرية سيؤدي الى حالات موت متلاحقة لا تقابلها حالات ولادات ، وهو ما يعني ان الجنس البشري كله سينتهي ويتلاشى من هذا العالم يوما من الايام ، وان هذا الفناء الاكبر ، هو الحل الوحيد لمسألة الآلام المتضخمة والمتلاحقة التي يعاني منها النوع الانساني

على أن شوبنهور بجميع ما أورده من آراء متطرفة ضد المرأة كـــان متأثرا الى حد بعيد بموقف أمه منه ، ثم بطبيعة سلوكها الشائن المخـــزي ما في ذلك شـــك • ومن حيث علاقـــة آراء شوبنهـــور هـــذه بمـــا تلاهـــا من فلسفات ألمانية ، نرى النازية قد ذهبت معه الى حد بعيد ، بحيث حصرت نشاط المرأة جميعه في المطبخ ، ثم اتخذتها ــ رغم ارادة شوبنهور ــ وسيلة من وسائل الانتاج وامداد الدولة بالمزيد مما تلدهم من المقاتلين لا أكثر ، ايمانا منها برأي شوبنهور وأضرابه من الفلاسفة ، بأنها لا تصلح الى أي وظيفة أخرى في الدولة •

ومن ناحية أخرى ، فان شوبنهور قد امتدح الاسلام كثيرا في موضوع تعدد الزوجات • فشوبنهور يرى بأن عماد حياة الجماعـة السياســية والاجتماعية،هم الرجال• وان استبداد امرأة واحدة بمقدرات رجل من شأنه ان يخلق من الحياة العائلية جحيما لايطاق ، وهو ماسينعكس بكل تأكيد على تصرفات ذلك الرجل مع الجماعة خارج البيت ؛ وان تعدد الزوجات في الواقع، هو الطريقة المثلى لازالة الطابع الهستيري الطاغي على الحياة العامة ، اذ ان وجود عدة نساء تحت سقف واحد مع رجل واحد ، سوف لا يسمح بوجود جحيم الزوجة الواحدة نظرا للتنافس الذي سيحصل بين الزوجات في سبيل ارضاء فحل البيت ، الذي قد يكون نفسه فحل السياسة في البلاد •

كذلك يثني شوبنهور كثيرا على الاسلام اذ جعل نصيب الذكر من الميراث « مثل حظ الانثيين » • انه لا يؤمن اطلاقا بالسماح للنساء بامتلاك الكثير من المال ما دمن قد اتخذن من الرجال وسائل للعيش الرغيد •

واخيرا فقد امتدح شوبنهور الاسلام كثيرا عندما جعل « الرجال قوامين على النساء » • فلقد آمن الرجل مخلصا بأن المرأة قاصرة عقل ، وان

تركها تتصرف على هواها ، هو مما سيزيد كثيرا في شقاء المجتمع • وان من رأي شوبنهور أن لا تترك امرأة في هذا العالم دون رقابة من زوج أو أب ، أو أخ ، أو ابن ، أو قريب •

ومهما تكن الحال ، فان شطب شوبنهور لشخصية المرأة بهذا الاسلوب العنيف ، كان في رأيه سحق الارادة الانسانية بصورة عامة • ذلك ان رغبات الارادة الشريرة للكائن الانساني مركزة جميعها في الجنس والاخصاب والنسل الذي تجسد كله في شخص المرأة • والتغلب على هذه الرغبات بالتوقف عن الاخصاب والانتاج معناه تغلب الموت على الالم ووضع حد له بصورة نهائية وأبدية ، وتلك هي الحكمة التي انطوى عليها الموت •

ان عالم الالم والشرور ، هذا الذي ما زلنا نعيش وقائعه وتجاربه المرة ، هو نفسه الجحيم الذي استمد منه شاعر عصره الاكبر ، دانتي ، وقائع كوميدية ، والا فمن أية سوق شر أخرى استطاع دانتي أن يشتري الصور التي عرضها علينا في الجحيم ؟ وانه لو كان هذا العالم الذي نعيش فيه فردوسا لا جحيما ، اذن لنجح دانتي في تصوير هذا الفردوس الذي أجهد بسببه نفسه مع أبطال كوميديته وهو يقودهم عبر مشاهد الاهوال المخيفة كي يدركوه ، اذ ما باله يترك هؤلاء في خيبة أمل مريرة تماما في اللحظة التي يدركون فيها أهدافهم عندما يبادر الى انزال الستار على تلك الاهداف ، عجزا منه عن تصويرها حيث أن عينيه ، والحق يقال ، لم تكتحل في حياته يوما برؤيا فردوس •

وكان شوبنهور قد أصدر كتابه الفخم هذا ، يوم كان في الثلاثين من عمره عام ١٨١٨ • غير انه بعد ست عشرة سنة من ذلك التاريخ ، أخبره الناشر بأن القسم الاعظم من نسخ الكتاب قد بيعت بالتالي كأوراق عتيقة في احدى « شورجات » هامبورغ ، وهو ما يمكن ان يكون عزاءاً للكثير من « عباقرة ! » مؤلفينا اليوم •

وكان جميع ما كتبه شوبنهور بعد هذا الكتاب لا يتجاوز في مادته غير الشروح والاضافات عليه • ففي عام ١٨٣٦ ، نشر رسالته « الارادة في الطبيعة » ، وفي عام ١٨٤١ أصدر « مسائل الاخلاق » ، وفي ١٨٤٤ ، أصدر الطبعة الثانية لكتابه « العالم كأرادة وفكرة » ، وكانت طبعة موسعة • وفي ١٨٥١ ، أصدر كتابه « بقايا ونتاج ثانوي » ، وهو الذي ترجم الى الانكليزية بعنوان « الرسائل » • وكان هذا الكتاب قد لقي اقبالا عظيما عليه من قبل القراء ؛ غير ان حصته من ربح الكتاب كانت عشر نسخ منه فقط ، تفضل بها عليه الناشر بمنة منقطعة النظير ! وهكذا ناشرو الكتب ، قاتلهم الله ، في كل زمان ومكان ، لا يسلم من اسنانهم من الكتاب أحد حتى ولو كان شوبنهور •

ولقد بقي شوبنهور يبحث عن الفرصة مدة اربع سنوات ليحاضر بفلسفته الخاصة في الجامعات الالمانية · وهو عندما استلم الدعوة من جامعة برلين ليكون محاضرا فيها عام ١٨٢٢ ، اختار نفس الساعات التي يحاضر فيها « هيجل » في الجامعة ، اذ وطد العزم على انزال الهزيمة الكبرى بفيلسوف القصر الاكبر · لكن « هيجل » في تلك الايام ، كان كل شيء في دنيا الفلسفة والسياسة مما لا يستطيع بحال ، أن يصمد امام صولاته الفلسفية فيلسوف متشائم شاب مثل شوبنهور الذي ما زال كتابه الذي بوأه قمم المجد الفلسفي في أواخر عمره ، مكدسا بعد في دكاكين الباعة لا يقترب منه أحد ·

لذلك ما كاد شوبنهور يمضي وقتا قصيرا في القاء تلك المحاضرات التشاؤمية على الطلبة ، حتى بدأ هؤلاء يفرون من الساعات التي يحاضر فيها ليحضروا محاضرات هيجل ، تماما على عكس ما كان يتوقع · بعد ذلك عندما لم يعد يحضر دروسه أحد من الطلبة بالمرة ، بادر الى تقديم استقالته من الجامعة وفي نفسه من هيجل ألم عظيم · ولقد انعكس هذا الالم بشدة في الحملة العنيفة التي شنها على هيجل في الطبعة الثانية الموسعة لكتابه « العالم كارادة وفكرة » اذ اتهمه بأنه نال من كرامة الفلسفة وانحط الانحطاط الاعظم بقدرها عندما اتخذها حرفة يتكسب بها ، ووسيلة للتزلف الى هذا الحاكم أو ذاك ·

وفي عام ١٨٣١ اكتسحت مدينة برلين موجة من وباء الكوليرا فبادر كل من الفيلسوفين العظيمين الى الفرار من المدينة · على ان هيجل ما لبث أن عاد الى برلين ولم يكن المرض قد غادرها بعد ، فأصيب بالكوليرا التي استقبلته بضربة خاطفة لم تمهله سوى بضعة أيام · أما شوبنهور ، فان «تشاؤمه» من المرض قد دفعه الى الامعان في الابتعاد عن المدينة المنكوبة فكان أن حط الرحال في مدينة فرانكفورت التي لم يغادرها بعد ذلك الى أن توفي بعد حوالي ثلاثين سنة ·

وفي فرانكفورت ، عاش شوبنهور في عزلة تامة عن الناس فلم يتخذ له أي صديق فيها · كان يقضي أوقاته في الكتابة والقراءة والتأمل ؛ لكنه لم يتخذ من الكتابة حرفة للعيش ، اذ كان لديه ما يكفيه مما ورثه عن أبيه بحيث عاش الى أواخر أيامه معيشة جيدة على ما كان يرده من أرباح ماله الذي شغله في بعض المشاريع والشركات ·

وكان شوبنهور قد استأجر في هذه المدينة غرفتين لم يكن يغادرهما الا عند وقت نزهته عصرا كل يوم مع صديقه الوحيد « أتما » أو عند ذهابه معه لتناول طعام العشاء في مطعم انكليزي معين في المدينة · و « أتما » كلمة برهمية تعني « روح العالم » · غير ان أهالي فرانكفورت من ذوي الفكاهة ،

يرفضون قبول هذا الاسم لكلب شوبنهور ، لذلك فانهم دعـوه بنهور الصغير » ٠

ولقد اعتاد « شوبنهور » أن يضع أمامه على مائدة الطعام قطعة نقود ذه كان يتناولها من جديد ويعيدها الى جيبه عند مغادرته المطعم الانكليزي ٠ وعندما استفسر منه خادم المطعم يوما عن سر هذه العادة ، قال له بأن ذلك رهان بينه وبين نفسه على ان يعطي قطعة النقد لاول فقير يصادفه في الطريق اذا سمع الضباط الانكليز الذين اعتادوا تناول طعام عشائهم في ذلك المطعم، يبحثون في شؤون اخرى غير الخيل والكلاب والنساء !

فاذا كان شوبنهور قد عاش مجهولا من قبل الاكاديميات والمثقفين مدة طويلة من الزمن ، فان الشهرة الفلسفية والمجد الادبي قد وافاه أخيرا بعد اقبال المثقفين والجامعات على الطبعة الثانية من كتابه « العالم كارادة وفكرة » وما تلى ذلك من بحوث فلسفية ورسائل ٠ ذلك أن مثقفي الطبقة الوسطى من أطباء وفنانين ورجال أعمال ومحامين وغير ، قد وجدوا في كتابات شوبنهور الشيء الكثير مما يساعدهم في تفهم وقائع أعمالهم واتجاهاتهم وفشلهم ونجاحهم ، فذاع صيت الفيلسوف الكبير على نطاق واسع بين الناس في المانيا وخارجها ، فبدأ الناس يقصدون بيته لزيارته يوميا بالعشرات بعد تلك العزلة التي فرضها على نفسه ، وهو ما أبعده كثيرا عن حال التشاؤم المقيمة التي عاشها طوال حياته ، فراح يبدو مرحا بعض الشيء ، كما راح يعزف بعض الوقت يوميا على الناي بعد طعام العشاء ٠ كذلك كان لرسائل المعجبين بافكاره التأثير الفعال في اخراجه من تلك العزلة ، وقد سر يوما سرورا كبيرا برسالة بعث بها اليه الموسيقار الكبير « فاجنر » عام ١٨٥٤ شكره فيها على آرائه الفلسفية المصيبة ازاء فن الموسيقى ٠ اما الرسائل التي تلقاها يوم عيد ميلاده السبعين ، فقد أرسلت اليه في الواقع من كل ركن من أركان الارض ٠

وذات صباح ، عندما أشرقت شمس اول يوم لخريف عام ١٨٦٠ في ٢١ ايلول ، كان شوبنهور الذي فرغ من تناول فطوره متكئا على كرسيه وراء المائدة وقد ارسل بصره عبر النافذة الى أشجار باسقة قريبة كانت أوراقها تتساقط على الارض بتأثير برد الخريف ٠ وهو اذ أمضى في جلسته الهادئة تلك ساعة أو بعض ساعة ، مال رأسه على صدره فجأة ، فأيقنت السيدة صاحبة المنزل التي كانت بدورها تراقبه وهو يتأمل تساقط أوراق الاشجار ، ان الورقة الكبيرة لشجرة الفلسفة الخالدة قـد سقطت على الارض أيضا بعد أن نضبت قواها واصفرت ، وبعد ان أمدت الفلسـفة بما لا ينضب من كنوز الحقائق والحياة ٠

مراجع البحث

شوبنهور : العالم كأرادة وفكرة ٠

شوبنهور : الرسائل ٠

نيتشه : شوبنهور كمرب ٠

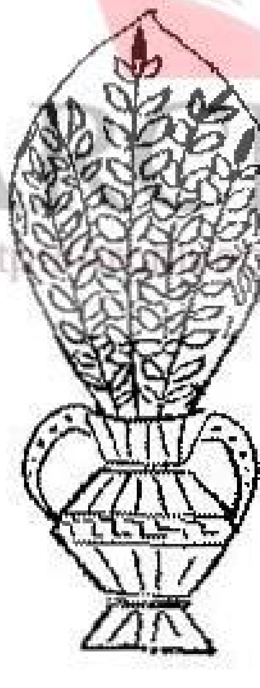
نيتشه : العود الابدي ٠

سبينوزا : الاخلاق ٠

والاس : حياة شوبنهور ٠

فرود : توماس كارليل ، حياته ورسائله ٠

الانسكلوبيديا البريطانية ٠



اطلالة على سلامة موسى

صاحب گر

« ان المرء لا يتجاوز نفسه الا نحو غاية »

ـ سيمون دهبوفوار ـ

منذ سنة ١٩١٢ ، توجه نحو « السبرمان » ، فكان كتابه الاول ، وأثار بعد ذلك الفكرة السامية « ان الاشتراكية هي التطبيق العملي لمذهب الانسانية » .. كان يبدو أنه يريد أن يحدد منهجه في الحياة ، يتمرد ، بثورة أو احتجاج وبدون كلل ، يعني انه كان يريد غايته .. ومرق في جادة الفكر يحمل بيده نظرية التطور والتحرر من الغيبيات والركود ، نحو الصناعة والديمقراطية ..

فكان دؤوباً في كتاباته ، في دعواته ، مؤمنا بافكاره باسلوبه التلغرافي السهل وكأنه كما يقول شلر « وإذ يهز الشجرة ، يعني (١) غوته ـ تتساقط اثمارها على قدميه » .

ان الخواطر التي تحكى عنه منذ ان كان شابا يافعا ، الى ان صار شيخا ، تجاوز السبعين او كاد مكافحا لحياة افضل ، فلم تثنه الشيخوخة عن مواصلة عمله فكأنه كقول عمر فاخوري « أكثر ما رأيتني كالشيخ يعود اليه مرح الشباب بغتة ، أمنى النفس بالنعيم لانني ممسك الى صدري كتابا ، أسرع في خطاي ، كانني وحبيبتي على موعد لقاء »(٢) .

وكان كتابه وكل كتبه التي الفها مسرعا في خطاه كل الاسراع نحو الشعب الذي هو غايته التي يسير لاجلها كما يسير الحبيب لحبيبته .. اخلاصا وصدقا للموعد (٣) . ان سلامة خطا خطوات ، تم له اكتشاف افق الثقافة الجديدة باطار مرتب وفق ما يريده ، وما يتأمله ، وما يراه صالحا ، حتى كاد يكون خالقا بما اعطاه من كرم طيب وحب كبير ... منح نفسه لقرائه ، يهمه شعور القارىء بحريته . وامكان رفعه الى العالم كله واكسابه هموما بشرية عظيمة كالحرية والديمقراطية والثورة .. بقوله (والكاتب العظيم هو ذلك الذي يصدم قارئه فيوقظه ويرد اليه وجدانه ، ثم يزيد هذا الوجدان سعة وعمقا) .

كان يتوجه بكسب ثقة القراء ، يمنحهم نفسه ، عن كرم ، كما انه

ــ كما يقول سارتر ــ « متطلبا منهم ان يخرجوا عمله الادبي الى الوجود »(٤).

ولم يتملق قراءه ، لانه لا يريد ايهامهم او تغير طريقهم نحو وجهة غير صحيحة وعنده ان اللغة وسيلة التفكير ، ولا يمكن التفكير الحسن بلا لغة حسنة . أي انها احتماء من السقوط وامتداد للحواس ... ولست بعد قادرا أن استوعبه في هذه السطور القليلة او تحديد موقفه او نشاطاته ، ذلك انه كتب وترجم .. وجلي اهتمامه كانت المقالة ، في علم النفس ، والادب ، والتاريخ ، والفن ولم يكن يتقاضى عن كتبه الا القليل ، وربما كان خاسرا .. ولكن احساسه بتحمل التبعة تزيده همة ونشاطا ويكسبه علوا وشرفا .

واتجاهه هذا جعله ساعيا نحو التغير وارواء الذهن وتبديد الظلام باشعاعات فكرية ينقلها من بطون الكتب أو خاطرات استوحاها لحاجة المجتمع .. فهو ليس من « الكتاب الذين يقولون ان كل شيء على مايرام ويتقبلون مجتمعهم بلا انتقاد » (٥) .

وكان يمكنه الاحتفاظ بضميره خالصا من كل تأنيب وشقاء ، ساكتا في هدوء واستقرار .. عابرا هذا الصراع وذلك الاذى ، لكن احساسه كان أكبر ووجدانه أوسع وتفكيره محمول على اراده ، فتخرج كلمته ساخرة بعرش فاروق ، مؤنبة اعمال الادباء في مصر على استساغتهم المدح وانتقاء الكلمات ذات الجرس والسجع وسيان المعنى والهدف .. وما يحمله بين جوانبه من قدح وذم له ووصمه بالانحلالية والشعوبية(٦) مرة والمراحيضية(٧) والجمود مرة اخرى .

على ان ذلك لم يحمله ــ هذا الطعن والذم ــ أن يتراجع ، كافــرا بالشعب أو برسالة الكاتب ، الذي لا يواكب عمليته الكشفية ..

فهو اديب ، ذلك أنه كتب بحرية ، وتحمل مسؤوليتها من سجن أو مقاطعة ومنع ، يصاحبه شعور بنفسه انه يتجاوز الواقع بغية تغيره . وكل ما كتب اظهارا وتوعية عامة للحاجة الفكرية التي يشتاقهــا القارىء العربي باسلوب التاليف والترجمة والتنظيم ، فانه بهذا كان محفزا مرهفا ، مقدما للجمهور ، ما يراه مناسبا ، في الفنون والتاريخ وعلم النفس والادب ، في حدود تجربته الفكرية والانسانية للقضاء على ما يمكن القضاء عليه وتثبيت الحقائق الشاملة في ارساء مجد الانسان واخذه الحرية والعمل .

وانه يعتبر من الجيل الاول من أدباء العرب في نشاطاته الفكرية سواء العلمية ام الادبية ومن بين هذا الجيل طه حسين والعقاد ، وتوفيق الحكيم ، وفرح انطون ، وشبلي شميل ، وعمر فاخوري ، ومارون عبود وغيرهم .. والنتيجة فانه لم يكن على صواب في كل ما كتب .. فالشطط والصواب على طريق كل انسان يعمل (فمن لا يعمل لا يخطىء) وكذلك العكس ..

ولو كانت اعماله الادبية قصصا أو روايات ، لاعطت ايقاعا نفسيا لطيفا ووجودا أكثر ازدهارا .. ولكن حتى قصصه القليلة لم تكن بالدرجة

الفنية ان تقف على ما يسمى الفن القصص او الروائي فهي مقالة اكثر منها قصة (٨) ..

فلو الف بنفس الطريقة التي كتب بها عمر فاخوري ومارون عبود مثلا .. لكانت البهجة والسرور اعظم في نفس القارىء .. ولكن للكاتب اسلوبه الخاص . والكاتب يعمل للجميع ، فهو الضمير والصرخة وبدون تمييز بين « أسود وابيض » وهذا واضح في مقدمة السبرمان تأييده سيادة الابيض على الزنجي(٩) .. غير أنه يتنكر لهذه الفكرة بعد ذلك ، فهو شعور مهذب وصقيل فيستنكر هذه السياسة ويصمها بالجور والظلم (١٠) ..

ومأخذ آخر ، ذمه لصلاح الدين الايوبي ، ذما منكرا بسبب قتل السهروردي .. بانه كردي الاصل غلب طبعه تطبعه(١١) .. غير أنه يعود فيذكر صلاح الدين بأنه « نبأ في تاريخ الشرف العربي .. ومازلنا نستعيد ذكرياتنا عن حروبه فنحس الفخر والعزة والشرف » (١٢) ..

ودعوته الى العالمية كانت تفوق دعوته الى الوحدة التي جاءت متأخرة .. كما ان شعوره بمصريته قبل عربيته ، وكونه فرعونيا ، أكثر من شعوره بقبطيته .. فكان في ضميره يكتب لمصر ، وهذه هي رسالة الكاتب يبدأ من الداخل ، حيث يعي متطلبات بلده ، ولكن البلاد العربية تختلف حيث ان اللغة واحدة .. « والجهل والفقر والمرض » (١٣) وبالى الامة الاعظم ، .. مع هذا ان القارىء كان يحس بحرية الكاتب فيعي الحيف الذي وقع فيه والظلم الذي يعانيه .

عملاق سلامة ، لو فتش ما عانته البلاد العربية من ويلات الاستعمار ، وخصوصا العراق فلم يأت عليه بما فيه التجاوز على المظالم بقصد القضاء عليها . ، ولم يذكر ثورة العشرين التي هزت الاستعمار البريطاني في مؤلفه (كتاب الثورات) .. ولم يستنكر سياسة التنكيل في العراق وخصوصا بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ ، وأيام الانتفاضة البغدادية .. كما فعل زميل له (١٤) . انني لا انكر فضل سلامة ولا اتهمه ان ذلك اجحاد لفاتح النوافذ للنور ، لذلك الذي يقول « ان مؤلفاتي وافكاري ومنهجي وكفاحي .. كل هذا لن يموت بعد موتي .. اذ هو سيبقى ويؤثر ويوجه ، ويفتح النوافذ للنور ، وانا بذلك اتجاوز حياتي واحيا بعد موتي »(١٥) .

ولكن ذلك كشف نستدرجه عنه .. فما فعله الشعب العراقي لاجل شعب مصر في اثناء الاعتداء الثلاثي ١٩٥٦ كان كبيرا وعارما بالرغم من الحكم الاسود .. ولذا كان لابد لمفكر اشتراكي مثله أن يعرف عراقنا في ذلك الوقت كان بحاجته وحاجة كل الخيرين ..

يؤلمني ان اوجه هذا الكلام الى سيرة كاتب فذ وثائر حازم .. هذا الذي وجهني وعلمني ، كما علم الكثرة من الجماهير ، لما يمتاز به من صلابة الموقف وثبوت الحجة ، فكنت من الاوائل الذين كتبوا عنه في العراق (١٦)

ولما لم يكن بمعزل عن الجماهير يفاجئها ويوقظها بافكار كانت

تجهلها فتعي وتتقبل هذا التلقيح والاخصاب .. أي انه كان يتوجـه الى القارىء من الداخل .

هذه أحد الاسباب التي جعلت القراء يقبلون عليه بنفس الطيبة التي يتوجه بها الى القراء .. في حين أن بعض الكتاب الذين ناوأوه ، والذين كانوا يعنون بالمحافظة على النظام أو الذين يمكن تسميتهم « الصفوة مـن الطفيليين »(١٧) اثنوا على فاروق فمنهم من قال عنه « صاحب مصر » وغيره وصفه بالفيلسوف ، غير انه كان يعمل لشل حركة ذلك النظام الملكي واحداث تغييرات عميقة ، واعطاء تفسيرات وتأويلات (١٨) ، القصد منها ابراز الشيء واعطاؤه كليته لاظهار معالم الانسان وقوته .. ومع أن نجاحهم حكومي ، كان نجاحه يعني انه ملتزم وبوصفه انسانا . كانت ولادته في قرية من ضواحي مدينة الزقازيق في ٤ يناير ١٨٨٧(١٩) وهو اصغر اخوته .. وكان ابوه مسيحيا ارتودكسيا ، ولم تكن لديه شهادة عالية ، بل انه كان راهبا للفكر وعابدا للثقافة(٢٠) . تعلم الانكليـــزية وســـافر الى باريس وتعلم الفرنسية هناك وحدد بعد ذلك منهجه وغايته في الحياة بهذا القرار « ليس لي مأرب في هذه الدنيا فلست ابالي أن أكون ثريا . بل لست ابالي ايضا ان تكون لي زوجة واطفال . وانما قصدي ان افهم .. ان اعرف كل شيء وآكل المعرفة أكلا » (٢١) .

وتهيأ له ان يذكر الذين علموه او الذين أثروا في حياته فكتب عنهم كما كتب عن الشعب بنفس الكرم والطيبة الذاتية التي يعطيها او يأخذها امثال : دستويفسكي ، ونيتشه وجوركي ، وماركس ، وولز وبرناردشو(٢٢) وغيرهم في كتابه « هؤلاء علموني » فسرت مؤلفاته في الجسم الاجتماعي كما يقول « على مهل وفي غير عنف فيأخذالتطور مكان الجمودوالنزعة الارتفاعية مكان الرجعية الجامدة .. » .

وغاب في آب ١٩٥٨ مخلفا وراءه هذه الرؤى العبقة والانوار الكاشفة ، وحبه وولاءه(٢٣) والتغني بقول الشاعر :

ادين بدين الحب انى توجهت ركائبه فالحب ديني وايماني

وكان ان حقق رسالة واثبت جداره ورأى الحلم الذي كان ينشده .. الاشتراكية والصناعة وحرية المرأة .. ونتأمل أعماله بفخر واعتزاز ونحن مدينون له بهذه الجرأة الذهنية .

---

(١) واعني به سلامة (من كتاب الباب المرصود لعمر فاخوري) .

(٢) من نفس المصدر .

(٣) ان عناوين بعض كتبه تؤكد تمسكه بالشعب مثل طريق المجد للشباب ، الادب للشعب ...

(٤) كتاب ما الادب ـ جان بول سارتر ـ ص٦٤ .

(٥) عن مجلة الفكر المعاصر العدد الثامن اكتوبر ١٩٦٥ .

(٦) لانه قال ان الادب القديم كان ملوكيا ويكره الثورة بل لا يعرفها « كتاب الادب للشعب ص٦١ » .

(٧) ذلك انه دعا الى سن قانون لايجاد مراحيض في منازل الفلاحين فعده كاتب راسمالي بقوله « سلامه موسى المراحيضي » نفس المصدر ص١٧٢ .

(٨) ظهرت له مجموعة قصصية باسم « افتحوا لها الابواب » .

(٩) كتاب سلامة موسى « المفكر والانسان » لمحمود الشرقاوي ص١٠٥ .

(١٠) مجلة القصة ـ دار الانباء ـ (١٩٥٠) ـ وبسبب ضياع الغلاف أو تمزقه تعذر علينا أن نذكر العدد .

(١١) كتاب حرية الفكر وابطالها في التاريخ لسلامة موسى ـ الطبعة الاولى .

(١٢) كتاب مقالات ممنوعة ـ للمؤلف أيضا ـ فصل « صلاح الدين ومقامه في التاريخ » .

(١٣) هذه العبارة وضعها سلامة في مجلته الشؤون الاجتماعية فسارت مثلا بين الكتاب « الادب للشعب » ص ١٧٣ .

(١٤) هو الكاتب عبدالرحمن الخميسي .. وقد بعث استنكارا الى الحكومة الملكية العراقية آنذاك .. محذرا فيها مغبة استنشارها بالسلطة بغية الايقاع بالشعب العراقي .

(١٥) من كتاب هؤلاء علموني .

(١٦) كان ذلك في جريدة البلاد البغدادية ومجلة التقدم آب ، وأيلول ١٩٥٨ .

(١٧) اسم اطلقه جان بول سارتر على الكتاب الذين خانوا رسالتهم بانتمائهم الى الطبقات العليا من ذوي الامتيازات « كتاب ما الادب ص١٠٧ » .

(١٨) ظهرت له مؤلفات بهذا المعنى تعي الجماهير بذات انفسهم منها : محاولات سايكلوجية ، دراسات سايكلوجية ، المرأة ليست لعبة الرجل ...

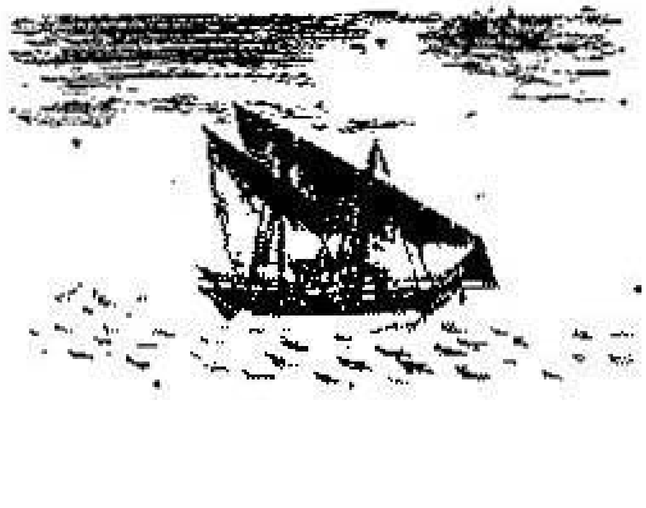
(١٩) عن كتاب تربية سلامة موسى ـ للمؤلف ـ .

(٢٠) اسم اطلقه عليه قبلي الاستاذ محمود الشرقاوي مؤلف كتاب سلامة موسى المفكر والانسان .

(٢١) سلامة موسى المفكر والانسان لمحمود الشرقاوي ص ٣٤ .

(٢٢) الف كتابا عن هذا الكاتب والفيلسوف وسماه « برناردشو » .

(٢٣) ذلك انه قال « الولاء للبشر مذهب الاديب » ، وقال أيضا « ان الاديب يخون عصره اذا لم يكن سياسيا » .



الذكريات والطفولة

أنور خليل

بي حنين الى ربيع الطفولة   والعشيات بالندى مطلولة
حيث كحلاؤنا تفيض وفاء   وعطاء على الربوع الجميلة
في ضفاف مخضوضرات لطاف   يتمنى الشجي فيها مقيله
لكأني استروح اليوم عطرا   من شذى الامس ماشممت مثيله
... عبر ماض أعيشه بخيالي   فاذا الروح بلبل في خميلة
أنتشي بالعبير بالحلم الندا   في، من راحل بكيت رحيله
رب ماض أود لو أفتديه   بحياتي، بأمنياتي القليلة

* * *

آه من قسوة الخريف وسهدي   وزهوري ممزقات قتيلة
آه من وحشة المساء وتجسم   بت أحدو الى المغيب أفوله
كيف أمست عذوبة العمر ذكرى   في ليال منغصات ثقيلة
ورياح الخريف عاثت بصفوي   كدرته وآثرت تحويله
ما لعيني تحجر الدمع فيها   ودموع الشجي تشفي غليله
السراب .. السراب آخر شوطي   وطموحي لقد شهدت ذبوله
صرت أقتات من فتات أمان   وأغني للذكريات الضئيلة
أنا ان بدد الضياع شبابي   ورماني على طريق الكهوله
فعلى مقولي يرفرف لحن   وعزيز علي أن لا أقوله

●

مطبخ المحافظ

بقلم
رونالد گاو

ترجمة
عبد الواحد محمد

المنظر

مطبخ في قلعة محافظ الامن في نوتنكهام • في الوسط خوان طويل عليه عدد كبير من الصحون • وفي الجدار الخلفي المواجه لنا الى يسار الوسط يمتد ممر حجري يعلوه سقف مقوس • والى يمين الوسط من نفس الجدار ترتقي بضع درجات لتؤدي الى باب زنزانة • ومن الجدار الايمن يلمع سنى نار متأججة ، حيث وضع بالقرب منها وعلى حافة الموقد بعض الاواني التي يتطاير منها البخار • الطباخ يحمل الاواني من الموقد ليصفها على الخوان • رئيس الخدم يدخل من الباب حاملا فانوسا ، ليضعه على الخوان • انه يشعر بالبرد ، لانه ينفخ على يديه ويهز ذراعيه •

الطباخ ــ ألم يعد السيد بعد ؟

رئيس الخدم ــ كلا • ليس هناك شيء يدل على عودته •

الطباخ ــ حسنا • بوسعك أن تبلغه نيابة عني اذا ما عاد ، انه اذا لم يطق المحافظة على مواعيد الطعام المضبوطة ، فعليه أن يجد لنفسه طباخا جديدا •

رئيس الخدم ــ لم لا تخبره أنت بنفسك ؟

الطباخ ــ لانه واجبك أنت أن تنقل القيل والقال وكل ثرثرات هذا المبنى •

رئيس الخدم ــ تلك اكذوبة • فأنا لا اخبره قطعا بأي شيء سوى ما أعتقد انه مناسب لي جدا أن أخبره به باعتباري رئيس خدمه •

الطباخ ــ اذاً من الذي سيخبره بأن عشاءه قد تلف ؟

رئيس الخدم ــ ماذا ؟

الطباخ ــ أي شيء آخر تتوقع ؟ لقد مرت ثلاث ساعات على موعد العشاء •

فالفطائر قد جفت تماما ، ولحم الغزال صار كالفحمة ، ثم انظر الى هاتيك الخضر ٠

رئيس الخدم ــ انها تفوح طيبا ٠٠٠ على أية حال ٠

الطباخ ــ احذر أن تمد أصابعك الى تلك الفطائر ٠ انك ستتناول عشاءك بعد أوبة السيد وليس قبل ذلك ولو بدقيقة واحدة ٠

رئيس الخدم ــ ما أبدع هذا الكلام ٠ أما أنت فقد تناولت عشاءك ٠

الطباخ ــ انني احافظ على المواعيد ٠ ان معدتي لا تتحمل مواعيد الطعام في هذه القلعة ٠

رئيس الخدم ــ كذلك معدتي ٠ ثم انني أكاد أن أجمد من شدة البرد ٠

الطباخ ــ هيا اذهب الى الغابة وابلغ المحافظ بأن العشاء جاهز ٠

رئيس الخدم ــ لا ، لن أجرؤ ٠

الطباخ ــ ما الفائدة من رئيس الخدم اذاً ، ان لم يجعل سيده متقيدا بالمواعيد؟

رئيس الخدم ــ ألا يمكنك الاستغناء عن كسرة من تلك الفطيرة المحمصة ؟

الطباخ ــ لا ٠

رئيس الخدم ــ كسرة صغيرة جدا ٠

الطباخ ــ لا ٠ هيا اخرج من مطبخي ٠

رئيس الخدم ــ ماذا ؟ تذكر مع من تتحدث ٠٠ يا سيدنا ٠

الطباخ ــ نعم يا سيدنا ٠ انني أتذكر يا سيدنا ٠ وهل بوسعي أن أنساك يا ذا السيقان العصفورية ٠ يا جرذ المقابر

رئيس الخدم ــ أما أنت فاناء فارغ ٠٠ يا ٠٠ يا ٠٠ فرشة القناني ٠ تذكر جيدا انني رئيس خدم سيادة محافظ أمن نوتنكهام ٠

الطباخ ــ أما أنت فتذكر جيدا انني طباخ سيادة محافظ أمن نوتنكهام ٠

رئيس الخدم ــ سأجعل جلدك يسلخ منك وأنت حي ٠

الطباخ ــ أما أنت فستنزع عنك عظامك أولا كالسمكة ٠ ألا قل لي ما الذي تجيده غير التسكع في أرجاء القلعة حاملا هذه الحزمة من المفاتيح ، وكلك خيلاء ٠ وكل ما تقوله للسيد : نعم يا سيادة المحافظ أو كلا يا سيادة المحافظ ٠ انك قدر عتيق ٠

رئيس الخدم ــ تبا لك من قذر يستحق الشنق ٠ انني لن أمس طعامك ٠ وهل تسمي نفسك طباخا ؟ وكيف ؟ ان أكلاتك ليست بأحسن من أكلة الخنزير ٠

الطباخ ــ (ماسكا بالشيش) سأشبعك ضربا بسبب هذا الكلام ٠

(يطارد رئيس الخدم)

رئيس الخدم ــ قف ٠ بحق السماء قف ٠ فالسيد سيسمع بهذا ٠

(يحاول رئيس الخدم أن يهرب من الباب الا انه يسقط بين ذراعي رسول ظهر توا) ٠

الرسول ـ هو و ٠٠٠٠ يا سـادة ٠ سأخبركم بما أحمل من انبـاء حال انتهائكم من هذه اللعبة ٠
رئيس الخدم ـ ماذا ٠٠٠ ماذا ٠٠٠ يا سيدنا ؟
الرسول ـ انني أحمل رسالة من المحافظ ٠
رئيس الخدم ـ حسنا ٠٠٠ قل ٠
الرسول ـ ان سيادته في ضيافة القس ٠ لقد تركته يأكل ويشرب هناك ٠
الطباخ ـ (ملقيا بالشيبك) هكذا اذا ٠ ان كل جهدي ضاع هباء ٠
الرسول ـ لم تعد هناك حاجة لعشائك ٠ فقد أكل المحافظ ما فيه الكفاية لسنة واحدة ٠ ان القس أقام وليمة فاخرة ٠
الطباخ ـ ولم لا يأكل السيد عشاءه الخاص ؟
الرسول ـ لقد باغت الظلام السيد ورجاله وهم يتصيدون في الغابة ٠ لهذا فرحوا كثيرا بكرم القس ٠
رئيس الخدم ـ اتركنا الان ٠ (يخرج الرسول) أيها السيد ٠ أيها الطباخ الطيب ٠ ربما كنت متسرعا في كلامي ٠ أنا لم أحك ما حكيت الا من أجل النكتة ٠
الطباخ ـ أما ما حكيته أنا فلا شيء سوى الحقيقة ٠
رئيس الخدم ـ ان هذا العشاء بحاجة الى من يأكله الان ٠
الطباخ ـ اوهو ٠ وهل ستأكل ما أسميته بطعام الخنزير ؟
رئيس الخدم ـ آه ٠ أنا لم أقصد شيئا من ذلك ٠ لقد كان كلامي بسبب الغضب ٠ لا يمكن تحميل الانسان الغاضب أي وزر ٠
الطباخ ـ ليس لرجل يصف طبخي بهذا الوصف أن يأكل منه ٠
رئيس الخدم ـ غير انني جوعان ٠ فقد انتظرت عودة المحافظ لساعات ٠
(يتناول رئيس الخدم مفصلا مغطى باللحم ٠)
الطباخ ـ لا ٠ عليك أن تعلم أي شيء تعني اهانة الطباخ ٠ ضعه في مكانه ٠
رئيس الخدم ـ لكن ٠٠٠
الطباخ ـ أقول لك ٠٠٠ ضعه في مكانه ٠ (يلتقط الطباخ الشيبك)
رئيس الخدم ـ آه ياصديقي ٠ أحسب اني عثرت على المفتاح الخاص بقلبك ٠
(يمسك رئيس الخدم بأحد المفاتيح المتدلية من حزمة معلقة على جنبه) اتعرف هذا المفتاح ؟
الطباخ ـ كلا ٠ لا أعرفه ٠
رئيس الخدم ـ آه ٠٠ نعم ٠ انك تعرف ٠ انه مفتاح سرداب الخمر ٠
الطباخ ـ حسنا ٠٠ وماذا يعني ذلك ؟
رئيس الخدم ـ الان ٠٠٠ اذا كان لديك ابريقان كبيران ٠٠ ربما ٠٠ انتبه لي ٠٠ انني أقول ربما كان يوجد بعض الخمر في السرداب ٠
الطباخ ـ (متلمضا بشفتيه) سأحضر الابريقين ٠ (يمسك بابريقين)

رئيس الخدم ــ تذكر اننا أصدقاء

الطباخ ــ ربما ·

رئيس الخدم ــ انك ستعطيني عشائي ·

الطباخ ــ انتبه لي ·· انني أقول ·· ربما ·

الطباخ ــ هيا الحقني ·

(يخرجان سوية من الخلف · ولانهما أخذا الفانوس معهما لم يبق ما يضيء المكان الا سنى النار المشتعلة · وبعد فترة قصيرة يلاحظ شكل رجل آخر وهو يظهر بحذر من فتحة الممر · انه رجل طويل يرتدي ملابس خضراً · يعطي اشارة الى رجل يمشي أثره ·)

لتل جون ــ (بهمس) هلم · هذا هو الطريق ·

(يبدو فريرتك)

فريرتك ــ (مستنشقا) أشم رائحة طعام

لتل جون ــ من أجل هذا جئنا · اش · بلا صخب ·

(يزحفان الى أمام على الايدي والركب · لتل جون يدور حول أحد طرفي المائدة وفريرتك حول الطرف الآخر · وعندما يتقابلان وجهـا لوجه يجفل لتل جون ويمسك بفريرتك ·)

لتل جون ــ من هذا ؟

فريرتك ــ اسكت · أنا فريرتك ·

لتل جون ــ يا للقديسين · انك أجفلتني · كنت أظنك ورائي ·

فريرتك ــ (بهمس مبحوح ، بعد القاء نظرة على سطح المائدة ·) لتل جون·

لتل جون ــ ماذا ؟

فريرتك ــ هناك طعام على المائدة ·

لتل جون ــ نعم · نعم ــ ان هذا هو مطبخ المحافظ ·

فريرتك ــ وأخيرا ·· سأنال وجبة دسمة ·

لتل جون ــ على مهلك ·· أيها الحمار الغبي ·

فريرتك ــ أوه يا لتل جون · انني أتضـور جوعا · ان روحي لتصـرخ من أجل شيء آكله · منذ ثلاث أسابيع ونحن في الغابة والارض تكسوهـا الثلوج · وما من شيء نأكله سوى خبز الشعير والعظام المشـوية · انني سأموت اذا لم أنل قسطا من الطعام ·

لتل جون ــ ألست أنا جوعان مثلك ؟ انني أخشى ان نحن واصلنا الصخب ، ان نلقى حتفنا · (يئن فريرتك ·) الا افرح يا فريرتك · · فما زال هناك شحم فوق عظامك يكفي لتغذيتك فترة أخرى · انتظر حتى يذهب الجميع الى الفراش ·

فريرتك ــ انني أشـم رائحة لحم الغزال · انه ناعـم ومنقوع بالمرق الدسم الثخين ·

لتل جون ــ صه . ألا ترى ذلك الباب فوق هذه الدرجات ؟

فريرتك ــ أجل .

لتل جون ــ هناك يحبس المحافظ السجناء .

فريرتك ــ لماذا يحبسهم هناك ؟

لتل جون ــ حتى يموتوا من شدة الجوع ، حيث تداعب مناخيرهم روائح الطعام الشهية الهابة من المطبخ . (يئن فريرتك .) لا تصخب هكذا .

فريرتك ــ غير انني أكاد أموت جوعاً لاسيما وان هناك فطيرة فوق رأسي .

لتل جون ــ أين ؟

فريرتك ــ هنا .

(يسحب صحن الفطيرة فوق رأسه . وفي تلك اللحظة بالذات تسمع أصوات الطباخ ورئيس الخدم .)

لتل جون ــ أيها الوحش السمين . أرجع الفطيرة .

فريرتك ــ لكنها فطيرة جميلة .

لتل جون ــ أرجعها .

(يفعل فريرتك كما يطلب منه في الوقت المناسب . ثم يجلس القرفصاء تحت المائدة مع لتل جون . يعود الطباخ ورئيس الخدم دراعاً بذراع كأي صديقين وهما ينشدان مقطوعة غنائية .)

الطباخ ــ (مشيراً الى المائدة) هيا تفضل أيها الصديق القديم .

رئيس الخدم ــ اها ... هذا سيساعد على شرب الخمر .

الطباخ ــ بم ستبدأ ؟ بلحم الغزال أم بالفطيرة ؟

رئيس الخدم ــ ان شريحة من لحم الغزال ستكون جد كافية .. بادىء الامر .

الطباخ ــ يوجد لحم طير محمر .. ولحم بقر .. وبيض .. وكل الاصناف الشهية .

(يتزحزح فريرتك من مكانه فيمسك به لتل جون .) لكن ... انظر .. ان الجرذان قد مست الفطيرة .

رئيس الخدم ــ لا . لن يبقى للجرذان شيء ، عندما أنتهي . آه .. يا لك من طباخ رائع .

الطباخ ــ (يسكب بعض الخمر) بصحتك أيها السيد الطيب ... يا رئيس الخدم .

رئيس الخدم ــ شكراً لك يا صديقي الطباخ . عشت ... يا من تبث الفرحة في قلوب الرجال .

(انه على وشك ان يكرع الكأس حين يظهر رسول آخر .)

الرسول ـ هو ... انت الذي هناك • ان السيد المحافظ قادم الى القلعة •

رئيس الخدم ـ ماذا هناك ؟

الرسول ـ المحافظ عائد • عندي لكما انباء عظيمة •

رئيس الخدم ـ تكلم أيها الرجل • أي أنباء لديك ؟

الرسول ـ لقد قبض على روبن هود •

رئيس الخدم ـ مستحيل •

الرسول ـ لقد أسروا روبن هود في الغابة ، وها هم يعودون به الى نوتنكهام •

الطباخ ـ حسنا • أهم واثقون من ذلك هذه المرة ؟

الرسول ـ واثقون كثقتي بالوقوف أمامكم • انهم يسيرون فوق الجسر الآن •

الطباخ ـ معنى هذا ان روبن هود سيشنق •

رئيس الخدم ـ باه ... معنى هذا انني سأحرم من عشائي • يا له من رجل • كان يتعشى أولا في بيت القس • والآن ... انه يعود للبيت •

(يسمع صوت هتاف)

الطباخ ـ ها هم قادمون • يجب ان أرى ذلك • (يخرج راكضا)

الرسول ـ لقد أمرني المحافظ ان أخبرك باعداد الزنزانة •

رئيس الخدم ـ أوه ... أجل • أي مزيد من الازعاج • سنحبسه هنا • (يرتقي رئيس الخدم درجات السلم ويفتح قفل الباب) ذلك هو القفص للسيد روبن •

ليس فيه أية نافذة حتى لاصغر طير •

(الهتاف يتعالى)

الرسول ـ ان هذا سيفرح المحافظ •

رئيس الخدم ـ أجل • من الراجح ان السيد يتمتع بمزاج رائق الآن • هيا بنا نستقبل سيادته • (يخرجان)

لتل جون ـ أسمعت ذلك ؟ انهم يقولون بأنهم أسروه •

فريرتك ـ (تصطك أسنانه) ما .. ما .. ماذا سنفعل الآن ؟

لتل جون ـ حافظ على السكينة • يجب ان تفكر •

فريرتك ـ لكنني لا استطيع التفكير • ان ساقي تخاذلا •

(تسكتهما اصوات الصراخ • يدخل المحافظ متباهيا ، يتبعه رجال مسلحون ، وهم يحرسون روبن هود الذي ربطت يداه الى قفاه) •

المحافظ ـ اجلبوا ذلك الشرير هنا • (يدفع روبن هود بخشونة الى امام •) وهكذا ..

يا سيد هود ... أخيرا سنضع حدا لحياتك •

روبن ـ (ناظرا حوله) أظن ان عددكم هذا كاف لأداء المهمة ·

المحافظ ـ احبس لسانك بسير كلب ·· أيها الوقح القذر · والا ·· بحق السماء ·· سأقطعه ·

روبن ـ انك دائما تتمتع بروح النكتة أيها السيد المحافظ ·

المحافظ ـ هل تدري انني سأشنقك هذه المرة ؟

روبن ـ طالما وعدت بمثل هذا ·

المحافظ ـ أما هذه فسأنفذ الوعد ـ فكم عانيت من وقاحتك أيها الصديق الخارج على القانون غير ان الجولة الاخيرة ستكون في جانبي · وغدا فجرا ·· ستظل ترفس كعبي قدميك ببعضهما على حبل المشنقة ·

روبن ـ (ضاحكا) أيها المحافظ · انك تنسى ان هناك مئات غيري في غابة شروود ممن هم على شاكلتي · انك لن تنعم بالسلام ما لم تشنقهم جميعا ·

المحافظ ـ بحق كل القديسين ، سأشنقهم جميعا قبل موتي ·

روبن ـ اذا ستحتاج الى عمر مديد وذكاء حاد ·

المحافظ ـ يا رئيس الخدم ·

رئيس الخدم (متقدما) نعم يا سيادة المحافظ ·

المحافظ ـ انه سيشنق غدا فجرا ·

رئيس الخدم ـ حسنا يا سيادة المحافظ ·

المحافظ ـ هيا اذع أخبار القبض عليه في كل شارع · واخبر الناس الطيبين بأنني أنا سيادة محافظ نوتنكهام ، قد قبضت على الشرير روبن هود ·

رئيس الخدم ـ سألبي كل ما تأمر به يا سيدي ·

المحافظ ـ (متبجحا) آه ··· يا سيد روبن · ستكون نهايتك نادرة من نوعها · فسترفرف الاعلام فوق قمة القلعة ، وسيحيي نافخو الابواق الشمس المشرقة · كما ستصدح موسيقى جميلة · ها ··؟ انك ستموت ميتة ساحرة ·

روبن ـ في الواقع انني لم أمت ميتة كهذه قط من قبل ·

المحافظ ـ باه ··· هذا ما يليق بك ·

روبن هود ـ أيها المحافظ · لطالما سليتني دائما ، وستزيدني امتنانا لترحابك بي ·

(ترتسم على وجوه الرجال المدججين بالسلاح معالم التسلية)

المحافظ ـ اخرسوا · يا رئيس الخدم · احبسه في تلك الزنزانة · أما اذا هرب ·· فبحق كل شيء مقدس ، سيكون مصيرك الشنق مكانه ·

رئيس الخدم ـ حسنا يا سيادة المحافظ ·

(يقتاد رئيس الخدم روبن فوق الدرجات ، ثم يحبسه في الزنزانة • بعدئذ يقفل الباب)

المحافظ ــ يا رئيس الحرس • لتكن الحراسة مضاعفة هذه الليلة • وليحرس أحد الرجال في هذا الممر ــ أما الباقون •• فهيا الى اسرتكم • لكن اعلموا ان عليكم الحضور أنيقين غدا فجرا • ان ما نريده منكم هو أن تستعرضوا الجماهير بجرأة •

(يحييه الرجال المسلحون ثم يغادرون • يبقى أحد الحرس في الممر •)

المحافظ ــ (الى رئيس الخدم) عليك بالمجيء الي مبكرا •

رئيس الخدم ــ أجل يا سيادة المحافظ •

المحافظ ــ لكن حذار ان تسيء التصرف في هذه المسألة • فيوم غد سيكون اعظم يوم افتخر به في حياتي • لقد أهانني روبن هود زمنا طويلا هيا اذهب ومر النجارين بنصب المشنقة •

(يخرج رئيس الخدم • يقف المحافظ لحظة واحدة محدقا في الزنزانة ثم يقهقه قهقهة خفيفة ويستدير مغادرا • وحينما يمر من فتحة السقف المقوس يؤدي الحارس له التحية بسلاحه ــ وهو عبارة عن سلاح قديم أحد طرفيه يشبه الفأس أما الطرف الآخر فحاد الذؤابة ــ وبعد ذهاب المحافظ ، يلقي الحارس نظرة سريعة الى باطن المطبخ ، ثم يغيب في الممر •)

فريرتك ــ لقد قبض عليه في هذه المرة • وانني لاخشى ان تحين منية روبن •

لتل جون ــ لا لن تحين ، ما دام هناك نفس يتردد في صدري •

فريرتك ــ ما الذى تستطيع ان تفعل ؟

لتل جون ــ اش • الحارس •

(يمر الحارس)

لتل جون ــ اصغ لي يا فريرتك • لا اريد منك الا المحافظة على السكينة حتى يحين الوقت المناسب •

فريرتك ــ اى وقت ؟

لتل جون ــ لا تسأل ، ولا تبدى دهشة مهما وقع من شيء •

فريرتك ــ لكنك لن تستطيع الخروج من هنا • انهم يحرسون الباب •

(يمر الحارس • وعندما يغيب عن البصر ، يخرج لتل جون من تحت المائدة) •

لتل جون ــ افعل ما اطلب اليك • اترك هذه الفطيرة •

(يتجه لتل جون نحو المدخل ، محاولا البقاء بعيدا عن النظر الى ان يمر الحارس ثانية • يسترق الخطو بخفة وراء الحارس • يبدو القلق على

فريرتك ، فيتلمس الفطيرة بيده ، غير انه ما يوشك ان يفعل ذلك ، حتى يفاجأ بدخول رئيس الخدم عن طريق المدخل الواقع فى الاتجاه الاخر ، غير الذى سلكه الحارس ولتل جون • ثم يجلس رئيس الخدم ، مستمتعا بعشاء ، وقد بدت على وجهه علامات مختلفة من الدهشة والرضى • بعدئذ يظهر حارس فى المدخل • انه بلا ريب ، لتل جون الذى لبس قبعة الحارس الفولاذية وسترته الجلدية • كما حمل سلاحه) •

لتل جون ـ مرحى •• •• ايها السيد رئيس الخدم • اتمنى لك اكلا شهيا •

(يتمتم رئيس الخدم وقد ملأ فاه طعاما ؟ • احسب ان لا بأس بما فعلت • اقصد ان لا بأس من القيام بحراسة السجين من هنا • فهذا المكان افضل من الممر •

رئيس الخدم ـ حذار من ان يكتشفك المحافظ متلبسا بهذه المخالفة •

لتل جون ـ اوه • انه نائم • لابد انه يحلم باقبال الصباح • الا قل لى :اليست هذه قطعة لذيذة من اللحم ؟

رئيس الخدم ـ اسمع ـ لقد غلى المحافظ احد حرسه بالزيت مرة ، لانه ترك موقع حراسته •

لتل جون ـ (اقتعد كرسيا فى الطرف المقابل لرئيس الخدم) • حسنا •• هذا نخب صحتك •• ايها السيد الطيب •

رئيس الخدم ـ (بعد الشرب) • انا لا اتذكر وجهك •

لتل جون ـ اننى لم آت الى حرس المحافظ الا قبل ثلاثة ايام •

رئيس الخدم ـ (متلمظا بشفتيه) بوسعي أن آكل ثورا •

لتل جون ـ حسنا ـ انك تتكلم كرجل ذي بأس عظيم • ان الذى يدرك حقيقة الشهية العظيمة ، هو الذى يملك قلب ضرغام • هو ذا لحم غزالك • وهذا مزيد من خمرك • يا لله •• انه خمر ملكى • انظر اليه كيف يسطع فى القدح •

رئيس الخدم ـ اجل • انه اجود خمر يمكن العثور عليه فى طول انكلترا وعرضها • املء لى قدحا آخر •

لتل جون ـ يا لها من فكرة جريئة • مزيدا من الخمر لرئيس الخدم • فهذا وقت الشراب واللذة •

رئيس الخدم : أجل هذا وقت الشراب واللذة •

لتل جون ـ صدقنى اننى لم اذق لحما كهذا ابدا • يا لرقته وطراوته • يكاد ان يذوب على طرف اللسان •

(يتناول لتل جون عظما فينظفه من اللحم باسنانه) •

رئيس الخدم ـ ناولنى فطيرة اللحم تلك •

(يفعل لتل جون ذلك • فريرتك يعطي للتل جون بعض الاشارات

روبن ـ فريرتك • ستنفذ احكام الاعدام بثلاثة غدا صباحا ان لم تغادر بسرعة •

فريرتك ـ (يأكل) ليشنقوني • فأنا جوعان •

لتل جون ـ اخرس ايها المخبول • انك ستوقظ الحرس •

فريرتك ـ ان الجوعان لا يأبه بالحرس • دعوني آخذ هذه الفطيرة ، ولو ادى ذلك الى شنقي غدا •

لتل جون ـ (من الباب)هيا اختبئوا فالمحافظ قادم •

(روبن وفريرتك يهرعان الى الاختفاء وراء المائدة • يتناول لتل جون سلاحه ويقف كالحارس على الباب • يدخل المحافظ بثوب النوم وطاقية على رأسه • يحييه لتل جون عندما يمرق من أمامه ، لكنه سرعان ما يمسك به من الخلف ، بينما يستل روبن هود سكينا يدنيها من بلعومه) •

روبن ـ اذا نبست بحرف واحد فالموت مصيرك •

(يجبرونه على الجلوس على أحد المقاعد) • ألا ترى أيها السيد المحافظ نتيجة زهوك ؟

لتل جون ـ دعني اقضي عليه يا روبن •

روبن ـ ماذا ؟ اتريد قتل اظرف الرجال في العالم ؟ ماذا سيبقى لنا من الاشياء التي نضحك عليها من بعده ؟

لتل جون ـ لكنه اراد شنقك •

روبن ـ كان ذلك من اروع نكاته •

المحافظ ـ بحق السماء يا روبن •• احسب ان الشيطان قد ساعدك •

روبن ـ كلا أيها المحافظ فالشيطان ما زال من رهطك • (مخاطبا لتل جون) ضع المحافظ في الزنزانة واقفل الباب •

لتل جون ـ هيا ايها المحافظ • اصعد السلم • اما اذا حاولت الاتيان بأقل حركة فلن يطرف لك جفن بعد اليوم •

(يوضع المحافظ في الزنزانة ويقفل الباب عليه • يلقي لتل جون بالمفاتيح على المنضدة • ما زال فريرتك مستمرا على الاكل) •

روبن ـ والان •• فان المحافظ حبيس نفسه • وانني لاتساءل : هل سيشنق نفسه غدا صباحا ؟

لتل جون ـ سيموت من العار •

روبن ـ اذا استطعنا الهروب سالمين ، فسيكون هروبنا اروع قصة •

روبن ـ هيا عجل ايها الرجل •• فليس بمقدورنا ان نضيع دقيقة واحدة •

(يسمع طرق بعيد) •

لتل جون ـ اصغ • انهم ينصبون المشنقة • هيا ايها النذل السمين ، الغ احتفالك •

(يسحبان فريرتك بعيدا وصحن الفطيرة بين يديه) .

فريرتك ــ (محاولا الافلات منهما عند الباب) لا .. لا .. قطعا . اننى لم أبدأ الا توا .. اتركاني أرجع الى الخمر .. الخمر .. فأنا عطشان .

(يجرانه من الغرفة . يسمع دق المحافظ على باب الزنزانة منذرا بوعود شتى) .

المحافظ افتحوا الباب .. هووو .. ايها الخدم .. انا المحافظ ــ بحق الرعد .. سأطردكم بسبب هذا الاهمال .

(يدخل الطباخ مسندا رئيس الخدم)

رئيس الخدم ــ قلت لك ايها الصديق الطباخ اننى رأيته . رأيتــه بجلاء كرؤيتى لك الان ــ انه تحت المائدة .

الطباخ ــ حسنا . ولكن من هو ؟

رئيس الخدم ــ الشيطان .

الطباخ ــ غير انه لا يوجد احد هنا .

رئيس الخدم ــ لقد كان تحت المائدة . انه سرق مفاتيحى ايضا .

الطباخ ــ مفاتيحك ؟

رئيس الخدم ــ لقد اخذ الشيطان خمرى ومفاتيحى .. ويوما ما سيأخذنا نحن الاثنين .

الطباخ ــ لابد انك افرطت في الشرب . سيما وان معدتك فارغة . هذا هو السبب .

رئيس الخدم ــ (ملقيا بنفسه على احد المقاعد) وغلطة من كانت ترك معدتى فارغة ؟ قل .. قل .

الطباخ ــ انظر .. تلك هي مفاتيحك على المائدة . لابد انـك قـد تركتها بنفسك ها هنا .

رئيس الخدم ــ هذا شيء لطيف . يجب أن لا اضيع المفاتيح .

(يطرق المحافظ على باب الزنزانة) .

الطباخ ــ من حسن حظك ان السجين لم يهرب . اصغ اليه . انه غضبان .

رئيس الخدم ــ دعه يدق الباب . فغدا يدق بابا آخر . ناولنى شيئا من الخمر .

الطباخ ــ (ناظرا الى ابريق الخمر) انه ليس غريبا ان ترى الشيطان وان تفقد مفاتيحك . انما الغريب ان لا يوجد فى الابريق الا بعض ثمالة من خمر .

رئيس الخدم ــ لقد اخبرتك ان الشيطان قد شربه . فقد رأيتــه يأخذ الابريق .

الطباخ ــ حسنا . اذا كنت قد رأيت اشياء كهذه .. فلابد ان الخمر

من اجود الاصناف • هيا اشرب نخب روبن هود والمشنقة •

(طرقات وصرخات اخرى) •

رئيس الخدم ـ اطرق ثم اطرق ايها الخنزير الخارج على القانون • اذا استطاع فليكسر الباب •

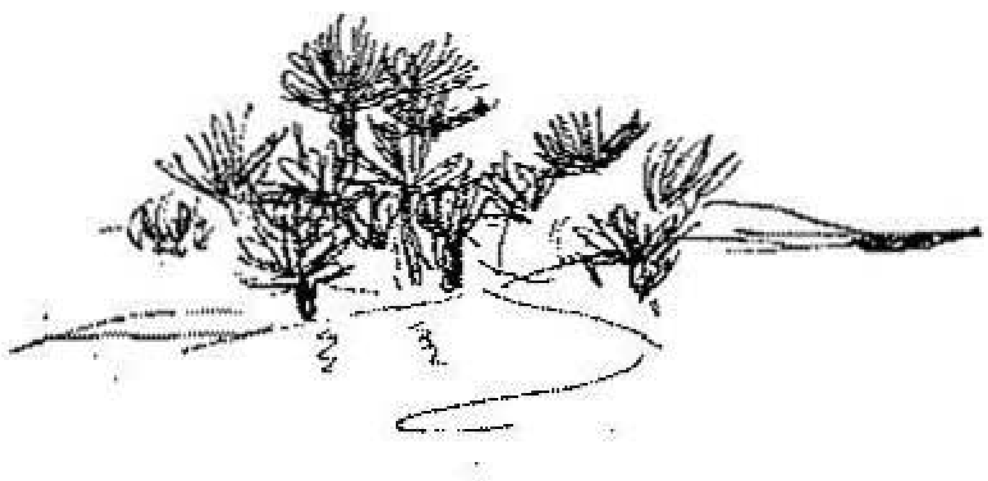
الطباخ ـ (كالمترنم) اوه • ان روبن هود يقبع في زنزانة مظلمة • انه على وشك انيموت • ان الطباخ ورئيس الخدم يحرسان روبن هـود حراسة امينة • انهما من اجود الخمور يشربان • (سوية وبشكل ثنائي متنافر) اجل من اجود الخمور يشربان • اجل يا اولاد •• انهما يشربان • فالليلة الطباخ ورئيس الخدم فرحان • نعم فرحان • انهما من اجـود الخمور يشربان •

(تصدر طرقات وصرخات متلاحقة من باطن الزنزانة) •

رئيس الخدم ـ (مترنحا وهو يخاطب الزنزانة) اخرس ايها الطائش المنحرف • سأغليك بالزيت ان لم تنم • (طرقات اخرى) انت ايها القنفذ •• يا وجه الخنزير اوقف طرقك •

المحافظ ـ (متكلما من خلال ثقب المفتاح) ايها الاحمق • انا المحافظ • انا المحافظ • لقد هرب روبن هود •

(ينطبق فكا رئيس الخدم وتطرف اجفانه ويسدل الستار) •



لطفي جعفر أمان (١)

هلال ناجي

« بقايا نغم » ديوان لطفي الاول ، وفيه يبدو الشاعر مغرقا في رومانسيته ، وشديد التأثر بالشعراء علي محمود طه ، والتيجاني يوسف بشير ، وابراهيم ناجي •

فهو يسمي احدى قصائده ــ الشوق العائد ــ تأسيا بديوان علي محمود طه المشهور بالاسم ذاته •

على ان قصيدة ــ الشوق العائد ــ ذاتها شديدة التأثر بقصيدة علي محمود طه (أغنية الجندول) صياغة ومضمونا •

فانت اذا قرأت قول لطفي (بقايا نغم ص : ٤٠) •

وإذا انزعت كأسي •• فسألتني بعد نظره :
أترى تذكر لقيانا هنا •• أول مره •• ؟
قلت : حلم أن نعيد الامس أو نبعث ذكره
أنت يا فاتنة الغرب الذي أهداك سحره

انت اذا قرأت هذا ، تأكد لك ذلك •

ويصح القول ان قصيدة صدى حب (بقايا نغم ص : ٩٠) متأثرة

---

(١) سنة ١٩٢٨ ولد الشاعر في عدن •
ــ سنة ١٩٤١ ارسل في بعثة حكومية الى السودان للدراسة الثانوية والعالية لمدة سبع سنوات •
ــ سنة ١٩٤٨ صدر ديوانه الاول ــ بقايا نغم ــ •
ــ سنة ١٩٤٩ نال شهادة كلية الآداب في الخرطوم وعاد الى عدن •
ــ سنة ١٩٥١ عمل مدرسا في يوغاندا •
ــ سنة ١٩٥٦ نال دبلوم التربية العالي من جامعة لندن •
ــ متزوج وله أطفال •
ــ يشغل حاليا منصب ضابط المعارف المسؤول عن الطباعة والنشر في عدن •
ــ سنة ١٩٦٢ صدر له ديوان ، الدرب الاخضر ، كانت لنا أيام •
ــ سنة ١٩٦٤ صدر له ديوان : ليل الى متى ؟

بقصيدة ـ الجنة الضائعة ـ لابي القاسم الشابي ·

وتبدو قصيدة ـ حبنامات ـ (بقايا نغم ص ٨٠) شديد التأثر بصياغة الدكتور ابراهيم ناجي واسلوبه الشعري ·

في ديوان ـ بقايا نغم ـ تبرز بذور الاقصوصة الشعرية ، كما في القصائد الموسومة : نهزة ـ الشوق العائد ـ عاشقة ـ وسواها ·

ان الاسلوب القصصي الذي استخدمه الشاعر في هاته القصائد قد وفر لها لونا من الوحدة العضوية ·

الاستاذ محمد عبده غانم كاتب مقدمة ديوان ـ بقايا نغم ـ يرى : « ان أول ما يلفت النظر في هذا الشعر نزعته الصوفية أو اتجاهه الروحي · فالشاعر على حد قوله ليس من ماء وطين بل هو روح ليس يفنيها الزمن · وان غاية ما يصبو اليه الصوفي أن يتخلص من قيود الجسم ليستحيل روحا خالدة باقية بقاء الابد باتحادها مع القوة الازلية التي لا تزول » ···

وليس لهذه الظاهرة ، في نظرنا ، علاقة بالتصوف ، وانما هي من مظاهر الرومانسية · فالرومانسي ينشد في عزلته ، الاتحاد بقوة هي فوق الطبيعة وفوق الانسان ·

ويحاول كاتب المقدمة ان يرجع القتامة والحيرة في شعر المجموعة الى نزعة التصوف وفي رأينا ان القتامة (الكآبة) هي من الملامح الرومانسية الاصيلة ، وانها ناجمة عن الصراع بين الواقع المر والمثال الجميل ·

ويستغرب كاتب المقدمة ميل الشاعر الى التشاؤم والنغمة الحزينة في شعره وفي رأينـا : أنه أمر مألوف وطبيعي ، لانـه من سمات شعر الرومانسيين على الاغلب ·

يذكرني « لطفي جعفـر أمان » بصديقنا الشـاعر القومي « عدنان الراوي » (عدنان) طبع في وقت متقارب ثلاثة دواوين هي : أيام النضال ـ النفط الملتهب ـ المشانق والسلام ـ لـكن شعر أي مجموعة من هذه المجاميع هو اغلبه تكرار لشعر المجموعة الاخرى · وقد كان يغتفر له هذا لو كانت هناك مجرد اشارة لهذا التكرار ، ولكنه لم يفعل ·

وكذلك (لطفي) فنحو نصف ديوان (كانت لنا أيام) هو تكرار لقصائد نشرها من قبل في ديوان ـ الدرب الاخضر ـ وهو مثل (الراوي) اغفل حتى الاشارة لهذا التكرار ، مما أبهم الامر على الناقد والدارس معا ·

في عام ١٩٦٢ نشر لطفي ديوانين : (الدرب الاخضر) في القاهرة ، و (كانت لنا أيام) في بيروت وليس ثمة شك ان السنوات الطوال التي مرت على صدور باكورته ، قد منحته الفرصـة لتطوير اسلوبه واغنـاءه بالصور المبتكرة وتجلت اصالته في بعض تجـاربه الشعرية الناضجة · لـكن هذه الدواوين الثلاثة ظلت مشدودة الى بعضها باتجاه رومانسي واحد ·

يمكن رصد عدة مظاهر رومانسية في شعر لطفي لعل أبرزها :

١) الاغتراب المكاني :

الرحلة عبر السماء عرفها أدبنا العربي قديما وحديثا ، ولكن عند شاعرنا الذي لا يقر خياله الرومانسي على قرار يبدو ـ الاغتراب المكاني ـ مظهرا من مظاهر خياله • فالشاعر راغب في الفرار من بيئته وهو يبحث عن بيئة أخرى تصبو اليها آماله ويرف حولها خياله ليجد فيها البديل عن البيئة التي ضاق ذرعا بها •

ترى هل وجد هذا البديل ؟!

الشاعر يصور روحا شاعرة تنفذ في مجاهل السماء فتصحو سحابة كانت غافية على وثبات الروح وتسائل اختها المجاورة :

السحابة الاولى :

أطيف سرى أم خيالا نرى ؟ ... وروحا مجنحة لا تقر
ترف بها ومضات الجناح ... كما يخفق اللهب المستعر
كأني بها وثبات الخيال ... تسامى الى العالم المستتر

السحابة الثانية :

دعيها فلن تبلغ المنتهى ... فما الغيب عن حجب ينحسر
تحوم حيرى كأن بها ... من الجن مسا فما تستقر
لقد اخفقت في اقتحام السماء ... وها هي ذي كوكبا تنحدر

تدنو الروح من السحابة الاولى وهي تلهث من الكلال •

الروح :

أأختاه •• هل لي من غفوة عليك •• فقد نال مني الكلال

السحابة الاولى :

تعالي •• فقد هد منك الجناح طوافك فيما وراء الخيال

السحابة الثانية :

رأيناك تبغين سر السماء •• وسر لعمري عزيز المنال

السحابة الاولى :

أتبكين اختاه ؟ لا تيأسي •• فمن ركب العزم ذل المحال
تساميت عن عالم الادمي •• وجزت حدود النهى والخيال
كأنك رؤيا بجفن الظنون •• ووهم ترامت عليه الظلال
وقد جهل الناس فيك السمو •• ولم يدرك العقل فيك المثال

وتنفخ السحابة في الروح من قواها ، فتنتفض أجنحتها وترفض بها

مقتحمة حصون السماء • وتقف بها مبهورة ثم تلمحان « عقيان » تحتضن قيثارة وعلى يمينها « لجين » •

« عقيان » (تغني) :

نعب الطلا من أغاني السماء •• ونسكر من لحنها القدسي
ونمرح بين أيادي الاله •• ونسبح في فيضه العلوي
هنا كل حي طليق الحياة •• يمتع في عمره الابدي
هنا كل شيء بحمد الاله •• يسبح في صمته المعبدي
هنا العمر رؤيا بجفن الخلود •• تملى بكل شعاع سني
تلقي « عقيان » بقيثارتها جانبا •• فتسألها « لجين » :

لجين :

عقيان •• ما قلته في المساء •• عن الارض ؟ عن عالم الآدمي ؟
لقد شاقني منك عنها الحديث •• واعذب به من حديث شجي

عقيان :

لعمرك لا تستثيري دمي •• فما الارض الا مواطن غي
هم الناس فيها اثاروا الخنا •• وبثوا المفاسد في كل شي
وكم لوثوا الفجر في مهده •• فجوروا •• وكم انكروا من نبي
تلتفت « عقيان » فتلمح الروح تنحدر وراء صخرة •• فتهتف :

عقيان :

« لجين » انظري ! من على النبع تلك على حذر كمنت في انزواء
الم تسمعي خفقات الجناح •• كأن به رعدة في الشتاء •• ؟
هلمي اليها •• هلمي
تسمعهما الروح فتطل بنفسها :

عقيان :

سلام على من تحاذرنا في خفاء
تلمح « عقيان » في الروح سيماء أهل الارض فتهتف :
عقيان : لجين !!
الى الروح : أمن كوكب الارض أنت ؟
الروح : صدقت ••
عقيان : وكيف صعدت السماء ؟

الروح :

لقد عفت سكناي في عالم •• يعربد فيه الخنا والشقاء
تضج به شهوات الرجال •• وتعبث فيه قلوب النساء

هي الارض ٠٠ لم تدخر للحياة سوى الاثم تحت بريق الطلاء
ترامیت فيها ٠٠ شريد الحياة ٠٠ يعز عليه ضياء الرجـاء
تخادعني بيدها بالسراب ٠٠ وكـم خدعت من قلوب ظمـاء
وضاقت بي الارض حتى نبذت ٠٠ جمال الحياة ٠٠ وعفت البقاء
فمن لي هنا في حنايا السـماء ٠٠ بقلب يطوقني بالرجـاء

«عقيان» (للروح) :

أرى في حديثك كل الرضا ٠٠ وألمـح فيـه دفين الشجون
تساميت عن عالم الآدمي ٠٠ وجزت حـدود النهى والظنون
هنا عالم الله في قدسـه ٠٠ هنا العـالم العلوى المصـون
هنا معبد الروح ٠٠ في صمته خشوع النهى وجلال السكون
تعالي ٠٠ لنصعد برج السماء ٠٠ ونقحم في الغيب تلك الحصون
« عقيان ولجين » تطيران بالروح وتهبطان بها روضة الحور :
عقيان : هنا روضة الحور ٠٠
الروح : يا حسنها !٠ يطوف بها من يد الله سحر ٠٠ وما هذه ؟
عقيان : زهرة سلمت
الروح : وهل ههنا يتكلم زهر ؟ ومن ثم ؟ حور نضون الثياب !!
وزينهن جمال وطهر ٠٠ تناثرن بـين حسـان الزهـور
فزهرا يغازل في الروض زهر ٠٠ محاسن تبهر منـا القلوب
كحلم رواه خيال وشعر !!٠
لجين (للروح) :
أرى الحسن ايقظ فيك الشعور ٠٠ وفيض منها جميل النغـم

الروح :

هو الحسن منبع هذا الوجـود ٠٠ ولولاه ما كان الا عـدم
ألم يسكر الكون من خمره ٠٠ ولم تنضب الكأس منذ القدم ؟
دعيني أصفق في روضه ٠٠ فثمـة زهر هفـا وابتسـم
وثمة حـور يهيجنني ٠٠ وفي كفهـن كؤوس النعـم ٠٠
ألا ليت ـ لو تنفع الامنيات ـ أعود كما كنت لحمـا ودم ٠٠!
وفجأة تعود الروح كما كانت لحما ودما في قميص الشاعر ٠!
عقيان (للشاعر) :
لقد شب فيك هـوى الآدمي شبوبا الى الجسـد الآسـر
وها أنت ذا شـعلة من شـهي ٠٠ تعـربد في عصب ثائر
تشـهيت حواء في جسـمها ٠٠ فيـالك من ماجن فـاجر
(تلتفت الى لجين) :
أخاف على الحور من قلبـه ٠٠ اذا مسـها بعصـا سـاحر
يسامرها بحديث الغـرام ٠٠ ويقضى بهـا ليلة السـامر

ويخـدعها برواء الشـباب ٠٠ ويوقعهـا في الهوى المـاكر
فكل السذاجة في طهـرها ٠٠ وما هو بالرجـل الطاهر
ففي عينه ومضات الفجور ٠٠ وعربدة الكأس بالساكر

الشاعر :

دعيني الى ناضرات الكروم ففي خمرهـا بهجة الحاسر

وفي ملعب الحور اسطورة ٠٠ تـردد في قلبي الـذاكر
دعيني أعانق هذه الحياة ٠٠ واسبح في فيضها العاطر
وأترع من خمرها المستفيض ٠٠ فقد عربد الحب في خاطري

ينطلق الشاعر الى كرمة تحف بها بنات الحور :

الشاعر (لبنات الحور) :

ألا يا عرائس هذي الجنان ٠٠ ألم تسمعي بفتى شاعر ؟
باشعاره معجزات الخلود ٠٠ واعجـوبة الزمن الغـابر
وفي قلبه عالم للغرام ٠٠ ودنيـا من الامل الســاحر
لياليه قيثارة العاشقين ٠٠ مرنحـة النغـم الفـاتر
وماضيه أحلام اسطورة ٠٠ روتهـا الحقيقة للحـاضر
أتت ربـة الفن من برجهـا ٠٠ أسـيرة سلطانه القـاهر
تهادت على فنه العبقـري ٠٠ ومرت كحـلم به عـابر
وقد أودعت فيه من سحرها ٠٠ ذخائر لم تبـد للنـاظر

احدى البنات الحور :

ألا هات من شعرك العبقري ٠٠ أقاصيص حب بقلبـك تـاه
فما الحب الا نعيم الحيـاة ٠٠ وكأس الخلـود بكف الالـه

الشاعر :

وما الحب الا تلاقي الصدور ٠٠ على خمـرة من رحيق الشـفاه

تندفع « عقيان » في غضب وتقف بين الشاعر وبنات الحور ٠

عقيان (لبنات الحور) :

كفاكن من شعر هذا الفتى ٠٠ ففي شـعره لذة الفاسـقين
يمس الطهـارة في قدسـها ٠٠ ويخدعها بالهوى والحنـين
أما عبثت كفه بالنهود ؟

حورية :

صدقت ٠٠ ولكن برفق ولين ٠٠ ففي كفـه خمـرة الانبيـاء
تسلسل من قدسى المعين ٠

حورية ثانية :

وفي شعره صور العاشقين ٠٠ اذا نثرت فهـي دنيـا ودين

حورية ثالثة :

« أعقيان » هذا رسول الهوى ٠٠ سلي الحور كم انست باللقاء
اشع علينـــا بنور الحياة ٠٠ واحيا الهـــوى بارق الغنـــاء
وفي صدره دفء هذي النهود ٠٠ اذا رفرفت في ليالي الشـــتاء

حورية رابعة :

وفي ثغره ري هذي الشفاه ٠٠ اذا ظـــمئت وهفت باشتـــهاء

حورية خامسة :

وما هو بالآدمي الطريد ٠٠ ولكنه وحـــي هـــذي الســـماء

عقيان (بغضب) :

كفى ! ٠ قد أبعتن ما لايباح ٠٠ جهارا ٠٠ بلا وازع من حيـــاء
ألا يا « لجين » انيلي الرياح ٠٠ جنـــاحين يقتحمان الســـماء
لنهبط بـين أيادي الالـه ٠٠ قبيـــل يوافي علينـــا المســـاء
ونشكو له أمر هـــذا الفتى ٠٠ وكيف يغـــرر بالابريـــاء
تنشر عقيان ولجين اجنحتهما وتصعدان السماء الاخيرة ٠٠٠

٢) وتتضح الملامح الرومانسية في شعر لطفي الفلسفي الديني ، فهو يتناول هذا اللون من الشعر تناولا ذاتيا خلافا لطريقة الكلاسيكيين العقلية ٠

ان تلهف الشاعر الى تعرف مصير الانسان ، وهل ثمة حساب وعقاب ، وبعث وآخرة ، هذا التلهف يدفعه الى تخيل ميت غادر قبره يختلقه اختلاقـــا ثم يطلق العنان لخياله الجامح ٠

وثمة قصيدة أخرى عنوانها ــ الطريق الى الله ــ تناول فيها الشاعر بعض القضايا الدينية والفلسفية : ما أنا ؟ ما الحياة ؟ ما مصير الخلود ؟ أين الله ؟ الخ ٠٠ تناولها تناولا رومانسيا ذاتيا عاطفيا فقال :

في شعاب الزمان ٠٠ في لجة الشك ٠٠ وفي ثورة الحجا ولظـاه
دفـــع العمر موغلا يتلظى بســـدوف الغيـــوب في مســـراه
شاردا كالظلال ٠٠ يوحشه التل ويجثو الدجى على سيمـــاه
يسأل الافق عن سحيق مداه ٠٠ وامتداد الوجود : أين مداه ؟
ويبث الرياح أحلام دهر ضـــل في مهمـــه الحيـــاة وتـــاه
قيل : سر مغلف في ضمير الغيب ٠٠ مـــادان لامريء مرقـــاه
أى سر ؟ هل استدر شقائي من صميم الظـــلام حتى أراه ؟
لج بي الشك في المسارب حتى صحت بالسم : ما أنا ؟ ما الحياة
عميت مقلتاي ٠٠ الا شعاعا باعتـــا اعبر الـــدجى بهـــداه
فالضياء ٠٠ الضياء ٠٠ ياليل روحي الضياء الضياء ٠٠ اين الاله؟
يا لها لفظة ٠٠ احس لديها في ضميري عواصفا وانفجارا ٠٠ !

كل ما في الوجود من حيرة الفكر حوته ‥ فضمنت اسـرارا
يا لها !! مارت الحياة بجنبي ظلاما ‥ ورهبة ‥ وغبـارا
انـه الله في غياهب نفسـي عاصفا ينفض النهـى جبارا
أين ؟ أين ؟ فهز عمقي صوت نفض القيـد عن ظنوني وثـارا
ههنا في معابد القلب ‥ في مسرى تجليك ‥ فارفع الاستارا
واغتسل بالضياء من منبع الفجر تر الله في الوجـود جهـارا

٣ ــ النزعة الانسانية في شعر الرومانسيين لاجدال فيها ، وشعر الاسرة هو من الشعر الانساني في الصميم ٠ والرومانسيون كانوا روادا فيما أضافوه من جديد الى شعر الاسرة ٠ وشاعرنا يترسم هذا الدرب فيعرض لنا في دواوينه الثلاثة الاخيرة باقة عطرة من شعر الاسرة ، منهـا قصائده التالية : الى طفلي جهاد ــ عندما تمرضين ــ العيد الخامس ــ حنين ٠ (وقد اعاد نشرها بعنوان شلال شوق) في ديوانه ــ ليل الى متى ــ نجوى ــ عيد ميلاد طفلي جهاد ــ فوزية ــ يوم السفر ــ هل من خطاب ٠ وسنكتفي هنا بدراسة نموذج واحد من هـذه القصـائد ٠ وهو قصيدته ــ هل من خطاب ــ وهي من عيون شعره العائلي ولكنه يفرطح التجربة ويلحق بها بعض الزوائد والمبالغات التي تهبط بفنيـة القصيدة وتزلزل وحدتها من ذلك قوله :

عـد يـا بني تعـد بركبك شمس حريـات شـعبي
عـد حامي الوطـن الكبـير وقائـد الشـعب الملبـي

فمثل هذا الكلام لا يقال لطفل دون العاشرة ٠ وكقوله : فيطيل فيك نواظري وعواطفي صوت النداء ٠ وكان الاصوب ان يقول : فتشد فيـك نواظري ويكاد يختنق النداء ٠
واذا حذفنا المقطع الاخير من القصيدة الذي نراه مقحما عليها وشذبناها من الفرطحة لخرجنا من كل ذلك برائعة من عيون شعر الحنين عند لطفي :

هل من خطاب ؟
٠٠٠ وتتوه كل خواطـري في لجـة القلق العتيـه
ويجـف في عيني السؤال ‥ وتصخب الاشواق فيـه
وتشـدني لمخاوف المجهـول أوهـام خفيـة
هل من خطاب ؟
وتجوع كل سـعادتي ‥ وتغـور احلامي الوضيه
واظـل اهذي هكذا : هل من خطـاب يا بنيـه ؟
وتمـر ايامي ‥ كـأن جنائـزا تمضي كئيبـة
وانـا احـاسيس مشـردة ‥ وافكـار سليبـه
يا ويـح هـذا الصمت ينسج لي خيـالات رهيبـه
هل من خطاب ؟

قلقي تغرب بي .. وكل معالم الدنيا غريبة
هذا انا في غرفتي .. وحدي .. يظللني المساء
الصمت .. والاوهام .. والقلق المهيمن .. والرجاء
كتبي مبعثرة .. كأفكاري مشتتة هباء
وعلى الجدار تطل صورتك الندية بالرواء
وعلى محياك الصبيح تكاد تستلقي السماء
ابني ..
وينتفض « الاطار » ببسمة منك انتشاء
فتطير كل مشاعري .. وتضج اعراس الغناء
وانا اضمك فرحة سبقت مواعيد اللقاء !..
في كل ركن منك آثار تهيج بي حنيني
حتى « المجلات » الصغيرة فوق درجك تستبيني
« ميكي » .. بساط الريح .. ليت معي بساطا يحتويني
لنهبت ارضي .. واحتضنتك يا « جهادي » في عيوني

٤ - ان الملحمة القصيرة المستمدة من أساطير الاجداد ، وهي من الملامح الرومانسية في الشعر عرفت طريقها الى شعر لطفي ومثالها قصيدته - مصرع زينب - ففي هذه الملحمة القصيرة نجد الشاعر قد استفاد من بعض الروايات غير المحققة وهي أقرب لأساطير الاجداد ، كما نجده قد تصرف في الحقائق التاريخية واطلق العنان لخياله وعاطفته فقال :

الليل ملتحف بجبته المهيبة بالسواد
احداقه العمياء تدفن في مغاورها الوهاد
فالبيد غرقى دلجة .. قد كفنتها بالحداد
... وعلى مدى جبانة تسري بركب الاكرمين
الناصرين محمدا .. خير النبيين الامين
سال الحداء على الاباطح كالاذان مع الضياء
وتهادت النوق النجائب حرة في كبرياء
فالركب يندى بالسماء
يندى بأطهر من يباركها الاله من النساء
يندى بزينب بنت خير الانبياء
تختال في علوية .. في هودج صافي السناء
وتمد عبر سباسب الصحراء أشواقا ظماء
... فغدا توارى خلفها بطحاء مكة والنجود
وتضم في لهف المشوق اعز من وهب الوجود
الوالد المشتاق في احضان يثرب وهو مبعد
المرسل الهادي اباها .. خير من يدعى محمد

•• وتضيء في احســـاسها ذكـــرى •• واشـواق قوية
ورســـالة لما تــزل تنــدي باحرفهــا السنيـة
« أبنيتي ••• يرعاك ربي
هـذا نــداء الشوق ملحاحـا يناديـك •• قلبي
شــدى الرحــال الى يحم زكبـك الميمـون صحبي
ستضاء يثرب كلهـا بالسـعد اذ القـاك جنبي »
••• ويدهده الليــل العتيد يشـق في صمت دروبه
ويشـدها للغيـب احسـاس •• واشـياء غريبـه
وتتوه في نظراتهـا الصحراء •• والظلم الرهيبـة
شيء يجلجـل في حنايـاها •• ويعصف كالريـاح
شيء تحـس لهولـه في جنبيهـا وقـع الرمـاح
••• هي لحظـة •• وكأنما الصحـراء اعصار ونـار
الركـب منفرط •• وضوضـاء •• ومعركـة تدار
واسنة كالشـهب تنخلهـا السماء عـلى انهيـار
هي لحظة •• والمـوت يضرب باليمـين وباليسـار
والهودج المذعـور في سـاح الوغى نهب اعتـوار
••• ومخضـب بالاثـم ظبتـه تعربـد في الغبـار
مرقـت غوايتـه الحقـود بهبـة الجاني « هبار »
يارب !! من ؟؟ وانهـد هودجها كمنهـد النهـار
وارتـق اطهر ما يـراق من الدماء على القفـار
••• ويطـل من خلـف الهضاب الكالحـات
فجـر كئيب الضـوء •• مغبـر السـمات
تـرنو اليـه البيـد واجمـة كليمـه
ما لفهـا عبر القـرون اسى •• كليلتهـا اليتيمـة
والصمت في جنباتهـا يـدوي بمأسـاة الجريمـة
وفجاجهـا تنشـو شـرار الثأر من كف اثيمه
••• وعلى مشارف يثرب الخرسـاء في كهـف الهزيـع
رجفت هنالـك نبـأة تهتـز بالهلـع المريـع
يا ويحهـا !! رجت شغاف اعـز ما حملت ضلـوع
فالمرسـل الهـادي الصبور يضـج مفجوعـا هلوع
الوالـد الملتـاع ترديـه الفجيعـة كالصريـع
زينب !!
ويصرخ في اضطراب
زينب !!
وترتج الهضاب
الثار يا أنصار

الثأر من « هبار »
زينب !!
وينطلق الصحاب
لا فجة الا رموا فيها العيون مع السهام،
لا لمحة الا انثنت حسرى بغير الانتقام،
زينب !!
هبار !!
زينب !!
هبار !!
زينب ...
وينكفيء النبي على مدامعه الغزار
وتنوء بالحزن الثقيل مطية الليل الطويل
وجنائز الايام يسحبها الزمان بلا دليل
... ويطل يوم لا جديد به .. تبلله الدموع
وهناك في ركن تهجد في قداسته الخشوع
كان النبي وصحبه .. والحزن والثأر المنيع
... وكأنما انتفض النهار
لما اطل ملثما .. وكأنه شبح اغار
حسر اللثام مروعا .. فاذا به الجاني « هبار »
... « امحمد هذي قناتي
احسم بطبتها حياتي
أو فاعف عني يا رسول الله للاثم الجسيم .. »
فاهتز روح القدس في اعطاف اكرم من كريم
وسخا النبي بعفوه في لحظة الضعف العظيم

٥ ـ تشيع في الدواوين الثلاثة ظاهرة المبالغة وهي ظاهرة رومانسية أصيلة ، ربما كانت قصيدة ـ أنا لست وهما ـ «لست الدرب الاخضر ـ ص١٤» نموذجا معبرا عنها :

وهذا الوجود
بكفي ولبي وقلبي
صنعت تواريخه الحافلات
وخضت معاركه الداميات
وكنت انتصارا
وكنت انكسارا
وما زلت ادفع ركب الحياة
وابني القصور

وانفض عني رمام العصور
وما زلت اصنع تاريخ هذي الشعوب
كل الشعوب
وازرع في ضفة المستحيل
سعادة جيل وآمال جيل
أجل ... أنا هذا ... طريق ونجم
ومن خطوتي ينجلي كل نبت وينمو
فهل انا لو مات حبي
انوح كقيس على قبر ليلى
وأبكي على صنم كان ... ربي !!

٦ ـ يتجلى التمرد الرومانسي في عديد من قصائد ـ لطفي ـ ولعل قصيدته ـ عربدة وفلسفة (كانت لنا أيام ص ٨٨) من أجلى هذه النماذج ·

وبعد : فلان « لطفي » شاعر رومانسي كان الحب ملاذه ومدار شعره · وقصيدته ـ حب عبر الاعاصير ـ تعبير حي عن الحب الجارف الفياض الذي طفحت به حياة كل شاعر رومانسي ·

قلنا في صدر هذا الكلام ، ان الشاعر قد تأثر في ديوانه الاول بعلي طه والتيجاني وناجي ·

ونضيف انه في ديوانيه الاخيرين على رغم الاصالة التي تطبع قسما من قصائدهما ، قد تأثر ايضا ببعض شعراء العرب المعاصرين ·

قصيدتاه : الذئب ، الشبق ، متأثرتان بأفاعي الفردوس والعسين الفاحصة لا تخطىء انهما من مقلع « ابي شبكة » وقصيدتاه : مراهقة ، و يا ، متأثرتان بقصيدتي لوليتا وسمراء لنزار قباني ثم قصيدته : ديوان شعري ، ويبدو فيها التأثر البالغ بقصيدة (السياب) ـ ديوان شعر ـ المنشورة في ـ ازهار ذابلة ـ ·

ومن الزاوية الفنية ، يلاحظ ان الشاعر :

أولا ـ يستخدم الكثير من وسائل الايحاء الرمزية ، فتغني صوره وتزداد عمقا من ذلك قوله :

جفن الليالي المتعب ، عروق الشفق ، وازرع في ضفة المستحيل ، قبضة الذعر ، يسعل الليل المريض ، صدح الفجر ، كف الضياء ، الا شعاعا في ضلوعي ان محتضر الشهيق .. الخ ·

ثانيا ـ ان الشاعر قاص ماهر ، يستخدم الاسلوب القصصي للحفاظ على الوحدة العضوية في كثير من قصائده ومنها : ـ قصتها كانت معي ـ خطبة لم تتم ـ كم فتاة احببتها ـ خطيئة غريب ـ فتاة كورم ستريت ـ وسواها ·

* * *

ان ظروف المعركة ، معركة التحرير ، التي يخوضها الجنوب اليمني المحتل ونقدات النقاد المتلاحقة ، قد دفعت شاعرنا الرومانسى الى الاسهام في المعركة ولكن بدون ذخيرة ! لقد دفع الشاعر الى اخراج ديوان اسمه ـ ليل الى متى ـ لكن قصائد هذا الديوان الوطنية تطفح بالنثرية والتقريرية او بخواء التجربة ان صح التعبير ٠

ربما كانت قصيدة ـ الطائر الجريح ـ اجودها من الزاوية الفنية لبعدها عن الخطابية :

قالوا : انطلق
وناول النجم جناحي شاعر
وتضد الجمال
آيات قصيد ساحر
واغزل لنا من الضياء
سلم الخواطر
وطف بنا بحيرة البدر المضيء الغامر
وغمس الارواح
في احواض حلم عاطر
وحاكنا عن حب ليلى
وجنون « العامري » ٠٠٠
الطيبون الخوتي
عبيد ليل ساهر
افيونهم نجوى
وذكرى كل ماض غابر
تهزهم ارجوحة الوهم المطيف الغادر
خافي المنايا في الطوايا
ضاحك المظاهر
كضحكة الورد
على نعش قتيل سائر
كم يقتل النفاق
في ارضى من ضمائر !
فاعصر الجـــراح
في قلبي الحبيس الثائر
تفتحت سريرتي
واشرقت مشاعري
وابصرت بصيرتي
ما لا يراه ناظري

مغرب أعمى
مبصر الاحساس بالمخاطر
ورب من يبصر بالعينين
اعمى الخاطر
ليس العمى عمى العيون
بل عمى البصائـر

عيب قصائد ـ لطفي ـ الوطنية انها بلا تجارب معاشة ، فالتجربة المعاشة ذهنيا أو واقعيا هي العنصر الرئيسي في كل قصيدة ناجحة ٠

ان الناقد ليتسائل باخلاص ماذا أبقى الشعر للنثر في مثل قول لطفي :

أخي ٠٠٠ يا أخي
ايصفعني الخوف ؟ لا يا أخي
أأحبس ناري ؟ لا يا أخي
انا لطخة العار في موطني
اذا انهار عرضي ولم اصرخ
وعرضي هو الحق في تربتي
هو الحق احميه في عزتي
هـو ٠٠٠
يا أخي ٠٠٠ يا أخي ٠٠٠ يا أخي
وعرضك عرضي حريتي
بحق الوطن
بهذا القسم
اخي قد نذرت الكفاح العنيد
لهذا الوطن
الى ان أرى اخوتي الانبياء
وهم طلقاء
يقولـــون :
ما مات ٠٠٠ حتى انتقم !

ولقد ضم ديوانه الاخر ـ ليل الى متى ـ كالعادة عدة قصائد مما سبق نشره في دواوينه السابقة وأمثلتها :

شلال شوق ـ وقد نشرها في الدرب الاخضر بعنوان حنين ـ فوزية ، وقد نشرها في الدرب الاخضر بعنوان نجوى ـ وقصائد : انا حامي الضمير ـ الميت المبعوث ـ حائر في السماء ـ وقد نشرها جميعا في ديوانه الاول بقايا نغم ٠

ولقد أوضحت فيما تقدم رأيي في القسم الوطني من الديوان وفيما عدا

ذلك فثمة قصائد سطحية المعنى ، ضحلة التجربة وهي كالزؤان والعوسج في ديوانه الجديد منها : اهكذا ـ وخلسة ٠٠ وقصيدته (حواء) قديمة الفكرة ، مدارها ان الشاعر كان يعيش في عالم الروح الطاهر فهبطت به حواء الى دنيا الاثم والخمر بغوايتها ودلها ، وهي فكرة قتلها الشعراء تقليبا حتى بليت ٠

وكلمة اخيرة :

ان ـ لطفي جعفر أمان ـ شاعر رومانسي خلاق ، وصورة العالم في شعره يلفها ضباب اللانهاية في المتعة ، تماما كما كان (بيرون) و (سنانكور) من قبل ٠



في عيد الشعر العالمي

سوق عكاظ في ايطاليا

احمد مصطفى الخطيب

فكـــرة :

في مدينة « سبوليتو » الجميلة الراقدة في احضان التلال الوادعة ، ذات المناظر الخلابة في أواسط ايطاليـة ، دأب الملحن الموسيقي المعروف (جانو كارلو مينوتي) منذ عدة سنوات ، على تنظيم حفلات موسيقية كل عام ، تستمر شهرا واحدا ؛ اطلق عليها اسم (عيد العالمين) ، وتشترك فيها نخبة من ابرع العازفين ، ومشاهير الموسيقيين ، والمع نجوم فن الغناء من شتى أقطار الدنيا ... ولكن في هذه السنة قرر مينوتي ان يضيف الى برنامجه شيئا جديدا آخر ... اسبوعا كاملا يخصص لاقامة مهرجان للشعر تنشد في خلاله الاشعار ، وتلقى القصائد ، ويسهم في حفلاته اشهر الشعراء العالميين المعاصرين سواء أكانوا من الشرق أم من الغرب ..

وفي الحق كان ثمة شيء من الشكوك يساور الملحن ، ويطوف برأسه أول الامر .. كيف سيقابل الشعراء انفسهم هذه الفكرة ؟.. ترى ! هل سيأخذونها مأخذ الجد ؟.. هل سيلبون دعوته ان وجهت اليهم ؟...

غير ان تردده هذا لم يدم طويلا ، اذ انه ما فتىء ان اقبل على تنفيذ فكرته بعزم جاد ، وبهمة لا تعرف الكلل أو الفتور ... وهكذا اتيح لعشاق الشعر والادب في أنحاء العالم في الصيف المنصرم ان يشهدوا أول سوق عكاظ عالمية للشعر تقام في قلب ايطالية الساحرة ، بلد الفن والموسيقى ، وموطن الشعر والجمال .

دعوة ... واستجابة :

اعد السنيور مينوتي ، بادىء ذي بدء ، قائمة تجريبية ، تحتوي أسماء ستة عشر شاعرا ينتمون الى اربع قارات .. ثم بعث الى كل واحد من هؤلاء بدعوة خاصة للحضور الى « سبوليتو » والنزول في ضيافته لمدة سبعة أيام ... في أواخر شهر حزيران .

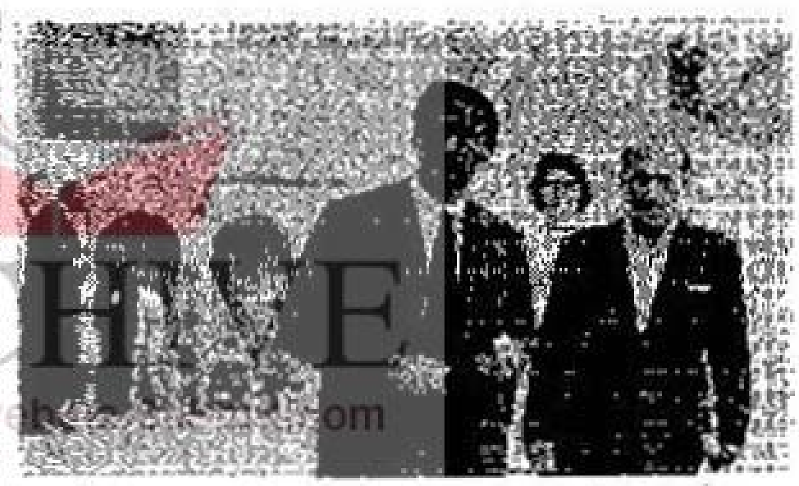
وحين لم يتلق أي رد ، اعاد مينوتي المحاولة من جديد .. وفي هذه المرة هيأ قائمة ثانية ، ضمنها أسماء ستة عشر شاعرا آخر غير أولئك الذين احجموا عن الاجابة لدعوته ...

وعلى حين فجأة بدأت الاجوبة بالقبول تنهال وتترى ... حتى اجتمع

لديه ثلاثون شاعرا من أربعة عشر قطرا ، اعرب جميعهم بتلهف وشوق عن إستعدادهم للحضور ، وعن رغبتهم في انشاد قصائدهم في المهرجان ٠

وعلى الرغم من صعوبة ايجاد الاماكن اللائقة لمثل هذا العدد الكبير من الضيوف البارزين في بلدة صغيرة كـ « سبوليتو » ، تفتقر هي في حد ذاتهـا الى فنادق من الطراز الاول ، وينقصها كثير من وسائل الراحـة وأسباب المتعة ٠٠٠ ، ومع انه كان من المؤكد الثابت منذ البداية ان حفلات من هذا النوع سوف لن تدر ربحا ، بل ولن تعوض حتى عن خسارة محققة طالما كانت اجـرة الدخول في القاعـة لن تزيد عن خمسة وسبعين سنتا ٠٠٠ فان السيد مينوتي كان مبتهجا اشد الابتهاج ، ومغتبطا غاية الاغتباط ٠٠٠ لانه كان يعلم في قرارة نفسه ان في مجرد اقامة المهرجان اعلاء لمكانته الشخصية بين اقرانه ، ورفعا لمنزلته في المجتمع ، وتزييدا لشعبيته بين الجماهير ٠٠٠ وهذا ربح ولاشك ، ليس بالقليل ولا بالهين في نظر من يبحث عن الشهرة ، ويتطلع الى مزيد من ذيوع الصيت ٠


ديزموند اوغـادي (ايرلندا) مـع ازرا بوند


جان كارلو مينوتي ومعه الشاعر الايطـالي كوازيميدو حائز جائزة نوبل

الشعراء :

جرى افتتاح المهرجان على مسرح (غايو ماليسو) وهو مبنى صغير ، انشيء في الاصل ليكون قاعة للتمثيل بجانب كاتدرائية (بلازا) التي يرجع تاريخها الى عهود القرون الوسطى ٠٠٠ وقد زينت جدرانه ومقاصيره ذات الصفوف الثلاثة ، المتدرجة في الارتفاع ، بنقوش وزخارف تعتبر آية في الروعة والجمال ٠٠ اما القاعد فيه فتضم ٣٥٠ كرسيا ، لم يبق منها حتى ولا كرسي واحد فارغا طوال أيام الاسبوع ، في حين لم يحدث كذلك أي ازدحام يستلفت النظر ٠٠

كان موعد القاء القصائد يبدأ في الساعة الخامسة مساء ، ويستمر حتى الساعة السادسة مساء تماما أي مدة ساعة واحدة في اليوم الواحد ٠٠

وقد اكتشف مينوتي منذ اللحظات الاولى ان الشعراء يمتازون بسرعة

الغضب ، بجانب كونهم منطقيين أيضا ··· ولكن ليس من الضروري ان يحب بعضهم بعضا ، أو ان تشيع بينهم روح المودة والتفاهم ···

فالحسد (الغيرة) بينهم لم يكن بالشيء القليل النادر ، حتى لقد كان منهم من يتكتم اعلان عنوان قصيدته قبل حلول موعد القائها ، فيسبب بذلك احداث تعقيدات وصعوبات جمة للمترجمين ·· كما انه وقعت أيضا محاولات ومساومات لاستغلال برامج الحفلة لاغراض شخصية بحتة ، بينما أعلن آخرون منهم بصراحة انهم يفضلون ان لا يظهروا على المنصة بجانب زملاء لهم ذكروا أسماءهم ···

وقد تبين أيضا ان الشعراء التقليديون يضمرون أقل ود ممكن للشعراء الشبان الغاضبين (Beatnick) أو من يمكن ان نسميهم بالشعراء الخنافس ··· اذا جاز التعبير ··

فالشاعر الروسي الشاب (يفجني يفتشنكو) مثلا قد وافق أول الامر ، ثم رفض الظهور على المنصة معلنا انه ليس ممن يهتم بالوقوف أمام الجمهور بجانب الشاعر الامريكي (ازرا بوند) المعروف بميوله الفاشية ·· ولكن سلطات المهرجان حملوا القضية في الحال الى الحزب الشيوعي الذي له مكانته ونفوذه في موسكو ·· ومن ثم حضر يفتشنكو ، ولم يكن يرافقه سوى (جان كارلو باتيتا) أحد كبار المسئولين في الحزب الشيوعي الايطالي ·



الشاعرة الكبرج باخمن (النمسة) ومعها لورنس فرلنج هتي (امريكا) وستيفن سبندر



يوتامس (جمهورية الكونغو ـ برازافيل) يلقي قصيدته باللغة الفرنسية

القصـــائد :

شارك يفتشنكو المنصة مع كل من لينو كورتشي الايطالي ، وآلان تات الامريكي ٠٠ وقد قام بمهمة تقديم كورتشي الى الجمهور ، ستيفن سبندر الاديب والشاعر الانكليزي المعروف قائلا :

ـ الشاعر الذي يوفق بين العلم والشعر ! ٠٠

وانشد كورتشي من الذاكرة قصيدة تغنى فيها بأمجاد غزو الفضاء الخارجي لكلا السوفيت والامريكان ٠٠٠ فكان لها وقع عظيم في النفوس ، وقوبل الشاعر في اثرها بعاصفة من التصفيق ٠

ثم جاء دور يفتشنكو الذي بلغ حد الروعة في حسن الالقاء والإنشاد ٠٠ وقد بدأ الشاعر الروسي النحيف بقصيدة عنوانها (الابتهال) ثم أعقب ذلك بمنتخبات من قصيدة طويلة من الشعر الحماسي ، كان قد نظمها في قدح الحركة ضد السامية ٠٠ ثم انهى دوره بقصيدة تمثيلية عنوانها (تحية) ٠

وفي أثناء ذلك ، كان يفتشنكو يحرك ذراعيه في الهواء ، ويخفض صوته تارة ثم يرفعه تارة اخرى ، ويأتي بضروب من الحركات المسرحية حتى لقد نعته احدهم بقوله :

ـ رامي الاطباق من سمولنسك !

وحين جاء دور (تات) ، اعتلى المنصة قائلا :

ـ ان ما سأقرؤه ، سيكون أشبه شيء بحديث عادي يجري حول الموقد ٠٠٠ اذا ما قورن بالقصائد الروسية ٠٠

ولـكن ظهر فيما بعد ، ان قلق تات لم يكن في محله ٠٠ فقد اثارت قصيدته (السجانون) التي صور فيها حادث شنق أحد الزنوج في ولاية كنتكي ، صيحات : مرحى ! مرحى ! وطوفانا من التصفيق الحاد المتواصل ٠

وقد لوحظ أيضا ان الشعراء الذين التزموا جانب الهدوء والوقار مثل تات وبابلو نيرودا (شيلي) وكواسيميدو (ايطالية) ، وماريللو مندس (برازيل) واندريه فرنود (فرنسة) قد حازوا قسطا أعظم من اعجاب الجمهور وتقديره بالقياس الى اولئك الذين ملأوا الجو ضجيجا وعجيجا ٠

كـان عـدد الذين يعتلون المنصة ثلاثة أو أربعـة شعراء في اليوم الواحد ٠٠٠ وقد كان سيد الاحتفالات في أيامها الاولى ، الشاعر والكاتب الانكليزي ستيفن سبندر بلا منازع ٠٠ ثم حل محله الشاعر الايرلندي ديز موند اوغاردي ٠٠٠ وفي احدى الامسيات اعدت منصة « مفتوحة » في بلازا ، وسمح لاي شاعر ان يشترك في القاء شعره بغير تفريق ٠٠ فاستهل الانشاد شاعر دانمركي شاب يتدفق حيوية وغضارة ـ وكان نزيلا في سبوليتو آنذاك ـ واخذ يتلو مقطوعات من شعره على أنغام الناي ،

فاحدث ذلك تاثيرا عظيما في النفوس وبلغت البهجة غايتهـا ، والنشوة الروحية اقصى مداها بين جمهور المستمعين .

بغير شكليات :

لا جرم انه لو تمسك القائمون بالامر في سبوليتو بالتزام القواعد الرسمية الجافة ، وبالشكليات التقليدية المتزمتة ، لفقد المهرجان جانبا كبيرا من روعته وجاذبيته لا محالة ، ولاخفق عيد الشعر في ان يقع من النفوس موقع الاعجاب والاستحسان .



الشاعرة الامريكية بربارا تلقي قصيدتهـا (مساء الاحد)



بابلو نيرودا (شيلي) في اليوم الاول من الاحتفـال

فقد كان هناك من الشعراء من يرتدي كامل ثيابه ، وكان هناك من يشد رباطا حول عنقه ، ومن لا يشد ... فالشاعر كوا سيميدو مثلا قد تخلى عن رباط العنق ، ولكنه احتفظ بسترته عليه ، وكورتشي اصر على ان يبدو انيقا رشيقا على الدوام ، ونيرودا ، بدا في بزة رجـل الاعمال الناجح ، وسبندر كان يرتدى قميصا مخططا ذا كمين قصيرين ، واوغاردى ظهر في سروال اصفر ، ويفتشنكو لم يفارقه قميصه الرياضي الاصفر الانيق .

وممن اشترك أيضا في المهرجان من الشعراء : روفائيل البرتي ،

وجوزي هيرو ، وجوزي انجل فالانتي من اسبانيا ، وكذلك كان هناك ، تدهيوز من انكلترا ، وجوهانز ادفلت من السويد ، وجون اشبري ، وجون واينر ، ولورانس فرلنج هيتي ، وبربارا جيست من الولايات المتحدة ٠

ازرا بوند :

ولكن اسبوع الشعر في سبوليتو لم يبلغ ذروته من البهاء والروعة الا حينما ظهر الشاعر ازرا بوند ٠٠٠ فقد كانت ثمة اشاعات ، وتكهنات تملأ الجو وتثير الشكوك حول قدرة الشاعر النحيل الهزيل على تحمل مشاق الحضور في جو صاخب كهذا ٠٠ ٠

وفي الواقع كان بوند ـ وهو في الثمانين من عمره المديد ـ يبدو واهنا حقا ٠٠ وكل ما استطاع ان يفعله هو انه قوى على ان يجتاز الطريق عبر بلاز من عمارة ميوتين الى مبنى المسرح سيرا على قدميه ، متوكئا بيده الواحدة على عصا ، ومسندا ذراعه الاخرى الى الشاعر ديزموند اوغاردي ٠

واذ كان قد تقرر أيضا ان وقوف بوند على خشبة المسرح لمدة ساعة واحدة سوف يسبب اجهادا كبيرا له ، فقد اعد له بدلا من ذلك مقعد واسع ، مريح في مقصورة مينوتي الخاصة في المسرح ، ووضع بجانبه لاقطة صوت (ميكروفون) ليتلو منها اشعاره عندما يحل دوره في الالقاء ٠٠٠ فكان على المتفرجين ان يستديروا وهم فوق كراسيهم الى ناحية مقصورته حتى يتمكنوا من رؤية بعض ملامح الشاعر العظيم ٠٠

* * *



يفتشنكو (روسية) يلقي قصيدته (الابتهال) ومعه على المنصة آلان تات (امريكا) وستيفن سبندر (انكلترا) ولينو كورنش (ايطالية) يصغون اليه

بدأ بوند تلاوته بصوت خفيض جاف ، بحيث كان من العسير تمييز كلماته الواحدة عن الاخرى بوضوح تام ٠٠٠ ومما اثار التساؤلات بين الحاضرين ، انه لم يقرأ شيئاً من شعره هو ٠٠٠ وانما تلا عشر قصائد معظمها من القصار لشعراء آخرين مثل : ماريام مور ، وروبرت لويل ، وشاعر صيني من القـرن الخامس الميلادي ، وشاعر فرنسي ، وشـاعر ايطالي ٠٠٠ وقد كان الصوت الواهن الخافت المنبعث من الميكروفون ، ينبيء بجلاء ان (التأثر) وليس (الفنان) قد اختفى من دخيلة نفسه الى الابد ٠٠

وفي الحقيقة ان بوند لم ينطق في خـلال يومين من مكوثه بسبوليتو ، باكثر من بضع جمل عابرة ، فهو قد كان يؤثر الاصغاء فحسب ، دون ان يبدو عليه ما يدل على تأثره بما يستمع اليه ٠٠ والذين كانوا يعرفونه فيما مضى فارسا من فرسان الفصاحة والبيان ، قد دهشوا كثيرا لهذا الصمت الغريب الذي ظل يلازمه طول الوقت ٠

وفي اثناء مكوث ازرا بوند بسبوليتو ، لم يذكر أي شيء له صلة بماضيه السياسي ، أو بتعصبه للفاشية الايطـالية ، وانحيازه الى جانبها في خلال سنوات الحرب ، أو باحتجازه أخيرا فترة في مستشفى للامراض العقلية ٠٠

وقد بدا جليا ان الكل متفق ضمنا على ان المعتقدات والاراء السياسية الممقوتة عند الجماهير ، يجب أن تظل في منأى عن الاثارة ، وانه من الخير أن يسدل عليها ستار كثيف من الاهمال والنسيان ٠

ولهذا فقد اغدق الثناء المستطاب اغداقا على الشاعر الكبير ، باعتبـاره قمة باذخة من قمم الشعر ، وامتدحت قصائده المعروفة بالمقطوعات الشعرية (Cantos) ، واشيد بمواقفه في اسـداء العون الى الاخرين ، ونوه بالاثر العميق الذي تركه على أشعار معاصريه ٠

وعندما انتهى ازرا بوند من انشاده حياه الجمهور بالوقوف اجلالا له ، واتجهت أنظارهم صوب مقصورته ، ثم أخذوا يصفقون ويهتفون له هتـافا عاليا متواصلا ٠٠

ولكن على الرغم من كل هذا التكريم البالغ ، والحفاوة المنقطعة النظير فان الشاعر ظل ساكتا ، صامتا ، جامد قسمات الجبه ٠ وكأنه لم يتأثر أبدا بما شهده من مظاهر التقدير ودلائل الاعجاب ٠٠ وكذلك لم تبدر منه أية بادرة يستدل منها على انه كان مغتبطا حقا بكل هذا الهتاف والتصفيق ٠

□ □ □

عيناك قصيدتان

علي جعفر العلاق

عيناك ·· أم جزرتا صحو ، وعندلة   أم حزمتا فرح ·· من عرس آذار
أم نهدة، من ضلوع الغيب، تسكبها   أيدي المغيب ·· على أهداب بحار
عيناك ·· قافية شقراء ·· ما عصرت   بها كف وحي ، على أحضان قيثار
قصيدتان ·· شراعان ·· رفيفهما   في وحشة التيه دربي، شمعتا داري
دوختساني ، وضاعت فيهما سفني   أميرتي ·· سئمت عيناي ابحاري

* * *

لا تهجريني ·· فبيتي، عاتب، ظمىء   لخطوة ، حرة ، بحاء ، معطـــار
تزور بابي ·· وتنمو فــوق عتبته   ضـــفائراً ، من أصابيح ، وأقمار
تشد عيني ، لزهو الغيم، تنحت من   ستائر الشفق المخمور ، اسواري
هذا الرماد، سماني ، لو حلمت بها   لزارها البحر ·· وانهلت بامطـار
ودغدغ الصبح، راياتي، ضفاف غدي   ولاذ بي كل نجم ، مقفر ، عــار
من صيف عينيك، عصفوران في كبدي   كم أدميا ، أحرفي الولهى ، واشعاري
ان تبسمي، تغسل الاصداء قافيتي   ويورق الرمل ، في صحراء أوتاري
عيناك ·· أم غيمتا صحو ، تذرهما   أنامل الله ·· في أضــلاع قيثاري

الأسماك الغضروفية

الدكتورة فاطمة محمد مطهر

هذه الطائفة من الاسماك تعرف بالاسماك الغضروفية حيث الهيكل المدعم لاجسامها يتكون من مادة غضروفية بخلاف الاسماك العظمية التي تبنى هياكلها من مادة عظمية ·

والاسماك عموما ـ الغضروفية منها أو العظمية ـ هي فقاريات تحورت أجسامها بشكل يساعدها على الحياة في الماء ولا يقتصر هذا التحور على الشكل الخارجي للجسم فحسب بل يمتد ايضا الى التركيب الداخلي وهي تتنفس الاوكسجين الذائب في الماء بواسطة أعضاء خاصة تناسب هذه العملية وهي الخياشيم ·

وتتضمن الاسماك الغضروفية رتبتي القروش والقوابع · والقروش عادة ذات جسم مغزلي وجذع شبه اسطواني وزعانفها الصدرية لا تتصل بجانبي الرأس كما لا تصل الى ما قبل الفتحات الخيشومية التي توجد على جانبي الرأس ، والزعنفتان الظهريتان والزعنفة الذيلية كاملة النمو · كما أن الزعنفة البطنية موجودة والفم كبير ويقع على السطح البطني لمقدمة الرأس ·

وأحيانا تحدث تحورات في جسم القروش ففي فصيلة القرناء قد تحورت الرأس حيث نمت الى الجانبين وأصبحت تشبه المطرقة أو القرنين· وتقع العينان على جانبي القرنين ولذلك يكون مجال الرؤيا أكثر اتساعا · وهذا النوع من القروش قوي جدا · وقد سجلت منه حوادث اذ يستطيع هذا القرش أن يقلب قاربا كبيرا حيث تساعده عيناه على الرؤية من بعيد فيتبع القارب ويلف ذيله الطويل القوي حول أحد طرفي القارب ثم يدخل رأسه ذا القرنين تحت الطرف الآخر ويقلبه ·

ويوجد من القروش فصائل متعددة قد تصل الى مائة فصيلة أكبرها فصيلة «كاركارينيدي» وهي تضم أكبر مجموعة من أنواع القروش الحديثة · وتسكن القروش البحار الاستوائية وتحت الاستوائية والمحيطات ويقل دخولها في المياه العذبة · وتختلف هذه الاسماك في توزيعها في المياه فبعضها يعيش في مجاميع على مقربة من الشاطىء والبعض الآخر يسبح في أعماق كبيرة كما انها تتراوح في أطوالها بين متر وسبعة أمتار ·

وتسبح القروش بتحريك الجزء الخلفي من جسمها من جانب الى آخر

في موجات أفقية بواسطة الانقباضات المنتظمة لعضلات الجسم على الجانبين وبانتقال هـذه الموجات الى الخلف ينـــدفع الجسم الى الامام ولا تشترك الزعانف الصدرية في حركة القرش في الماء بل تنحصر وظيفتها في تغيير الاتجاه أو تغيير المستوى الذي تسبح فيه ٠

والقروش تختلف في طبائعها فبعضها هادىء ، وبعضها الآخر متوحش ومفترس يهاجم أي شيء يصادفه حتى الانسان ، فقرش النمر مثلا يبتلع أي شيء يصادفه وقد وجد في معدة قرش من هذا النوع هيكلا عظميا لانسان كما وجد في معدة آخر ترسة بحرية كاملة نصف مهضومة الى جانب بقايا أسماك وطيور ٠

ويتفق شكل الاسنان مع طرائق حياة القروش ففي القروش التي تعيش في البحر الطليق يتكون الغذاء من اللحوم وتكون الاسنان طويلة وتمتاز بوجود قاطع أو أكثر ٠ كما ان لبعضها سنين ، وكلها حادة ومرتبة في عدة صفوف متتالية ويكون أسنان صف أو اثنين منها قائمة وعاملة أما في الصفوف التالية فالاسنان غير عاملة وغالبا ما تكون مغطاة باللثة ٠

أما القوابع فهـي أسماك غضروفية اطلق عليهـــا هذا الاسم نظرا لمعيشتها اذ غالبا ما توجد قابعة قرب القاع وقد تحور شكلها لتـــلائم معيشتها فالجسم أصبح مفلطحا والزعانف الصـــدرية عريضة وممتدة على الجانبين ومتصلة بالرأس من الامام مكونة مع الجسم ما يشبه القرص كما ان الفتحات الخيشومية اتخذت مكانهـــا على السطح البطني والفم أصبح صغيرا بالنسبة لمثيله في القروش والزعنفة الذيلية أصبحت ضامرة وكلما كانت القوابع أكثر ملاءمة لحياة القاع زاد ضمور الزعنفة الذيلية الى أن تختفي في أكثر القوابع رقيا ويصبح الذيل طويلا وعديم الزعانف ويشبه السوط ٠

والقوابع غالبا ما تكون بطيئة الحركة اذا ما قورنت بالقروش وهي تتغذى من حيوانات القاع القابعة أو البطيئة الحركة فيتكون أكثر غذائها من القشريات والديدان والقواقع ولذلك فالاسنان عموما اختلف شكلهـــا عنها في القروش وأصبحت صغيرة وخالية من التسنين ومرتبة في شريطين أحدهما في الفك العلوي والآخر في الفك السفلي لتـــلائم جرش الطعام ٠ وتتكيف هذه الاسنان حسب نوع الطعام ففي الانواع التي تتغذى غالبا من الديدان وأسماك القاع الصغيرة نجد ان الاسنان مزودة بنتوءات حـــادة لتستطيع القبض على الديدان الناعمة ٠ أما في القوابع التي تتغـــذى على القواقع فتوجد الاسنان على شكل صفائح صغيرة متلاصقة وتكون جميعهـــا صفيحة واحـــدة في كل فك وتعمل صفائح الفكين أمام بعضها على جرش الطعام ٠ أما في القوابع التي تتغذى على (البلانكتون) فليس للاسنان قيمة ولذلك ضمرت كثيرا ٠

وتختلف السباحة في معظم القوابع عنها في القروش حيث تعتمد في

العوم على الزعانف الصدرية فقط وتتحرك هذه حركة موجية راسية تبدا من الامام الى الخلف ٠

ولا تستعمل القوابع الذنب في العوم ولذلك ضمرت عضلاته وفي أثناء العوم يظل الذنب مبسوطا الى الخلف ٠

وهناك اختلاف في أشكال القوابع وطبائعها فمنها ما امتد بوزه الى الامام على شــكل صفيحة مسطحة مزودة بصف من الاسنان على كل من الجانبين فهو يشبه المنشار ولذلك سميت فصيلته فصيلة (أبو منشار) وتتصف أفراد هذه الفصيلة بالخطورة لوجود هذا المنشار القوي الذي له القدرة على شطر جسم الانسان الى نصفين ٠ كما يتميز قوبع الرعاد بوجود عضوين كهربيين على جانبي الجسم يسبب لمسهما رعشة كهربية وتقضى أسماك فصيلة الرعاد معظم النهار دفينة في الرمال أو الطمى ثم تظهـــر وتنشط عند الغروب وفي أثناء الليل اذ تسبح بنشاط ٠ وتتميز فصــيلة القوابع اللاسعة بذيلها الطويل الذي يشبه السوط ويحمل شوكة مسننة أو أكثر وهذه الاشواك سامة وقد سجل بعض الباحثين بعض الوفيات التي نتجت من وخز اشواك هذه القوابع والشوكة طويلة ومدببة القـدم ومسننة الجانبين وتتجه الاسنان اتجاه الخلف وتظل الشوكة عادة موازية للذنب تقريبا ولكنها تتعامد على الذنب عند الاستعمال ٠ فعندما يحس القوبع بملامسة الانسان له يرفع الشوكة ويدفعها في جسم الانسان وكثيرا ما يتركها داخل جسم فريسته ويصعب اخراجها اذ انها مسننة من الجانبين جهة الخلف ٠

واناث بعض أنواع الغضروفيات تبيض بينما اناث الانواع الاخرى تلد ويوجد من الاجنة عادة من ٣ الى ١٥ ولكن قد وجد في احدى أفراش النمر ٤٤ جنينا كاملة النمو ٠

ويأكل بعض الناس الأنواع الصغيرة من الغضروفيات طازجا ٠ وأما الكبير منها فيؤكل بعد تجفيفه وتمليحه وتستخرج من أكبادها كميات كبيرة من الزيوت التي يستخدمها البحارة في طلاء قواربهم كما يستخدم عظــم الظهر أو العمود الفقري في عمل العصي ٠

النقد في دلائل الاعجاز

للامام عبدالقاهر الجرجاني

مهدي صالح البدري

المقـــدمة

جاء في طبقات الشافعية الكبرى للسبكي انه « عبدالقاهر بن عبد الرحمن الشيخ الكبير ابو بكر الجرجاني النحوي المتكلم على مذهب الاشعري، والفقيه على مذهب الشافعي ، اخذ النحو بجرجان عن أبي الحسين محمد بن الحسن الفارسي ابن اخت الشيخ أبي علي الفارسي ، وصار الامام المشهور المقصود من جميع الجهات ، مع الدين المتين ، والورع والسكون . »(١)

كانت اللغة ، في القرن الخامس ، قد اخذتها بوادر المرض والذبول وكان سبب ذلك هو الوقوف عند (ظواهر قوانين النحو) والالفاظ والانصراف عن الغوص على المعاني الدقيقة والنظر في الاساليب الحبيكة وتعريف القول الى المباني اللطيفة .

وكانت هذه البوادر البئيسة وهي تنزل على اللغة تعمل على ايقاظ قلبه الكبير وعقله المفكر فنهض الامام عبدالقاهر في عصره وانبرى لوضع اصول المعاني والبيان فكانت النتيجة انه فاق من سبقه من البلغاء كالجاحظ وابن دريد وقدامه الكاتب فلقد جعل البيان فنا مرفوع القواعد وبناء تام المرافق . فهو واضع علم البلاغة غير ان المؤرخين لم يذكروا له هذه المنقبة وهم يترجمون حياته ، « حتى ابن خلدون الذى تصدى دون القوم للالمام بتاريخ الفنون اهمل ذكره وزعم ان الذى هذب الفن بعد اولئك الذين كتبوا في مسائل متفرقة منه هو السكاكي وما كان السكاكي الا عيالا على عبدالقاهر تلا تلوه وأخذ عنه مع المخالفة في شيء من الترتيب والتبويب »(٢) .

والحقيقة ان السكاكي كان وسطا بين الامام عبدالقاهر وبين المتصنعين المتأخرين الذين سلكوا بالبيان طريقة معقدة ومالوا به الى التجريد النظري ففسروا اصطلاحاته كما تفسر المفردات اللغوية وبذلك صارت كتب البلاغة معميات لفظية يكتنفها الظلام ولا يصل اليها النور وان سلطته عليها .

ذكرت ان المؤرخين قد وضعوا الامام عبدالقاهر في دائرة الاهمال ولم يشيروا الى انه هو المؤسس الاول لعلم البيان ولكن الامر لم يكن كذلك مع كل العلماء فلقد كان من العلماء من لم يفته هذا الامر ومنهم العالم يحيى

ابن حمزة صاحب كتاب (الطراز في علوم حقائق الاعجاز) فقد ذكر عنه « وأول من اسس من هذا الفن قواعده واوضح براهينه وأظهر فوائده ورتب افانينه الشيخ العالم النحرير علم المحققين عبدالقاهر الجرجاني »(٣) .

لقد كان عبدالقاهر نحويا وكان بلاغيا وهو يرى أنه لا سبيل الى الفصل بين البلاغة والنحو ولئن كان النحو عنده هيكلا من العظم فان البلاغة عنده اللحم والدم .

وكان الامام متكلما وفقيها فأثر التكلم واضح في حجاجه . وأثر الفقه في طبيعة نقده ، كما سنرى ، واضح كذلك . وكان عبدالقاهر ، على الجملة محبا للعلم ولا يرى فضلا يتقدمه ، فالعلم على القمة وبقية الفضائل ومنازل الشرف دونه على السفح واذا شئت فاسمع اليه يتكلم في ذلك : (وبعد . فانا اذا تصفحنا الفضائل لنعرف منازلها في الشرف وتتبين مواقعها من العظم ، وتعلم ايا احق منها بالتقديم واسبق في استيجاب التعظيم وجدنا العلم اولاها بذلك ، واولها هنالك اذ لاشرف الا وهو سبيل اليه ولا خير الا وهو الدليل عليه ولا منقبة الا وهو ذوتها وسنامها ولا مفخرة الا وبه صحتها وتمامها ولا حسنة الا وهو مفتاحها ولا محمدة الا ومنه يتقد مصباحها .)(٤)

واذن فالعلم عنده هو الآلة التي بواسطتها تنفتح المغاليق وتنهض المحامد ، وأما ما يراه في أنواعه واقسامه وتفضيل بعضها على بعض ، فانه يذكر اختلاف الناس في ذلك ، وتعدد مذاهبهم والمسالك : يقول (فأما المفاضلة بين بعضه وبعض وتقديم فن منه على فن فانك ترى الناس فيه على آراء متباينة ، واهواء متعادية)(٥)

وبعد ان يذكر الامام ان الناس يختلفون في المفاضلة بين العلوم يعرض رأيه باسلوبه العذب مفضلا علم البيان على غيره من العلوم : (ثم انك لا ترى علما هو ارسخ اصلا وابسق فرعا واحلى جنى واعذب وردا واكرم نتاجا وانور سراجا من علم البيان الذي لولاه لم تر لسانا يحوك الوشي ويصوغ الحلي ، ويلفظ الدر وينفث السحر ويقري الشهد ويريك بدائع من الزهر ، ويجنيك الحلو اليانع من الثمر والذي لولا تحفيه بالعلوم وعنايته بها وتصويره اياها لبقيت كامنة مستورة ولما استبنت لها يد الدهر صورة ولاستمر السرار بأهلتها واستولى الخفاء على جملتها)(٦) .

فالبيان ، عنده ، هو الضوء الذي به تستبين الاشياء وتظهر الى النور من طي الخفاء واغواره المظلمة والبيان عنده هو الظهور الذي نحكم به على الاشياء بالوجود ، وهو ضد الخفاء الذي نحكم به بالدثور والفناء .

وعلى كل حال فأني رمت بهذه المقدمة ان أبين مكانة شيخنا من علم البيان ملوحا الى ثقافته الدينية والعقلية التي أثرت في طريقة نقده وطبيعتها كما سنرى .

نفس الجرجاني مرآة صقلية تريك على وجهها الصافي ما بعد من الاشياء او قرب ونفسه حساسة تنفعل حتى بدقائق الامور وفكره ميزان يزن الهباءة وشخصية كهذه اجتمع لديها : صفاء الجانب وحدة العاطفة وقوة الفكر ، لابد أن تكون على قدر وافر من الوعي بحيث لايفوتها التعسف والغلط الذي دخل على الناس في فهم البيان عامة والشعر خاصة فنهض الشيخ الكبير ليقول : « الا أنك لن ترى على ذلك نوعا من العلم قد لقي ما لقيه ، ومني من الحيف ما مني به ، ودخل على الناس من الغلط في معناه ما دخل عليهم فيه ، لقد سبقت الى نفوسهم اعتقادات فاسدة وظنون ردية وركبهم فيه جهل عظيم وخطأ فاحش ، ترى كثيرا منهم لايرى له معنى اكثر مما يرى الاشارة بالرأس والعين وما تجده للخط والعقد ، : يقول : انما هو خبر واستخبار ، وأمر ونهي ولكل من ذلك لفظ قد وضع له ، وجعل دليلا عليه فكل من عرف اوضاع لغة من اللغات عربية كانت او فارسية ، وعرف المغزى من كل لفظة ثم ساعده اللسان على النطق بها وعلى تأدية اجراسها وحروفها فهو بين في تلك اللغة كامل الاداة ، بالغ في البيان المبلغ الذي لا مزيد عليه ، منته الى الغاية التي لا مذهب بعدها ٠٠ »(٧)

واذن ، فليس البيان عند عبدالقاهر ، خبر واستخبار ، وأمر ونهي والفاظ تدل عليها وحسب انما هو اوسع من ذلك في افقه ورحابته ٠

والامام الشيخ يأبى ان يضيق عليه ضمن الاوضاع والقوالب اللغوية وان يفهم على أنه مجرد النطق بالحروف واجراس الكلمات ، لا ٠٠٠ لايمكن ان يكون البيان كذلك ، ذلك لانه وان كان تعبيرا عن المعاني بالالفاظ ، الا انه لاينفصل عن التجويد والتحسين والتنميق كأية صناعة اخرى ٠

واذن فالبيان : تأدية واجادة يتفاضل بها الغير ويعلو بعضهم قدر بعض ، وكثيرا ما يشبه الشيخ منثور البيان ونظمه بالمنسوج وما الفاظ البيان عنده الا طاقات الحرير والابريسم التي لو أعطيت ما شئت منها لعدد من الحائكين لجاءتك حياكتهم متمايزة متفاضلة في اللطافة ودقة النسج والتطريز وتكامش الاجزاء بعضها ببعض ٠

فالفن والجودة ، اذن ، خاصية بارزة من خصائص البيان في المنظوم منه والمنثور لاينكرها الا من : (لايعلم أن ههنا دقائق واسرارا ، طريق العلم بها الروية والفكر ولطائف مستقاها العقل ، وخصائص معان ينفرد بها قوم قد هدوا اليها ، ودلوا عليها ، وكشف لهم عنها ، ورفعت الحجب بينهم وبينها ، وانها السبب في ان عرضت المزية في الكلام ووجب ان يفضل بعضه بعضا وان يبعد الشأو في ذلك وتمتد الغاية ويعلو المرتقى ، ويعز المطلب حتى ينتهي الى الاعجاز والى ان يخرج من طوق البشر ٠)(٨)

اسمعت اليه وقد ارسل نفسه تسيل عذوبة في الفاظه ، وأطلق فكره،

على نفاذه وقوته ، مرنا لا يعسر عليك ان تحادثه : ان في البيان دقائق وأسرارا (طريق العلم بها الروية والفكر ولطائف مستقاها العقل ، وخصائص معان ينفرد بها قوم قد هدوا اليها ، ...)

فليس الناس سواء في حياكة الالفاظ وضم بعضها ، بسبب ، الى بعض انما هم في هذه الصناعة على قدر علمهم بأسلوب المشابكة والرصف في الالفاظ ، وعلى قدر مواهبهم التي ينظرون من خلالها الى خصائص المعاني والالفاظ فيحسنون بها الاختيار .

وطبيعي ان ينكر المنكرون خصائص البيان التي اشار اليها عبدالقاهر ذلك لانهم عدموا الحاسة التي يتذوقون بها منثور الكلام ومنظومه : (ولما لم تعرف هذه الطائفة هذه الدقائق والخواص واللطائف لم تتعرض لها ولم تطلبها . ثم عن لها بسوء الاتفاق رأي صار حجازا بينها وبين العلم بها وسدا دون ان تصل اليها ، وهو ان ساء اعتقادها بالشعر الذي معدنها وعليه المعول فيها ، وفي علم الاعراب الذي ينميها الى اصولها ويبين فاضلها من مفضولها فجعلت تظهر الزهد في كل واحد من النوعين وتطرح كلا من الصنفين وترى التشاغل عنهما اولى من الاشتغال بهما والاعراض عن تدبرهما ، اصوب من الاقبال على تعلمها .)(٩)

فمعاداة النحو ومعاداة الشعر على الاخص انما كان تحت تأثير الجهل بالخصائص والدقائق التي يتمتع بها هذا العلم .

ثم لما كان الشعر ، وهو يتمتع بهذه الخصائص والدقائق بصورة اوسع وأخص ، لونا من الوان البيان فقد ساء اعتقادها به كذلك ، وصادف هواهم في الامر انه خيل اليهم ان الشعراء قد ذموا في هذا الدين ، وان الشعر (ليس فيه كثير طائل ! وانه ليس الا ملحة او فكاهة او بكاء منزل ، او وصف طلل ، او نعت ناقة ، او اسراف قول في مدح او هجاء وانه ليس بشيء تمس الحاجة اليه في صلاح دين أو دنيا)(١٠) .

وبعد ان ذكر عبدالقاهر الغلط الذي دخل على الناس في الشعر بدأ يعمل على ايراد حججهم التي اليها يستندون واصولهم التي منها يتفرعون ، فهو يرى ان كل من زهد في حفظ الشعر وروايته لا يخلو امره من امور ثلاث :

١ ـ ان يكون رفضه له وذمه اياه من اجل ما يجده فيه من هزل وسخف وهجاء وسب وكذب وباطل على الجملة .

٢ ـ ان يذمه لانه موزون مقفى ويرى هذا بمجرده عيبا يقتضي الزهد فيه والتنزه عنه .

٣ ـ ان يتعلق باحوال الشعراء وانها غير جميلة في الاكثر ويقول قد ذموا في التنزيل .(١١)

هذه الاركان الثلاثة يستند اليها الطاعنون على الشعر في شد مطاعنهم وربط مجنون اكاذيبهم ، والامام يراها قائمة على الغلط الفاحش (وعلى

خلاف ما يوجبه القياس والنظر بالضد مما جاء به الاثر وصح به الخبر)(١١)

ان شيخنا الكبير يعكس لنا في نقاشه ثقافة عقلية ودينية واسعة ذلك لانه لايستعمل عقله ومنطقه بعيدا عن ساحة الدين الذي يؤمن به ، ولذلك نراه يقرن ادلته العقلية بالادلة الدينيـة وكأنه يريد ان يعلن بذلك ان لاتعارض بين الدين والعقل : فالعقل غير معطل في هذا الدين مادام لايتحدث الا في مجاله ولا يحتمل اكثر من احتماله • وهو اعني الشيخ ، انما سخف اراء الذين زهدوا في رواية الشعر وحفظه لانهم كانوا على جهالة وعلى خلاف ما يوجبه القياس وعلى الضد مما جاء به الاثر وصح به الخبر • والقيـاس حكم منطقي ونشاط عقلي ، والاستناد الى الخبر والاثر امر ديني وتاريخي ، (انني اتكلم الان وفق منطوق هذا العصر ولولا انني اخشى الخروج عن صلب الموضوع لاثبت انه ليس هنالك : امورا عقلية مجالها الدنيا ، وامورا دينية مجالها الاخرة ، انما المسألة واحدة تعيش كلا ولا تعيش اجزاء •)

وعلى كل حال ، فما جاء في نقاشه عقليا وقياسيا قوله في من ذم الاشتغال في تحصيل الشعر : (اما من زعم ان ذمه له من اجل ما يجد فيه من هزل وسخف وكذب وباطل ، فينبغي ان يذم الكلام كله وان يفضل الخرس على النطق والعي على البيان فمنثور كلام الناس على كل حال اكثر من منظومه والذي زعم انه ذم الشعر بسببه وعاداه بنسبته اليه اكثر لان الشعراء في كل عصر وزمان معدودون والعامة ومن لايقول الشعر من الخاصة عديد الرمل ، ونحن نعلم لو كان منثور الكلام يجمع كما يجمع المنظوم ثم عمد عامد فجمع ما قيل من جنس الهزل والسخف نثرا في عصر واحد لاربى على جميع ما قاله الشعراء نظما في الازمان الكثيرة ولغمره حتى لا يظهر فيه •)(١٢) هذا هو رده العقلي وقد بناه على القياس كما هو واضح ، اما دليله الشرعي فقد جاء مقرونا معه : يقول : (وراوي الشعر حاك ، وليس على الحاكي عيب ولا عليه تبعة اذا هو لم يقصد بحكايته ان ينصر باطلا او يسوء مسلما ، وقد حكى الله تعالى كلام الكفار •)(١٣)

(وقد استشهد العلماء لغريب القران واعرابه بالابيات فيها الفحش وفيها ذكر الفعل القبيح ثم لم يعبهم ذلك ، اذ كانوا لم يقصدوا الى ذلك الفحش ولم يريدوه ولم يرووا الشعر من أجله) • قالوا : وكان الحسن البصري رحمه الله يتمثل في مواعظه بالابيات من الشعر وكان من اوجعها عنده :

(اليوم عندك دلها وحديثها وغدا لغيرك كفها والمعصم)

ولكي يتضح عندك انه دائما ما يقرن ويتابع الادلة العقلية بالدينيـة اسمع اليه يقول :

(وبعد ، فكيف وضع من الشعر عندك ، وكسبه المقت منك : انك وجدت فيه الباطل والكذب وبعض ما لايحسن ، ولم يرفعه في نفسك ولم

يوجب له المحبة من قلبك : ان كان فيه الحق والصدق والحكمة وفصل الخطاب ؟ وان كان كجني ثمر العقول والالباب ومجتمع فرق الاداب ..)(١٤)
هذا نقاشه العقلي وحكمه المنطقي ، واسمع اليه بعد هذا كيف يجعل الدين حجة على خصمه وذلك برده الى الرسول (ص) وكيف انه (ص) يسمع الشعر ويتمثل به ولو كان في الشعر شيء معيب لما تمثل به الرسول ولما استمع اليه يقول :

(وكيف نسيت امره صلى الله عليه وسلم يقول الشعر ... وقوله لحسان (قل وروح القدس معك) وسماعه له ، واستنشاده اياه وعلمه صلى الله عليه وسلم به واستحسانه له وارتياحه عند سماعه ؟)(١٥)

ان عبدالقاهر يعكس لنا في نقاشه ، كما ذكرت ، ثقافة عقلية واسعة وثقافة دينية واضحة وهذه الثقافة يسرت له ان يقرن الادلة الدينية بالادلة العقلية وان يشابك بين حزونة العقل وتعقيده وبين سهولة الدين وبساطته وهكذا يستمر صاحبنا في الغالب ، على المزاوجه والمشابكة بين الدين والعقل حتى انك لتدرك وانت تقرأ كتابه هذا ان الامر لديه طبيعي الى حد كبير . وعلى كل حال ، فان الامام يسير على هذه الطريقة في مناقشة خصومه الذين كرهوا حفظ الشعر لما وجدوا فيه من سخف وكذب ، واما خصومه الاخرون الذين كرهوا الشعر بسبب كونه موزونا مقفى فان عبدالقاهر رحمه الله لايرى في قولهم هذا مبررا لنبذ الشعر وترك الاشتغال في تحصيله ، يقول:
(وان زعم انه ذم الشعر من حيث هو موزون مقفى حتى كان الوزن عيبا وحتى كان الكلام اذا نظم نظم الشعر اتضع في نفسه وتغيرت حاله ، فقد ابعد وقال قولا لايعرف له معنى وخالف العلماء في قولهم « انما الشعر كلام فحسنه حسن وقبيحه قبيح » وقد روى ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم مرفوعا)(١٦)

(فان زعم انه انما كره الوزن لانه سبب لان يغنى في الشعر ويتلهى به فانا اذا كنا لم ندعه الى الشعر من اجل ذلك وانما دعوناه الى اللفظ الجزل والقول الفصل والمنطق الحسن والكلام البين والى حسن التمثيل والاستعارة والى التلويح والاشارة والى صنعة تعمد الى المعنى الخسيس فتشرفه والى الضئيل فتفخمه والى النازل فترفعه والى الخامل فتنوه به والى العاطل فتحليه والى المشكل فتجليه ، فلا متعلق له علينا بما ذكر ولا ضرر علينا فيما أنكر ..)(١٦)

فالشيخ يطلب الشعر لما فيه من لفظ جزل وقول فصل ومنطق حلو بين يلونه جمال التمثيل والاستعارة وتوشيه دقة الحياكة وصور التطريز والمشابكة .

ان عبدالقاهر يطلب الشعر من اجل ذلك ، لا من اجل ما فيه من وزن وموسيقى يتغنى بها ، لانه يعتبر الاشتغال بالشعر بسبب ذلك انما هو من قبيل الترف والميوعة التى لاتليق به كمسلم فضلا عن كونه فقيها . وهو،

لايشاحن ولا يشاقق في انه لايليق بأحد ان تستخنثه الميوعة والملاهي ، انما يشاقق الذين لا يتصورون انه بأمكانك ان تطلب الشعر وتشتغل بتحصيله لغير سبب التغني به ذلك لانه يعتقد ان نية الفرد هي التي تفسر عمله وتحدد وجهته ، وهذه قاعدة شرعية (انما الاعمال بالنيات ...) تأثر بها عبدالقاهر بسبب اطلاعه على الكتاب الكريم والسنة المطهرة ولذلك يقول : (فانا اذا كنا لم ندعه الى الشعر من اجل ذلك وانما دعوناه الى اللفظ الجزل والقول الفصل ... ، فلا متعلق له علينا ..)

النقـــد عنـده

النقد هو الحكم على الكلام في المنظوم والمنثور بالحسن او القبح بعد اظهار صفاته التي بها يتفاضل الكلام وتعلو مراتبه بعضها فوق بعض . والنقد نشأ قديما قبل ان يقوم لـه تاريخ مدون . وكان الامر أولا ساذجا يعتمد على عموم الاحكام دون تفصيلها .

ولما دونت العلوم والمعارف عندنا كان حظ الادب في التدوين وافراوكان خلال ما دون من الادب اقوالا وشذرات نقدية غير واضحة مبثوثة في كتب تواريخ الادب ومختاراته ، غير ان هذه الاجزاء لم تكن لتستند الى قواعد كلية في النقد . حتى اذا ظهر شيخنا عبدالقاهر كان الامر في النقد قد اخذ شكلا اكثر وضوحا ولكنه ، على كل حال ، غير مستكمل العدة ، ولا بين المعالم والاصول غير ان الذي لا يمكن ان ننكره هو ان الامام قد خطا خطوة جديدة في النقد اذا ما قيست بخطى من سبقه من علماء الادب واللغة .

فالكلام يتفاوت في مراتبه ويتفاضل في حياكته ، ويعلو بعضه على بعض في دقة نسجه والوان اصباغه . وهذا التفاضل امر طبيعي لاينكر ذلك الا من عدم العلم به ، وعلى هذا اذا شاع في الناس ان النظم شيء غير توخي معـاني النحـو ، وليس الا النظـر في الالفـاظ دون النظـم والمعـاني فلا عجب ان يتعجب عبدالقاهر من شيوع هذه الظاهرة بين الناس ، يقول : (اعلم انك لن ترى عجبا اعجب من الذى عليه الناس في امر النظم وذلك انه ما من احد له ادنى معرفة الا وهو يعلم ان ههنا نظما احسن من نظمه ثم تراهم اذا أنت اردت ان تبصرهم ذلك تسدر اعينهم وتضل عنهم افهامهم وسبب ذلك انهم اول شيء عدموا العلم به نفسه . من حيث حسبوه شيئا غير توخي النحو وجعلوه يكون في الالفاظ دون المعانى)(١٧)

فالتفاوت في رصف العبارات ومشابكتها ، والقدرة على متابعة المعانى واظهارها أمر لانزاع فيه ، وما على الناقد ، لكي يتبين محـاسن الكلام وفضائله ، الا ان يكون صاحب علم بالكلام وما يتعلق به من صنوف التاليف والتنضيد فالعلم والخبرة ضرورة تمسك زمام العاطفة وسعة الخيال عن التفلت بعيدا عن الواقع في الاحكام .

والعلم هنا ، هو العلم بمزايا النظم وصنوفه ، وبالنحو الذي تقوم

عليه بنية الجملة ، وبه تحسر مغاليق المعاني عن نفسها ، والناقد لابد ان يكون مستكمل الاداة من حيث تحصيله في النحو وخبرته في هيئات الرصف وصور التأليف ولذلك لايرضى عبدالقاهر عن الجماعة التي قللت من شأن النحو ولا عن الجماعة التي جعلته الاصل في المفاضلة بين صنوف الكلام دون الالتفات الى خصائص النظم والترتيب • يقول عبدالقاهر في الرد على الجماعة الاولى : (واما النحو فظننته ضربا من التكلف وبابا من التعسف وشيئا لايستند الى اصل ، ولا يعتمد فيه على عقل ، وان مازاد منه على معرفة الرفع والنصب وما يتصل بذلك مما تجده في المبادىء : فهو فضل لايجدي نفعا ولا تحصل منه فائدة وضربوا له المثل بالمسلح •• واراء لو علموا مغبتهـا وما تقود اليه لتعوذوا بالله منها ، ولانفوا لانفسهم من الرضا بها ذاك لانهم بايثارهم الجهل بذلك على العلم : في معنى الصاد عن سبيل الله ، والمبتغي اطفاء نور الله تعالى •)(١٨)

ويقول عبدالقاهر في الجماعة الثانية : (واعلم ان من الكلام ما أنت تعلم اذا تدبرته ان لم يحتج واضعه الى فكر ورويه حتى انتظم ، بل ترى سبيله في ضم بعضه الى بعض سبيل من عمد الى لآل ، فخرطها في سلك لايبغي اكثر من ان يمنعها التفرق وكمن نضد اشياء بعضها على بعض لايريد في نضده ذلك ان تجيء له منه هيئة او صورة ، بل ليس الا ان تكون مجموعة في رأي العين) •

(وذلك اذا كان هناك معنى لايحتاج ان تضع فيه شيئا غير ان تعطف لفظا على مثله • كقول الجاحظ : (جنبك الله الشبهة وعصمك من الحيرة وجعل بينك وبين المعرفة نسبا •)(١٩)

فكلام الجاحظ كما يرى شيخنا ليس له حظ من النظم البديع والرصف والترصيع يرفعه الى مستويات عالية تبهرنا حياكتهـا ودقيق صنعتها ، وهو وان جاء سالما من اللحن والغلط النحوي الا انه لايستحق ان يرتفع ويحيا في مستويات عالية في الادب • يقول : (فما كان من هـذا وشبهه لم يجب فيه فضل – اذا وجب – الا بمعناه او بمتون الفاظه دون نظمه وتأليفه •)(٢٠)

(فان قلت : افليس هو كلاما قد اطرد على الصواب ؟ وسلم من العيب ؟ انما يكون في كثرة الصواب فضيلة ؟) •

(قيل : اما والصواب كما ترى فلا • لانا لسنا في ذكر تقويم اللسان والتحرز من اللحن وزيغ الاعراب ، فنعتد بمثل هذا الصواب وانما نحن في امور تدرك بالفكر اللطيفة ، ودقائق يوصل اليها بثاقب الفهم)(٢١)

فالذي عليه عبدالقاهر من ملاحظة المزية في نقد الكلمات ومراعاة النحو في العبارات ، امر لا يناهضه فيه احد ولا ينكره عليه الا من حسب انه لايمكن ان يكون في الكلام فاضلا ومفضولا مادام جاريا وفق قواعد النحو وطرائقه •

وعبدالقاهر يتعجب من هذا الصنف ويقول في تقرير شبهتهم : (بل يروننا ندعي المزية لكل ما ندعيها له من معاني النحو ووجوهه وفروقـه في موضع دون موضع وفي كلام دون كلام وفي الاقل دون الاكثر وفي الواحد من الالف فاذا رأوا الامر كذلك دخلتهم الشبهة وقالوا : كيف يصير المعروف مجهولا ؟ ومن اين يتصور ان يكون للشيء في كلام مزية عليه في كلام آخر بعد ان تكون حقيقته فيهما حقيقة واحدة ؟)(٢٢) .

(فاذا رأوا التنكير فيما لا يحظى من المواضع ثم لايقتضي فضلا ولا يوجب مزية اتهمونا في دعوانا ما أدعيناه لتنكير الحياة في قوله تعالى « ولكم في القصاص حياة » من ان له حسنا ومزية وان فيه بلاغة عجيبة وظنوه وهما منا وتخيلا)(٢٣)

فهولاء لا يتصورون ان يكون للشيء في الكلام مزية عليه في كلام اخر ذلك لان حقيقتهما واحدة ، فهم مثلا يعرفون ان النكرة لاتقتضي فضـلا في مواضع عديدة ، وعلى هذا فلا يمكن الا ان يتهموا عبدالقاهر في دعـواه ان لتنكير الحياة في قوله تعالى (ولكم في القصاص حياة) مزية وحسنا . فالكلام اذا كان جاريا وفق النحو في الفاعل والمفعول والتعريف والتنكير لا يمـكن عندهم ، ان تكون له مزية على غيره في هذه الطرائق . وهذا باطل لايقرهم عبد القاهر عليه ذلك لان الحقائق وان تشابهت في ذواتها فلا يستحيل ان تختلف في شياتها وهيئاتها ، ثم ان هؤلاء لابد وان يكونوا قد فقدوا ملكة الذوق وعدموا الالة التي بواسطتها تعرف درجات الكلام ومزاياه .

النقد ملكة الاحساس الروحاني

ان المتذوق لفنون الادب لا يكتسب آلة ذوقه من المتابعة والمدارسة وان كانت المتابعة والجري وراء المعرفة ضرورة تتفتق بواسطتها كمائم الاحساس الروحاني عما يسمونه ملكة النقد في الحكم والمفاضلة ، وعلى هذا فانـه بامكانك ، اذا كنت ممن يملك آلة الفهم والذوق ، أن تبين مزايا قطعة فنية لعديد من البشر ممن لا يملكون الثراء في الذوق والوقدة في الاحساس ، ثم لا تجد بينهم من يفهم ما تقول أو يهتز لما انت مطرب من أجله ذلك لان من تخاطبه قاصر عن الفهم فاقد لملكة الذوق التي تدرك بها لطائف النظم ودقائق الصنع ونجتلي بها بدائع الزهر ونحتذي روائح المسك .

ان أساس النقد هو الذوق ، هذا ما يراه الامام عبدالقاهر ، ولما كان النقد يقوم على مثل هذا الاساس فقد جعل الشيخ عبدالقاهر النقد في أساسه احساسا روحانيا وعلى قدر تصيب الناقد من هذه الملكة تكون سلامة احكامه ، ولما كانت هذه الملكة موهبة فان الناس فيما عندهم منها ليسوا على حظ واحد ، ولذلك فقد يكون الاديب الكبير مفتقرا لهذه الملكة فهو يكتب ولا يعرف عن سر كتابته شيئا ، وهو ينظم ولا يتبين في نظمه مواقع الاحسان ومهاوي النقصان . وفي ذلك يقول عبدالقاهر :

(والبلاء والداء والعياء : ان هذا الاحساس قليل في الناس حتى أنه ليكون أن يقع للرجل الشيء من هذه الفروق والوجوه في شعر يقوله أو رسالة يكتبها الموقع الحسن ، ثم لا يعلم انه قد أحسن فاما الجهل بمكان الاساءة فلا تعدمه)(٢٤) .

ان المزايا الفنية التي يتزين بها الكلام يدركها صاحب الذوق والملكة ، وأما من فقد آلته الروحانية التي بواسطتها يتبين مقامات المنظوم والمنشور من الكلام ، فلا سبيل الى تعريفه عليها . ذلك لان صفحة روحه مغبشة لا تبين عليها دقائق الامور ومن كانت هذه حاله فلست بواجد طريقا تلتمسه لكشف الشبهة عنهم في هذه الامور . يقول الامام : (فليس الداء بالهين ولا هو بحيث اذا رمت العلاج منه وجدت الامكان فيه مع كل أحد مسعفا والسعي منجحا لان المزايا التي تحتاج ان تعلمهم مكانها وتصور لهم شأنها أمور خفية ومعان روحانية انت لا تستطيع ان تنبه السامع لها وتحدث له علما بها حتى يكون مهيئا لادراكها وتكون فيه طبيعة قابلة لها)(٢٥) .

ويؤكد الشيخ رحمه الله ان الناقد الموهوب يبقى عاجزا عن الكشف عن المزايا التي يلاحظها في النظم لكل اولئك الذين نقدوا هذه الموهبة . يقول (فلست تملك اذا من أمرك شيئا حتى تظفر بمن له طبع اذا قدحته ورى وقلب اذا أريته رأي فاما وصاحبك من لا يرى ما تريه ولا يهتدي للذي تهديه فأنت رام معه في غير مرمى ومعن نفسك في غير جدوى)(٢٦) .

(وكما لا تقيم الشعر في نفس من لا ذوق له ، كذلك لا تفهم هذا الشأن من لم يؤت الآلة التي بها يفهم)(٢٧) .

وعلى كل حال فيبقى الناقد معهم على حاله الا اذا صادف ممن اذا اسمعته النظم الحبيك زهت روحه وثابت قريحته (وممن اذ تصفح الكلام وتدبر الشعر فرق بين موقع شيء وشيء وممن اذا أنشدته قوله :

لي منك ما للناس كلهم   نظر وتسليم على الطرق

وقول البحتري :

وسأستقل لك الدموع صبابة   ولو ان وجله لي عليك دموع

وقوله اسماعيل ابن يسار :

حتى اذا الصبح بدا ضوءه   وغابت الجوزاء والمرزم
خرجت والوطء خفي كما   ينساب من مكمنه الارقم ...

انت لها وأخذته الاريحية عندها ..) (٢٨)

ثم ان مسائل الدقة في الكلام من الخفاء والاستتار بحيث أنه قد يمر البيت دهرا طويلا على مسامع الكثيرين دون ان ينكروا منه شيئا أو يعثروا فيه على مزية ، فاذا حدث ان نظر فيه عميق النفس واسع الخيال غزير العلم حديد الحس رأى فيه من مواطن الاساءة والقبح او مواقع الاحسان واللطف

مالا يراه غيره . يقول الامام :

(وانك لتنظر في البيت دهرا طويلا وتفسره ولا ترى ان فيه شيئا لم تعلمه ، ثم يبدو لك فيه أمر خفي لم تكن قد علمته ، مثال ذلك بيت المتنبي :

عجبا له حفظ العنان بأنمل ما حفظها الاشياء من عاداتها

مضى الدهر الطويل ونحن نقرؤه فلا ننكر منه شيئا ولا يقع لنا أن فيه خطأ ثم بان بأخره انه قد اخطأ ، وذلك انه كان ينبغي أن يقول : ما حفظ الاشياء من عاداتها : فيضيف المصدر الى المفعول فلا يذكر الفاعل ، ذاك لان المعنى أنه ينفي الحفظ عن أنامله جملة وانه يزعم انه لا يكون منها اصلا ، واضافة الحفظ الى ضميرها في قوله : ما حفظها الاشياء : يقتضى ان يكون قد أثبت لها حفظا ، ونظير هذا انك تقول : ليس الخروج في مثل هذا الوقت من عادتي . ولا تقول : ليس خروجي في مثل هذا الوقت من عادتي . وكذلك تقول : ليس ذم الناس من شأني : ولا تقول : ليس ذمي الناس من شأني . لان ذلك يوجب اثبات الذم ووجوده منك)(٢٩)

وجملة ما حصلناه ، ان الناقد يجب ان يمتع بشرائط لابد منها وهي :

١ ـ ان يكون قد ملك آلة الذوق التي بواسطتها نستطيع الاشارة الى المزية والحسن في الكلام ، وذلك لان الناقد يكون راجحا في آرائه على قدر ثرائه من هذه المزية .

٢ ـ وان يكون عالما . ذلك لان بعده عن العاطفة والضلال يكون على قدر علمه ووسيع اطلاعه .

فالعلم باللغة ومفرداتها والنحو وطرائقه والنظم وأساليب حياكته يجعل الناقد على قدر كبير من الرزانة في احكامه والواقعية في نظراته .

طبقات المنظوم والمنثور

لم نذكر شيئا حتى الان عن درجات الكلام وطبقاته . وسبب ذلك اننا أردنا أن نختم البحث به ليكون بمثابة الغاية التي ينتهي اليها البحث .

فالشيخ عندما قسم درجات الكلام وصنف مراتبه انما قسمه حسب طريقته في النظر الى الاساليب ، ولابد أن يكون شيخنا قد قام بعمليات نقدية طويلة قبل مرحلة التقسيم . وهذه العمليات أشبه ما تكون بالاستقراء العلمي الذي ينتهي عادة بالقانون أو الصورة ...

فالامام بعد أن مارس هذه العمليات انتهت به الى ان يقسم الكلام الى ثلاثة مراتب :

أولها : أن يكون حسن الكلام للفظ دون النظم وهذا النوع أولى المراتب بالاطراح .

وثانيها : أن يكون حسن الكلام للنظم دون اللفظ وهذا النوع أرفع مرتبة من سابقه .

أما ثالث المراتب : فهي أن يكون الكلام قد قرن الجهتين (ووجبت له المزية بكلا الامرين) ٠

ولكي يكون الامر أكثر وضوحا لابد من الاشارة الى بعض الامثلة التي يوردها عبدالقاهر في دلائله ٠

فالنوع الاول من الكلام وهو أن تكون المزية فيه للفظ دون النظم ٠ هو ذلك النوع الذي لايقصد فيه واضعه الى أن يجيء به على هيئة أو صورة (بل ليس الا ان تكون ـ الالفاظ ـ مجموعة في رأي العين)(٣٠) ٠

كقول الجاحظ : (جنبك الله الشبهة وعصمك من الحيرة وجعل بينك وبين المعرفة نسبا ٠٠٠ الخ)(٣٠)

(فما كان من هذا وشبهه لم يجب فيه فضل ـ اذا وجب ـ الا بمعناه أو بمتون ألفاظه ، دون نظمه وتأليفه ٠)(٣١)

هذا هو النوع الاول ، أما النوع الثاني الذي يتميز باجادة الحبك والنظم فهو كقول كثير :

واني وتهيـــامي بعزة بعــدما ... تخليت مما بيننـــا وتخلت
لكالمرتجي ظل الغمامة ٠ كلما ٠٠ ... يتبوأ منهـا للمقيـل اضمحلت

(وليس لما شأنه ان يجيء على هذا الوصف حد يحصره وقانون يحيط به فانه يجيء على وجوه شتى وأنحاء مختلفة)(٣٢) ٠

(ومما ندر منه ولطف مأخذه ، ودق نظر واضعه ، وجلى لك عن شأو قد تحسر دونه العتاق ٠٠٠)(٣٣) قول زياد الاعجم :

وانا وما تلقى لنا ان هجوتنا ... لكالبحر مهما يلق في البحر يغرق

وأما النوع الثالث في مراتب الكلام فهو ان يدق في النظم واللفظ ومنه قول ابن المعتز :

واني على اشفاق عيني من العدى ... لتجمح مني نظرة ثم أطـرق

فعبد القاهر رحمه الله يرى أن المزية فيه ليست لان الشاعر جعل النظر يجمح وانما لانه ذكر أول البيت (واني) حتى دخل اللام في قوله (لتجمح)، ثم لقوله (مني) وقوله (نظرة) ، ولمكان (ثم) في قوله : ثم أطرق ٠

ويضيف عبدالقاهر لطيفة أخرى الى هذه اللطائف وهي : اعتراضه بين اسم ان وخبرها بقوله (على اشفاق عيني من العدى)(٣٤) ٠

فالشيخ الامام يرى ان هذا الاختيار في الالفاظ وان هذه المواضع التي تحتلها هي التي جلبت لهذا البيت مزية الحسن واللطافة ٠ ولقد تأملت هذا البيت طويلا وتبينت معالم الصورة التي يضع خطوطها في الخيال وهي : ان الشاعر على خوفه من أعدائه ووقوفهم بينه وبين ما يريد الا أنه يتطلع مرة ومرة الى مايصبو اليه ٠

فالصورة في البيت : شخص يتطلع الى غاية هنا ، وأعداء يكفون نظره باستمرار ، وهو على خوفه منهم يتطلع الى ما يصبو اليه ثم يرد بصره الى

الارض من الخوف والحذر •

هذا هو الذي تبينته من البيت • والذي أردت أن أعرفه منه هو : من أين جاءت معـالمه الجميلة ؟ أهي بسبب هذا الوضع الذي ذكره الامام أم بغيره ؟

والذي أظنه في الامر ان للشيخ جانبا كبيرا من الحق ، ذلك لان مجيء جملة الاعتراض بين اسم (ان) وخبرها يجعل أجزاء الصورة في الوضـع الطبيعي تماما : ففي جانب الصورة هذا يقف الشخص الذي ذكرناه ، وفي جانب الصورة ذاك تقف الغاية متسامية وبين الجانبين يقف الاعداء ليعترضوه من الوصول اليها •••

ثم ان اللام المفتوحة في مبـدأ الفعل (تجمح) أشبه ما تكون بالنغم العالي الذي يقصـد منـه لفت نظر السامع لما سيعقبه من خبر ، وهذا هو التوكيد ، ومجيؤه في الخبر ألطف من مجيئه في الاسم ذلك لانه يعني أنه شديد التطلع لما يريد •••

ثم شيء آخر : وهو قوله (مني نظرة) فاللفظان يوحيان انه يسترق النظر ، وان هذا النظر قصير تعقبه اطراقة ، وانه دائم الحذر والخوف •

ومما أورده عبدالقاهر من الامثلة على السمو في النظم واللفظ قوله تعالى (واشتعل الرأس شيبا) • فالناس (لم يزيدوا فيه على ذكر الاستعارة ولم ينسبوا الشرف الا اليها ••• وليس الامر على ذلك)(٣٥) كمـا يقول عبدالقاهر •

ذلك لأن الروعة التي تدخل على النفوس ليست لمجرد الاستعارة انما سببها اسناد الفعل لفظا الى (الرأس) واسناده معنى الى الشيب • وبرهان ذلك اننا لو تركنا هذا الطريق في الاسناد ثم أسندنا الفعل (اشتعل) الى الشيب صراحة فنقول مثلا : اشتعل شيب الرأس ، أو الشيب في الرأس ، لوجدنا ان ذلك الحسن قد تبدد وان تلك الفخامة قد تضاءلت • وذلك لان الاسناد على الطريقة الاولى يفيد معنى الشمول والشيوع : فالشيب في هذه الطريقة قد شاع في الرأس (وأخذه من نواحيه ، وانه استقر فيـه وعم جملته ، حتى لم يبق من السواد شيء أو لم يبق منه الا مالا يعتد به)(٣٦) •

اما صورة الشيب على الطريقة الثـانية ، فلا تفيد الشمول ذلك لان قولنا : اشتعل شيب الرأس يوجب ان الشيب قد أخـذ نواح مبثوثة من الرأس •

وشبيه ذلك أن نقول : اشتعل البيت نارا (فيكون المعنى ان النار قد وقعت فيه وقوع الشمول • وانها استولت عليـه • وأخـذت في طرفيـه ووسطه)(٣٧) •

أما اذا قلت : اشتعلت النار في البيت ، فلا يفيد قولك معنى الشمول والاتساع •

والان يحسن الاكتفاء بهذا القـدر من الأمثلة التي ذكرتهـا بصدد

(طبقات المنظوم والمنثور) • فهذا القدر ، على ما كان فيه من تقصير في الجمع والترتيب الا انه يلقي ضوءا على طريقة شيخنا عبدالقاهر في النقد والمفاضلة بين أساليب الكلام وأنواعه •

(١) مقدمة الناشر ، ى •
(٢) مقدمة الناشر ، و ـ ز •
(٣) مقدمة الناشر ، ح •
(٤) الدلائل ص ٤ •
(٥) الدلائل ص ٤ •
(٦) الدلائل ص ٤ ـ ٥ •
(٧) الدلائل ص ٥ •
(٨) الدلائل ص ٦ •
(٩) الدلائل ص ٦ •
(١٠) الدلائل ص ٦ •
(١١) الدلائل ص ٩ •
(١٢) الدلائل ص ٩ •
(١٣) الدلائل ص ١١ •
(١٤) الدلائل ص ١٢ •
(١٥) الدلائل ص ١٥ •
(١٦) الدلائل ص ٢٠ •
(١٧) الدلائل ص ٤١٨ ـ ٤١٩ •
(١٨) الدلائل ص ٦ ـ ٧ •
(١٩) الدلائل ص ٧٦ •
(٢٠) الدلائل ص ٧٧ •
(٢١) الدلائل ص ٧٧ •
(٢٢) الدلائل ص ٤١٩ •
(٢٣) الدلائل ص ٤١٩ •
(٢٤) الدلائل ص ٤٢١ •
(٢٥) الدلائل ص ٤١٩ ـ ٤٢٠ •
(٢٦) الدلائل ص ٤٢١ ـ ٤٢٢ •
(٢٧) الدلائل ص ٤٢٢ •
(٢٨) الدلائل ص ٤٢١ •
(٢٩) الدلائل ص ٤٢٣ ـ ٤٢٤ •
(٣٠) الدلائل ص ٧٨ •
(٣١) الدلائل ص ٧٧ •
(٣٢) الدلائل ص ٧٥ •
(٣٣) الدلائل ص ٧٥ •
(٣٤) الدلائل ص ٧٨ •
(٣٥) الدلائل ص ٧٩ •
(٣٦) الدلائل ص ٨٠ •
(٣٧) الدلائل ص ٨٠ •

جوهر الدولة بين الفوضى والنظام

عبد الحميد العلوجي

ما هي الدولة ، وما كنهها ، ومفهومها ؟ .. هذا ما يجب أن يستوعبه « جوهر » الدولة ، ولكن الفلاسفة والكتاب والفقهاء لم يعقدوا شيئا كما عقدوا جوهر الدولة ، ولم ينثروا من الأقيسة الفاسدة على مسألة ما كالذي نثروه على الدولة ، ولم يسبغوا من المغالطات المحبوكة والتصورات الطائشة على أي كائن ما اسبغوه على الدولة .

وجوهر الدولة أعلق بالعلوم الاجتماعية والتاريخية والفلسفية والسياسية والنفسية منه بعلم القانون الدستوري ، فهذا يفترض وجود الدولة ليشيد الدراسة عليها كمقدمة للنظم السياسية ، ولا يميل الى الاحاطة بجوهرها .. ولكنني عندما وجدته يستغرق الفكرة القانونية السائدة في مضماره .. رأيتني مكرها على استجلائه ، ليكون في الوسع تشخيص الوعي الانساني الضارب في أعماق الفكرة القانونية . فالفلسفة وعلم النفس والانثروبولوجي ، وغير ذلك من العلوم الانسانية ليست — في مذهبي — سوى أدوات الزينة لعروس يقال لها « الفكرة القانونية » !!

وانني حين وجدت فقهاء القانون الدستوري واساتذته يتناولون — في آثارهم — جوهر الدولة أشلاء موزعة على مختلف المذاهب الواقعية والمثالية وعلى شتى النظريات الباحثة في أصل الدولة(١) .. وجدت المبرر المقبول لان ابحث جوهر الدولة مستقلا ، ومن بابه العريض . فهذا أجدى من التطلع — خلال النوافذ — على جميع النظريات المتنازعة .

يقول امرسون : « ان كل الناس يبتهجون حين يتوجون » ، وقد احتفل الحكام بولادة الدولة ، وتبرع الفلاسفة والفقهاء لتبرير وجودها بشتى المذاهب والنظريات ، وليس هناك سوى القليل من الانظمة التي حظيت من الثناء والاطراء بأكثر مما حظيت به الدولة باعتبارها نظاما سياسيا .. حتى ان هيغل صرخ في معاصريه : « ان الدولة هي الفكرة المقدسة التي تعيش فوق الارض »(٢) .

وهيغل هذا قد شيد للدولة كيانا فلسفيا مثاليا على أساس أن الواقع الملموس مظهر من مظاهر الفكر ، وان الوعي هو الذي يحدد الحياة .. فلا غرو اذا كانت الدولة عنده تجسيدا خارجيا للفكرة المطلقة ، وسلطة غير محدودة مفروضة من الخارج على المجتمع ، وواقعا للعقل ، وتحقيقا لمملكة

الله على الارض .. فالدولة تنشيء نظاما متغلغلا في المجتمع وفي الحيـــاة السياسية ، وهي تحافظ على النظام لانها أسمى من الناس الخاضعين لهـا .. والمجتمع لاتنبع اصوله الا منها(٣) .

وعلى النقيض من هيغل كان ماركس وزميله انجلز ووارثهما لينين ، فهؤلاء يذهبون الى ان الواقع هو الذي يلد الفكر ، وان الدولة ليست واقع العقل .. وانما هي أحد منتجات المجتمع في مرحلة معينة من التطور .. بل انها الاعتراف بأن هذا المجتمع قد أصبح يتخبط في تناقض عصي على الحل مع نفسه وانه انشطر الى تضادات لايمكن التوفيق بينها(٤) .

بينما يرى وليم غودوين الفوضوي الانكليزي أن المجتمع تنشأ مــن حاجات الانسان ، وان الدولة نشأت من شروره وسوء أعماله ، فالمجتمـع خير والدولة شر لابد منه في بعض الاحيان . والى مثل هذا اندفع ميشـــال باكونين الفوضوي الروسي .. فالدولة – عنده – تؤلف حلقة ضرورية في السلسلة التي تقيد حيوانية الانسان بانسانيته ، وهي ليست شيئا أزليـا نهائيا مطلقا ، وانما هي مؤسسة تاريخية انتقالية ، وشكل عابر من أشكال المجتمع ، وهي أبدا مثقلة بجميع الشرور المترتبة على الانحطاط ، فهي تجرد الانسان من الاخلاق وتفسد طبائع الحاكمين(٥) .

وللدولة أنصار من الفقهاء والفلاسفة ما انفكوا يتشبثون بمغزاهـا الاخلاقي . وقديما دلل ارسطو على ان للدولة قيمة خلقية كامنة في ثناياها وانها ليست مجرد فرض ارادة غاشمة ، فالحياة فيها تظهر ما هو كامن في الطبيعة البشرية ، وجاء بيرك يحدد ويوضح ما قال ارسطو جاعـلا معنى الدولة ينبع من واقع كونها شركة في جميع العلوم والفنون(٦) ، وفي كـل نواحي الفضيلة(٧) .

وقال هنري ارفون : ان الدولة هي نطاق الغيرية الحميدة ، وفيهـا تنسجم غايات الفرد متناغمة مع غايات الجماعة(٨) . وقد برر ول ديورانت وجود الدولة بالشعبية التي يجب أن تتمتع بها ، وعنده أن رئيس الدولـة هو رئيس خدم الشعب .

بقي علينا الآن أن نستقطر من الآراء الحائمة حول أصل الدولة وحول مشروعية سلطتها ما يصلح لتشكيل جوهرها الحقيقي ، النظيف من أي وهم ميتافيزيكي .

ان الدولة – في مذهب خصومها – لم تكن وليدة العقد الاجتماعي ، ولا ابنة التطور العائلي أو حصيلة التفويض الآلهي كما يحلو لبعض الفقهـاء أن يتصور .. وانما هي الواجهة الامامية الداكنة للعنف والاستئثار اللذين حملا رسالة الدفاع عن مصالح الجميع تغريرا وبهتانا ، فالدولة أمها الملكية وأبوها القتال(٩) .. وما العقد الاجتماعي ، والتفويض الالهي ، والتطـور العائلي الا نسيج خيال منافق حاول تبرير السلطة الالزامية التي تخـدم

ذوي النفوذ الاقتصادي ، فهناك شبه اجماع انعقد بين الشيوعيين والفوضويين والمحافظين والفاشيين على أن نظرية العنف والتغلب هي المنظار الصالح الذي يشخص جوهر الدولة ، وقد دافع عنها كتاب كثيرون لا يحصرهم عد ، واقتربت منها آراء ديكي وبارتلمي في تفسيرهما لسيادة الدولة . فالحرب هي التي تخلق الدول .. وهذه بدورها تخلق الحرب ، فهي ليست صلة انسان بانسان ، وانما صلة دولة بدولة(١٠) ، وهي ـ فوق ذلك ـ الأداة المختارة للانتخاب الطبيعي بين الدول ، وقد ساهمت في تشكيل دول قومية ثلاث في اوربا سنة ١٥٠٠م . ويمكننا أن نتبين ، بوضوح سافر، جوهر الدولة خلال رحلة ماتعة بصحبة مفكرين ذوي وزن قالوا في الدولة ما طرحها على الارض منزوفة .. فهذا نيتشه يقول : « ان جماعة من الوحوش الكواسر ، شقراء البشرة .. جماعة من الغزاة السادة بكل ما لها من انظمة حربية وقوة منظمة تنقض بمخالبها المخيفة على طائفة كبيرة من الناس ربما فاقتها من حيث العدد الى حد كبير ، ولكنها لم تتخذ بعد نظاما يحدد أوضاعها .. ذلك هو أصل الدولة » .

وهذا ليستر وارد يقول : « تبدأ الدولة باعتبارها مختلفة عن النظام القبلي بأن يغزو جنس من الناس جنسا آخر » .

والى نفس المعنى ذهب اوبن هايمر بقوله : « انك لترى أينما وجهت البصر قبيلة مقاتلة تعتدي على حدود قبيلة اخرى أقل منها استعدادا للقتال ثم تستقر في أرضها مكونة جماعة الاشراف ومؤسسة لها الدولة » .

وذهب ريتسنهوفر الى « أن العنف هو الاداة التي خلقت الدولة » ، وأيده غامبلافكس قائلا : « ان الدولة نتيجة الغزو ، وهي قيام الظافرين طبقة حاكمة على المهزومين » . وفي هذا المعرض نفسه قال سامنر : « ان الدولة نتيجة القوة ، وهي تظل قائمة بسند من القوة » ، وقال ول ديورانت : « الدولة سلام في الداخل استعدادا للحرب في الخارج »(١٢) ، وقال اشبنجلر : « ان الدولة هي الهجوم بمعناه الحقيقي »(١٣) .. وقد صرح هذا الكاتب النازي في عدة مناسبات قائلاً : « ان الحرب ينبوع لكل عظيم ونبيل ، وان الدم هو صانع التاريخ الحقيقي »(١٤) .

فالدولة ـ في عقيدة مفكري الطليعة النازية ـ هي تجسيد التوفيق بين العقل والقوة ، ولذلك رأوا أن للدولة الحق في أن تثبت وجودها ، وان تظهر قوتها الى حيز الوجود بالشكل الذي تراه .. وما الحرب الا ضرورة من ضرورات وجود الدولة .. ومن هنا بادر هتلر الى انشاء دولة عرقية سندها الفوضى اللا دستورية . ولم أجد مثيلا لهتلر بين مؤسسي الدول في تقييمه لجوهر الدولة عاريا كما خلقته الرغبة في التعسف والاستئثار .

اما لينين فقد قال : « الدولة تؤول بالضبط الى جهاز الحكم الذي ينفصل عن المجتمع البشري .. وعندما يظهر فريق من الناس لا عمل له

غير الحكم ، ويحتاج لاجل الحكم ٠٠ لاجل اخضاع الآخرين بالعنف الى جهاز خاص للقسر والسجون ٠٠ الخ ٠٠ عندئذ تظهر الدولة »(١٥) و « ما البرلمان والانتخابات الا دمى وبيادق »(١٦) ٠

ولينين ، في هذه الآراء ، انما يستقي من ماركس الذي كانت الدولة عنده جهازا طبقيا للسيطرة أو خلق نظام يعطي الاضطهاد صفة المشروعية(١٧) ، ومن انجلز الذي كان ينظر الى الدولة من نفس الزاوية ، فهي عنده أيضا مؤسسة مؤقتة تستخدم في اضطهاد الخصوم بالقوة(١٨) ٠

ولم ينفرد لينين واستاذاه بما قالوا في صدد الدولة ، فقد سبقهم الى ذلك العلامة ابن خلدون بقوله : « ان الملك انما يحصل بالتغلب »(١٩) و « ان الدولة آلة لجدع الانوف »(٢٠) ٠

اما الفوضويون ، فقد رفع لواءهم المفكر الالماني ماكس ستيرنر الذي أرسل صيحته المشهورة : « ليس للدولة الا غاية واحدة هي تحديد الفرد واخضاعه واستعباده »(٢١) ٠

فجوهر الدولة ، في مذاهب من مر ذكرهم ، لحمته الحرب والعنف ، وسداه الملكية ٠٠ واعتقد ان ما سجلته عن اللحمة اكثر من اللازم ، وعلي الآن ان اعالج السدى :

كتب البروفيسور جيز يقول : حين تسيطر أية طبقة اجتماعية على السلطة السياسية فانها تسارع باستغلالها لخدمة مصالحها الخاصة ، ولا شك انها تفعل ذلك بنية حسنة ، ومن أجل هذا تعتقد ان مصالح طبقتها هي في الواقع مصالح المجتمع العامة(٢٢) ٠

وقال الشيوعيون : ما كتبه جيز انما ينبع من التعاليم التي تحوط الدولة بالرعاية والحنان ، وتبرر الاستثمار والامتيازات الاجتماعية تحت ستار النية الحسنة ٠ فالدولة قد أعلنت ـ منذ خلق الله العصا ـ « نحن نصون الملكية الخاصة كاملة » ٠٠ وليس بوسع انسان أن يحترم جميع الاوهام القديمة القائلة : ان الدولة هي المساواة العامة ٠ فما ذلك غير خداع ، فالمساواة تستحيل ما بقي الاستثمار(٢٣) ٠

فالملكية الخاصة ـ كما يرى هنري ارفون ـ هي القاعدة الطبيعية للدولة(٢٤) ٠ وقديما قال روسو : « القوانين نافعة دائما لمن يملك ، مضرة لمن لا يملك »(٢٥) ٠

وأيا كان الامر ، فالدولة شيء ما خارق ، وانها قوة ما عاشت بها البشرية ، وانها تعطي الناس ما يتوقون اليه ٠٠ واذا ما استبعدنا الفوضوي المتفلسف ، والنازي الحاقد ، والشيوعي المناويء وجدنا ان الناس يملكون اعترافا عاما بضرورة وجود سلطة الزامية تحدد لوائح السلوك الاجتماعي التي يمكن السماح بوجودها ٠٠ ولعل هذه السلطة لا تكون ضرورية الا في ظل النظام الديمقراطي النابع من صميم سلوكنا ٠

(١) وهي : نظرية القوة أو التغلب ، والتفويض الالهي ، والعقد الاجتماعي ، والتطـور التاريخي ٠٠ وقد بحث في هذه النظريات الدكتور مصطفى كامل (شرح القانون الدستوري ، بغداد ١٩٤٧ ــ ١٩٤٨) والدكتور عثمان خليل عثمان (القانون الدستوري ، بغداد ١٩٣٩ ــ ١٩٤٠ والقاهرة ١٩٥٦) وغيرهما ٠٠٠

(٢) هارولد لاسكي : الدولة نظريا وعمليا (الترجمة العربية ، القاهرة ، بلا تاريخ) ١ : ١١ ــ ١٢

(٣) هنري لوفافر : كارل ماركس (ترجمة محمد عيتاني ، بيروت ١٩٥٩) ص ٩٥ و ٩٧ فريدريك انجلز : أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة (ترجمة الـدكتور فؤاد أيوب ، دمشق ١٩٥٨) ص ٢٦١ هنري رافون : هذه هي الفوضوية (ترجمة محمد عيتاني ، بيروت ١٩٥٣) ص ٢١ لينين : الدولة والثورة (ترجمة فؤاد أيوب ، دمشق ١٩٥٥) ص ٩٩ مجلة الثقافة الجديدة (البيروقراطية والدولة ــ بقلم باحث) العدد الاول ١٩٥٣ ص ١٩ ٠

(٤) أصل العائلة : ٢٦١ ٠

(٥) هذه هي الفوضوية : ٣٥ و ٦٧ ــ ٦٨ ٠

(٦) جورج سباين : تطور الفكر السياسي (ترجمة حسن جـلال العروسي ، القاهرة ١٩٥٤) ١ : ١٤٩ و ١٥٢ و ١٥٣ ٠

(٧) الدولة نظريا وعمليا ١ : ١٤

(٨) هذه هي الفوضوية : ١٢

(٩) ول ديورانت : قصة الحضارة (ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود ، القـاهرة ١٩٤٩) الجزء الاول ، المجلد الاول ، ص ٤٣ ٠

(١٠) قصة الحضارة ١/١ : ٤١ جان جاك روسو : العقد الاجتماعي (ترجمة عـادل زعيتر ، القاهرة ١٩٥٤) ص ٣٨ ٠

(١١) قصة الحضارة ١/١ : ٤٣ ٠

(١٣) ادمون فرمي : مفكرو الثورة الالمانية الكبرى (ترجمـــة خيرت فخري ، دمشق ١٩٥٢) ص ٧٣ ٠

(١٤) المصدر السابق : ٧٢ و ٧٤ ٠

(١٥) لينين : الدولة (موسكو ، بلا تاريخ) ص ٨ ٠٠ وقد ردد لينين ما قال في عدة مواضع من هذا الكتاب؛ ان كنه الدولة جهاز يتكون من فصائل الجنود المسلحين والسجون وغير ذلك من وسائل الاخضاع ٠٠ والدولة جهاز خاص لاستعمال العنف بصورة منظمة ولاخضاع الناس بالعنف (ص ٧) والدولة آلة لصيانة سيادة طبقة على اخرى (ص ١١) والدولة آلة لظلم طبقة من قبل طبقة اخرى (ص ١٣) ٠

(١٦) الدولة : ٢١

(١٧) الدولة والثورة : ١١

(١٨) من رسالته الى ببيل المؤرخة في ١٨ــ٢٨ آذار ١٨٧٥ (الدولة والثورة : ٧٧) ٠

(١٩) مقدمة ابن خلدون (بيروت ، بلا تاريخ) : ١٥٧

(٢٠) المصدر السابق : ١٧٥ ٠

(٢١) هذه هي الفوضوية : ١١٢ ٠

(٢٢) الدولة نظريا وعمليا ٢ : ١٣١ــ١٣٢ ٠

(٢٣) الدولة : ٢١

(٢٤) هذه هي الفوضوية : ٦٩ ٠

(٢٥) ول ديورانت : مباهج الفلسفة (ترجمة الدكتور أحمد فؤاد الاهواني ، القاهرة ١٩٥٦) ١ : ١١٩

إشراق

محمد اسماعيل الاسعد

مرت رياح البحر من زمن فما   يبقيك يا حبي مع الاسفار ؟!
أنا قد نسجت على الاسى ترنيمة   خضراء من وهج الفؤاد العاري
جدلتها بأصابع معروقة   حفرت وراء البعد في الاغوار
دنيا على صدري الغريب يمسها   صوت الاله ، فيشرئب نهاري
تبتل أشواقي ، وتنشر زهرة   في القلب أغصنها ، وتبسم داري
يا أنت ، يا أمزوجة بخضارها   تهمي علي ، بدفئها المعطار
يا أنت يا صوتا من الاعماق يا   وعدا يدق على الضياع جداري
أحيا أنا للوعد ، أفتح شرفتي   وأذيب في وهج الهوى أوتاري
متوحد خلف الدهور أريقها   جمرا ، أمزق ثوبها المتواري
تخضر اشرعة الرحيل على المدى   وتهف من أشواقها أستاري
أحيا أنا للوعد تحرقني المنى   وتحز قلبي لوعة الابحار
وأصيخ أسمع رفة مبتلة   تنساب في حقل من الاسرار
وحفيف طارقة على باب الرؤى   تأوي الي فينتشي قيثاري
فافيق أجمع قطرة منثورة   همست بها الاغصان للاسفار

●

النزعة السيكولوجية في التربية والتعليم

علية الكيارة

عني المسلمون بتلقي العلم عن المدرسين عناية ملحوظة ، وكرهوا كراهة شديدة ان يتلقى الطالب عن الكتب وحدها ، وكان بعضهم يقول : «من اعظم البلية تشييخ الصحيفة اي ان يتعلم الناس من الصحف » وورد في كتاب الشكوى « من لا شيخ له فلا دين له " ومن لم يكن له استاذ فامامه الشيطان » • وهذا الكتاب قديم جدا لم يعرف مؤلفه ونشر عنه في مجلة : Journal Asiatique, 1940 PP. 284-285

وروى عن مصعب بن الزبير أنه قال : « ان الناس يتحدثون بأحسن ما يحفظون ، ويحفظون أحسن ما يكتبون ، ويكتبون أحسن ما يسمعون ، فاذا أخذت الادب فخذه من أفواه الرجال فانك لا تسمع الا مختارا ولؤلؤا منثورا » •

ولقد وردت في تذكرة السامع : « وروى عن الامام الشافعي قوله : « من تفقه من بطون الكتب ضيع الاحكام » وفي رسائل اخوان الصفا : « أنه ليس في كل أنسان معرفة العلوم في أول مرتباته ، ومن أجل هذا يحتاج كل انسان الى معلم او مؤدب أو استاذ في تعلمه وتخلقه واقاويله واعتقاده وأعماله وصنائعه • ومن مفاخر المسلمين أنهم ادركوا ان العلم وحده لايكفي ليكون سلاح المعلم ، وعرفوا ان لابد من أن يضاف الى العلم فن التربية ، ليتمكن المدرس من دراسة نفسية الطفل والنزول الى مستواه ، والاتصال العاطفي به ، ليكون جسرا يوصل خلاله العلم الى عقل التلميذ ، قال ابن عبدون : « والتعليم صناعة تحتاج الى معرفة ودربة ولطف ، فانه كالرياضة للمهر الصعب الذى يحتاج الى سياسة ولطف وتأنيس حتى يرتاض ويقبل التعليم » •

وقد عقد ابن خلدون فصلا شرح فيه هذه النظرية وجعل عنوانه « فصل في أن التعليم للعلم من جملة الصنائع » وهو يقول فيه :

« مما يدل على ان تعليم العلم صناعة اختلاف الاصطلاحات فيه ،فلكل امام من الائمة المشاهير اصطلاح في التعليم يختص به شأن الصنائع كلها

فدل على ان ذلك الاصطلاح ليس من العلم والا لكان واحدا عند جميعهم ·· وملازمة المجالس العلمية ، وكثرة الحفظ ، والعناية بتحصيل العلم ليست جميعها بمانحة ملكة التصرف في العلم وتعليمه ·· ومن اهم ما يلزم في المعلم فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة ، والعمل على تحصيل الملكة التي هي صناعة التعليم والاهم من ذلك دراسة نفسية الطفل والنزول الى مستواه والاتصال العاطفي به ، والذى يذكرنا بأهمية هذا الشرط التربوى في ممارستنا للتدريس والرجوع الى النزعة السيكولوجية في التربية والتعليم التي لم تغب عن بصيرة أجدادنا والتي هي المنار الذى يحثنا ويذكرنا بأن لاننسى تراثنا القديم وعظمته في التربية ، فعند قراءتنا لهذه السطور التي جاءت عن اجدادنا ذكرتنا بالنزعة السيكولوجية الحديثة ، العلمية والاجتماعية ،وليدة النزعة الطبيعية التي اوجدها الفيلسوف الفرنسى جان جاك روسو ، فلقد أخذ قادة النزعة السيكولوجية مبادىء روسو الطبيعية وزادوا عليهاوشرحوها ثم وضعوها باطار عملى حيث سهلوا على المربي استعمالها في التدريس كما فعل اجدادنا تماما ·

ان النزعة الطبيعية وجهت سهام النقد الى فكرة التربية الترويضية وجعلت الرغبة والميول الطبيعية أساسا للتربية والتعليم وهذه تؤيد قول ابن عبدون في كتاب « رسالة ابن عبدون » ص: ٢١٥ نشرت في المجلة الاسيوية سنة ١٩٣٤ « بأن التعليم صناعة تحتاج الى معرفة ودربة ولطف ، فانه كالرياضة للمهر الصعب الذي يحتاج الى سياسة ولطف وتأنيس حتى يرتاض ويقبل التعليم » ومن ذلك اليوم نرى اهتمام المربين الواقعيين بالطبيعة قد حصروا اهتمامهم في طبيعة الطفل ووضع قانونه الطبيعي وعلى رأسهم جان جاك روسو سنة ١٧١٢ ــ ١٧٧٨ · اما النزعة السيكولوجية الجديدة فأنها عنيت بدرس الطبيعة البشرية على اصول علمية فدرست العقل وتكوينه الفسيولوجي ثم طرق التفكير وجعلت النتائج التى وصلت اليها من هذا الدرس الدقيق اساسا للتربية الحديثة ، وبعدها انصرف قادة هذه النزعة الى اصلاح طرق التعليم والى تدريب المدرسين بمقتضى الروح الجديدة فوضعوا مبادىء للتربية ليتمكن المعلمون من تطبيقها بصورة عملية في المدارس ·

يمتاز قادة النزعة السيكولوجية بكونهم اول من درس حياة الطفولة وعطف على الطفل واحترم ميوله ورغباته · وهنا يتضح لنا عندما ندرس آراء كبار المربين في هذا الطور ، حيث وضعوا نظرياتهم في التربية والتعليم على طريقة استقرائية تجريبية اى أنهم دونوا ما وصلوا اليه من ملاحظات ، ومشاهدات ، واستدلالات واستنتاجات ، واختبارات عملية واقعية أثناء مخالطتهم للاطفال · فابتكروا الطرق والاساليب التي تتناسب مع تلك التجارب والاختبارات ومن أهم ما وصلوا اليه من مميزات النزعةالسيكولوجية

الاعتقاد بأن التربية هي الواسطة الوحيدة لتنمية قوى الطفل ومواهبه الطبيعية وقد عرف المربي السويسري بستالوزى سنة ١٧٤٦ ـ ١٨٢٧ التربية بقوله « هي تنمية جميع قوى الفرد بصورة موزونة ومتناسبة » وجاء قوله نتيجة تجارب طويلة مرت على حياته حيث انه رعى ملجأ للايتام ثم تعهد بتربية طفله وكتب كتابه الشهير « يوميات او اختبارات اب » وكانت عنايته هذه تسير بتطبيق مبادىء الفيلسوف روسو حيث آكد على احترام قوى الطفل والسهر على حريته ، وضمان طاعته ، والسعي الدائب لبث المرح والحبور في الجو الذي يتربى فيه • اما الشيء الذي عني به بستالوزي قبل غيره فهو تنمية المشاعر الخلقية وقوى النفس الداخلية ، فلقد أراد ان يحبب نفسه الى الطلاب وان يوقظ لديهم اثناء اختلاطهم اليومي بعض مشاعر المحبة الاخوية ونتيجة تجاربه الطويلة شعر الكثير من الاطفال ، ان فيهم قوى كامنة يجهلونها وسرعان ما تكون لديهم احساس عام بالنظام والجمال والعطف والمحبة حيث اصبحوا ذوي ارادة وأولي بأس وقوة وحصلوا على الكثير من النجاح في حياتهم الدراسية وكانوا سعداء •

وأهم مبادىء بستالوزي في التربية هي الاهتمام بأولاع الطفل وقابلياته في تطبيق الطريقة الاستقرائية ويعتبر المحادثة اساس التعليم لرفع الطفل من الحدسيات الغامضة الى الافكار الواضحة وينبغي ان نشرح للطفل المفردات الواحدة تلو الاخرى ، قبل ان نحاول تفهيمه اياها مركبة ، فالمحادثة عنده تقدمة جميلة ، تقدم للطفل في وقت معين ما اعطته الطبيعة للانسان في أجيال •

وهو الذي نادى بتعميم التربية والتعليم لاصلاح حال الفقير وعامة الناس •

وتلت النهضة البستالوزية ، النهضة الهربارتية التي قام بها جون فردريك هربارت الالماني سنة ١٧٧٦ ـ ١٨٤١ وكانت متممة للاولى في القرن التاسع عشر ، اما الفرق المهم بين اعمال بستالوزى وهربارت ان الاخير كان متضلعا في الفلسفة والمنطق فنجد اقواله ونظرياته في التربية والتعليم خالية من المبالغات والتناقض ، اما بستالوزي فلا تخلو كتاباته في بعض الاحيان من روح المبالغة والتطرف التي ولدتها فيه عاطفته القوية ، وبالاختصار ، كان هربارت أبعد نظرا وأقوى صحة واقل اندفاعا من المربي السويسري •

واكبر خدمة تهذيبية قام بها الفيلسوف الالماني هربارت هي وضعه أسس مبادىء علم النفس الحديث ، فالنهضة التي بدأ بها الفيلسوف الانكليزي جون لوك جاعلا الطفل مركز النظريات التهذيبية والتي تناولها الفيلسوف المربي جان جاك روسو ودفعها بصورة اعم واكثر شمولا والتي اخذها بستالوزي وطبقها عمليا في المدارس تلك النهضة مدينة بشكلها العلمي الدائم للفيلسوف هربارت ، والذي أثار اعجابنا بهذا قوله « ان هدف

التربية الفضيلة ، والهدف الاسمى للانسان وللتربية بالتالى ، هي الاخلاق العالية » • ومما كتبه حول هذا الرأى « ان كلمة الفضيلة تعبير عن هدف التربية كله ، فالفضيلة هي فكرة الحرية الداخلية كحال ثابتة من حالات النفس » وان موقف هربارت من الحرية من حيث هي فكرة موجهة للتربية العملية تلخص في بضع جمل مأخوذة من كتابه « أقوال في التربية » فهو يقول ، « ليست الرقابة والمنع والتقييد ، والكف ، بالتهديد سوى وسائل سلبية في التربية ولم تكشف التربية القديمة عن ضعفها بقدر ما كشفتها بالاعتماد على الاجبار والقسر ، كما لم تكشف التربية الحديثة عن ضعفها بقدر ما كشفته بكثرة توكيدها للقيمة التي تعزوها الى الرقابة والاشراف ان منع ارتكاب الذنوب وقمعها لايصلحان الا اذا قام نشاط جديد يحل باستمرار محل ما يراد كفه ومنعه • فينبغي الا نبلغ بالفرد ، السذاجة والعجز والكسل ان لايرتكب الاخطاء والا فقل على الفضيلة أيضا السلام »• ويعرض علينا هربارت في كتابه « علم التربية » بأوضح عبارة ما ينجم عن الرقابة من صعاب ونقائص وأخطاء ايجابية ويصر على وجوب السماح للاحداث والشبان ان يتعرضوا للاخطار ان كنا نريد منهم ان يصبحوا رجالا • ويصر كذلك على ان السلطة والمحبة هما الوسيلتان الرئيستان لتهيئة عقول الاطفال للاستفادة من التربية والتعليم •

وبعدها جاءت النهضة الفروبلية سنة ١٧٨٢ ـ ١٨٥٢ وكان لنهضة المربي الالماني فروبل ميزة عظيمة وهي : ان القسم الاكبر من نظرياته في التربية والتعليم لايزال شائعا ومستعملا في وقتنا الحاضر ، والجديد عند فروبل اهتمامه بالاحداث ، واعطاؤه دورا اوليا لحركة اللعب في نظامه التربوي ، اذ ابتكر ، بصورة فنية منسقة ، في سبيل توجيه الحركة واستغلالها « الالعاب التربوية » وتجلت عبقريته في كونه لم يعتبر ، كسابقيه ، الالعاب وسائل للتشويق فقط ، بل عوامل تساعد على تفتح الطفل بكل ما يحمل في داخله من قوى واستعدادات • والجدير بالملاحظة هنا ، ان هذا المبدأ اتخذ اساسا لرياض الاطفال الحديثة •
"Kindergarten"

وتختلف نهضة فروبل عن نهضة هربارت في ان الاخيرة جعلت المعلم واصلاحه محورا لاعمالها التهذيبية اي انها بالغت في اهمية المعلم ، وأما نهضة فروبل فانها جعلت عمل الطفل الذاتي أساسا للنظريات واعتنت بتربية الطفل النفسية فابتكرت فكرة رياض الاطفال ووضعت لها أنظمة معينة • ان الفكرة الاساسية التي شيدت من أجلها رياض الاطفال هي مساعدة الطفل على أظهار شخصيته والسماح لقواه الكامنة الغريزية بالنمو والتكشف ، ولا يتسنى له ذلك الا اذا جعلنا اعمال المدرسة تدور على محور فكرة العمل الذاتي ، فليست الغاية الجوهرية من رياض الاطفال اكتساب

المعلومات وانما هي النمو ·· والمعلومات واسطة للوصول الى هذه الغاية · وهذه المعلومات وأن كانت في الدرجة الثانية من الاهمية فأنها ضرورية لايتم بدونها النمو المنشود ·

لذا نرى ان فروبل قد أولى « الالعاب التربوية » كامل عنايته لانـه لايرى في اللعب مجرد حركة طائشة، انما يراها نشاطا نابعا من الداخل وعامرا بالمعاني · ومن المهم لانجاح تربية الطفل ، ان يهتم الاباء والأسرة بهـذه الحيوية التي يشعر بها متحدا اتحادا صحيحا بحياة الطبيعة ، وان يعملوا على تهذيبها وتنميتها · وفي هذا الميدان يقدم لهم اللعب أثمن الوسائل ، لان الطفل لايظهر قط الا نشاطه الطبيعي ·

فاللعب أرقى درجات نمو الطفل ، لانه تعبير حر وتلقائي ينبع مـن الداخل استجابة لنداء الداخل ذاته ، فاللعب شهادة عن الذكاء الانساني في هذه الحقبة من الحياة ، فهو عامة نموذج وصورة عن الحياة بمفهومها الشامل حياة الطبيعة الداخلية ، والغامضة في البشر كما في الاشياء · لهذا كان لعب الطفولة لذة وحرية وانشراحا وسلاما مع الذات ومع الغير ، وسلاما مـع العالم ، فهو في النهاية ينبوع ومصدر لاجل المنافع ·

فالطفل الهادىء الصبور بطبيعته ، الذي يلعب باندفاع لحد ارهاق الجسد سيصبح حتما رجلا قوي العضلات ، هادئا ، ومستعدا للتضحية · أليس هذا العهد الذي يلعب فيه الطفل بكل حماس وثقة ، أجمل تعبير عن الحياة ؟ فهو تعبير حقيقي عن قابلياته للحياة · فلا يجوز أن ننظر للعـب كشيء طائش ، انما كشيء عميق المعنى · ليكن اذا موضع رقابة دقيقـة للمربين ، ففي هذه الالعاب التي يختارها الطفل عفويا ويندفع وراءهـا بشغف يتراءى مستقبله لأعين مربين اذكياء ودقيقي الملاحظة · فألعـاب هذا العمر براعم الحياة بكاملها ، لانه في الوقت الذي يتفتح الطفل بهـا ، يكشف عن أصفى استعداداته الداخلية · فحياة الانسان بكاملها ، حتى رمقه الاخير ، سواء كانت صافية ام قاتمة ، هادئة ام مضطربة ، عاملة ام خاملة ، خصبة ام قاحلة ، تستمد ينبوعها من عهد الطفولة ·

ولقد سبق ونادى بهذا شيخ المربين وحجة الاسلام (١٠٥٨ـ١١١١م) (او ٤٥٠ـ٥٠٥هـ) ابو حامد الغزالي بقوله : « ينبغي ان يؤذن للطفل بعد الانصراف من الكتاب ان يلعب لعبا جميلا يستريح اليه من تعب الكتب ، بحيث لا يتعب في اللعب · فان منع الصبي من اللعب ، فارهاقه الى التعلم دائما يميت قلبه ، ويبطل ذكاءه ، وينغص عليه العيش حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأسا · »

ثم يأتينا الفيلسوف الانكليزي سبنسر سنة ١٨٢٠ ــ ١٩٠٣ بكتابه « التربية العقلية والخلقية والبدنية » في هذا الكتاب وضع قوانينه العلمية المشهورة لنظرية التطور وفيه حاول تفسير جميع عوامل الكون ومظاهر الحياة

تفسيرا تطوريا • فهو يرى ان هناك ارتقاء تدريجيا من الجامد الى الحي ، ومن العضوى الى النفساني ، ومن النفساني الى الاجتماعي اي من الاسهل الى السهل فالمعقد • وقد جاءت ابحاثه التربوية العامة مطابقة تماما لهذا النظام • وجعل من اعداد الناشيء للحياة الكاملة غاية التربية ، ووجه عنايته بالدرجة الاولى للمواد العلمية والتربية البدنية لقيمتها النفعية والتهذيبية ، وفيما يعود لطريقة التدريس ، سار في الخط الذي سنه روسو وبستالوزي من حيث واجب احترام نشأة الطفل الطبيعية ، وشجب التعليم الذى لاينطلق من المحسوس • انما فضله يتجلى في وضع نظام علمي متين لقواعد التربية التي بذرها سابقوه • ولقد فسر سبنسر تطور الانظمة التربوية تفسيرا اجتماعيا وذلك بربطه بينها وبين الانظمة الاجتماعية ، مبينا ان المحرك الرئيسي لهذه الحركة التقدمية يكمن في النزعة الى التحرر وعنده التربية اعداد للحياة الكاملة ، ولا نعني هنا الحياة المادية ، انما الحياة بمفهومها الشامل • فالمشكلة العامة التى تتناول جميع المشاكل الاخرى هي : ما هو الطريق الواجب سلوكه في مختلف الحالات ، وفي سائر ظروف الحياة ؟ كيف ندبر الاعمال ؟ بأي كيفية نربي الاسرة ، كيف نقوم بواجباتنا كمواطنين ؟ والى أي طريقة نستند لاستغلال جميع مصادر السعادة التي تقدمها الطبيعة للانسان ؟ ماهو أفضل السبل لاستخدام ملكاتنا لمنفعتنا الكبرى ومنفعة الآخرين ؟ وأخيرا ما هي الكيفية التي تمكننا من حياة كاملة ؟ هذا هو الامر المهم الواجب على التربية ان تتولى معالجته وتعليمه • ان تعدنا للحياة الكاملة ، هذا هو هدف التربية والمقياس المنطقي الوحيد الذي نحكم به على نظام تربوى ، هو مدى تحقيقه لهذا الهدف •

ورأينا ان ما كتبه الفيلسوف هربرت سبنسر في كتابه (التربية ــ العقلية والخلقية والبدنية) فيه الكثير من الترديد والرجع لآراء ابن سينا التربوية (٩٨٠-١٠٣٧م) او (٣٧٠-٤٢٨هـ) حيث لم يحصر ابن سينا مهمة التربية باعداد الناشيء للحياة الاخروية ، كما هو الحال مع الغزالي ، بل جعلها دينية ودنيوية في آن واحد ، فالى جانب تعليم القرآن ومعالم الدين ومكارم الاخلاق ، أشار الى ضرورة تدريس الرسائل والخطب والحساب ، وحث بصورة خاصة الى وجوب تدريب الصبي على صناعة تتناسب وطبيعته ، وتمكنه فيما بعد من كسب عيشه •

ولم يؤيد طريقة التشدد والحرمان مع الاطفال انما نادى بوجوب مراعاة ميولهم وشهواتهم ، والابتعاد عن كل ما من شأنه ان يعقد عليهم الحياة ويعكر مزاجهم لايمانه ان صحة النفس والبدن تابعة لحسن المزاج •

وان ابرز ما تميزت به تربية ابن سينا هو حرصه على تدعيم آرائه بمبررات نفسانية ، وقد نجح نجاحا بعيدا في هذا الميدان ، مما يحمل على الاعتقاد ان ذلك يعود الى حد كبير الى امتهانه فن الطب •

وله رأي في رياضة الصبي مما يدعم رأي فروبل وهربارت وجان جاك روسو حين يقول :

« يجب أن تكون العناية مصروفة الى مراعاة اخلاق الصبي ، وذلك بان يحفظ كيلا يعرض لغضب شديد أو خوف شديد أو غم أو سهر ، وذلك بأن يتأمل كل وقت ما الذي يشتهيه ويحن اليه فيقرب اليه ، وما الذي يكرهه فينحى عن وجهه ، لا استجابة لامره ولكن تيسيرا للحياة عليه ، وفي ذلك منفعتان : احداهما لنفسه والثانية لبدنه ، اذ ينشأ من طفولته حسن الاخلاق تبعا لحسن مزاجه ، فالاخلاق الحسنة تابعة لصفاء المزاج ، والاخلاق الردية تابعة لسوء المزاج ، وحسن الاخلاق يحفظ الصحة للنفس والبدن جميعا .

واذا انتبه الصبي من نومه فالاحرى ان يستحم ثم يخلي بينه وبين اللعب ساعة ، ثم يطعم شيئا يسيرا ثم يطلق له اللعب وقتا اطول ثم يستحم ثم يغذى ... واذا بلغ ست سنوات فيجب ان يقدم الى المؤدب والمعلم ، ويدرج أيضا في ذلك ، فلا يحمل على ملازمة الكتاب كرة واحدة ، وعنده هذه السن ينقص من اجمامهم ويزداد في تعبهم ، من كتاب القانون ص ٧٩ . ومن كتاب منهاج المتعلم ١ :

« وعلى الأب ان يؤدب ابنه ويسلمه الى معلم ، فان لم يؤدبه ، أو لم يجلسه بين يدي المعلم ظهر الانحراف في جميع أعضائه خصوصا في لسانه » .

في اقواله هذه نراه مراعيا نظرية التطور وان ما يثير الاعجاب في هذه القطعة هو ، من ناحية دقة التعليل النفسي مما ترجعنا الى النزعة السيكولوجية في التربية والتعليم حيث ربط التربية الخلقية بحالة المزاج ، ومن ناحية ثانية ، الحرص على تأمين جو مفرح للطفل .

ولقد جمع ابن سينا في هذا البرنامج الذي سنه للطفل ، من عهد الطفولة الى سن الشباب ، بين شؤون الدين والدنيا ، ويلاحظ انه أشار الى بدء الدراسة « بكتاب الله » كما كان متبعا يومذاك . وان اشد ما يسترعي الانتباه منا ، الملاحظات التي يبديها في صفات المعلم ، وتربية الطفل مع رفاق له ، واختيار صناعة مؤاتية لطبيعته .

يقول : « فاذا اشتدت مفاصل الصبي ، واستوى لسانه وتهيأ للتلقين ، ووعى سمعه ، أخذ في تعلم القرآن وصور حروف الهجاء ، ولقن معالم الدين ، وحفظ الاشعار ما قيل منه في فضل الأدب ومدح العلم وذم الجهل وما حث فيه على البر بالوالدين وقرى الضيف والشفقة على الفقير ...

وينبغي أن يكون مع الصبي صبية حسنة آدابهم ، مرضية عاداتهم لان انفراد الصبي الواحد بالمؤدب أجلب لضجرهما ، ولان الصبي عن الصبي

الفن وهو عنه آخذ وبه آنس ... وأدعى الى التعليم والتخرج فانه يباهي الصبيان مرة ، ويغبطهم مرة ، ويأنف عن القصور عن شأوهم مرة ، ثم أنهم يترافقون ويتعاوضون الزيارة ، ويتكارمون ويتعارضون الحقوق ، وكل ذلك من أسباب المباراة والمباهاة والمساجلة والمحاكاة ، وفي ذلك تهذيب لاخلاقهم وتحريك لهممهم .

اما مؤدب الصبي فينبغي أن يكون عاقلا ذا دين بصيرا برياضة الاخلاق حاذقا بتخريج الصبيان ، وقورا ، رزينا ، بعيدا عن الخفة ، والسخف قليل التبذل والاسترسال بحضرة الصبي . فاذا فرغ الصبي من حفظ القرآن وتعلم أصول اللغة ، شرع بدرس الرسائل والحساب والعناية بالخط . وكما ذكرنا آنفا على المؤدب أن يبحث له عن صناعة ، فلا يجبره على العلم اذا كان غير ميال اليه ، ولا يتركه يسير مع الهوس ، اذ ليس كل صناعة يرومها الصبي ممكنة له مؤاتية ، لكن ما شاكل طبعه وناسبه . وانه لو كانت الآداب والصناعات تجيب وتنقاد بالطلب والمرام دون المشاكلة والملاءمة اذا ما كان احد غفلا من الأدب ، وعاريا من صناعته . واذا لأجمع الناس كلهم على اختيار اشرف الصناعات . وينبغي لمدبر الصبي اذا رام اختيار الصناعة ان يزن أولا طبع الصبي ويسبر قريحته ، ويختبر ذكاءه ، فيختار له الصناعة بحسب ذلك !!..

نستنتج مما ذكرنا آنفا وتوصلنا اليه من بحثنا هذا ان ابن سينا كان مربيا ، وطبيبا ومرشدا وعالما في الرياضيات والطبيعيات وفيلسوفا كبيرا ندين له بكثير من النظريات التربوية والنفسية الحديثة ، التي دللت على أن النزعة السيكولوجية في التربية والتعليم متممة للنزعة الطبيعية فاهتم قادتها بوضع أسس علمية لمبادىء روسو الطبيعية وتطبيق فكرته في المدارس بصورة عملية وحاول حاملو لواء هذه النهضة التوفيق بين فكرتي الاجهاد والرغبة . وهم أول من وضع مبادىء علم النفس الجديد ، ومن اشهر مميزات هذه النهضة ، الاهتمام بطرق التدريس ، الاعتناء بجعل سير التعليم مبنيا على دراسة الطفل والشفقة عليه ، العناية بالتربية الاولية وتعميم فكرة التعليم العام ، كحق طبيعي يجب أن يتمتع به جميع الاطفال .

مصادر البحث

أولا : الاجنبية

1. Biographical Encyclopedia of the world Personality in Education Third Edition — Institute for research in Biography, INc. 296 Board way New York, 7, N, Y,
Copyright under International Copyright Union PP — 697—783

2. Dr. T. J. DE Boir
Transelated with the saction of the Auther By: Edward R. Jones. B.D
The Book (The History of Philosopher in Islam) London Lungac d Co, 46 Great Russel Street, 1933. First Edition 1903

ثانيا : العربيـة

١ ـ كتـاب (القانون) لابن سينا ـ روما ١٥٩٣ ١ : ص ـ ٧٩
٢ ـ كتـاب (احياء علوم الدين) تأليـف ابن حامد محمـد الغزالي القاهرة ـ ١٣٠٦ هـ ٣ : ٥٧ ـ ٥٩
٣ ـ كتـاب (وفيات الأعيان) لأبن خلكان القاهرة ١٢٧٥هـ ١ : ٥٥٣
٤ ـ كتـاب (تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم) لأبن جماعه حيدر أباد ١٣٥٣هـ



الحب العذري عند العرب

احمد الربيعي

خلد الادب العربي لونا من الشعر رفيعا في مثله وفنـــــه . تمثل في شعر اولئك المحبين الذين عرفوا في العصر الجاهلي بالمتيمين ، كالمرقش الاكبر وأسماء(١) والمرقش الاصغر وفاطمة(٢) وعبدالله بن العجلان وهند(٣) وعبدالله ابن علقمة وحبيشه(٤) ومالك بن الصمصامه وجنوب(٥) . ثم أشهرهم عنترة وعبله(٦) . وقد أحب كل من هؤلاء المتيمين صاحبته حبا استأثر بحيـاته وفنه . وقصة كل اثنين منهم تصور في نشأتها وتطورها وعقباتها ونهايتها بيئة وتقاليد البادية أو القرى أو المدن العربية ، فقد نشأت اما في البادية حيث يخرج الفتى ينشد ضالته التي هامت منه في أرجاء الصحراء حتى اذا أعياه البحث وأجنه الليل مال الى حي من الاحياء فتأتيه فتاة الحي بالقرى فيأنس بها وتأنس به وتقع في نفسه ويقع في نفسها واذا بهذه الفتاة تصبح ضالته المنشودة في الحياة . أو أثناء الرحيل حينما ينفد ماء الركب فيعرجون على أول مضرب يقعون عليه فتخرج الفتيات بالماء فتتقابل العيون(٧) وتخفق الافئدة واذا بالفتى يلقى عصا الترحال حول هذا المضرب . أو في المرعى عندما يقع الغيث وينبت الكلأ وتخضوضر روابي البادية ويترنم مكاؤها(٨) ببشائر الخصب والنعيم فتبكر الفتيـــان والصبايا مع ديك الفجر بالابل والاغنام الى هاتيك الجنان التي تأرج الربيع بمروجها (وقد جاشت نفوسهم بأحلام الصبا الناعم)(٩) فيلتقيان عند منابت الكلأ أو منابع الماء متنافسين متنافرين كل يبغيهما لماشيته ، واذا بهذه المنافسة والمنافرة تقدح جذوة الحب في القلوب فيمضي كل واحد منهما وهو معنى بصاحبه ، ثم يضاعف شغفهما كلما التقيا . أو في الدار حيث تنشأ الفتاة مع ابن عمها أو ينشأ الفتى مع ابنة عمه فتنشأ بينهما (ألفه) تنمو وتتفتح مع الايام حتى اذا استيقظت بواكير صباهما اشتدت هذه الألفـــه فاصبحت « صبوة » فاذا للنظرة والبسمة والكلمة معان لم تكن لها من قبل . وما تزال هذه الصبوة تذكو مع تضج شبابهما حتى تضحى (هوى) يجمع بهما لعناق لا فراق بعده . فاذا هما يجدان في الزواج محط سعادتهما القصوى ، فيطمحان اليه . بيد أن ثمة عائق يحول بينهما ، فاذا ما شهر المحب حبيبته بما يرسل فيها من شعر فأذاع حبهما في الحي حرمت القبيلة زواجهما اتقاء مقالة السوء .

أو أن اسرته ليست كفء لاسرة الحبيبة ، ثرائها وجاهها فتأمل لفتاتها قريبا من اسرة كفء ، أو قد يسمع بجمال فتاتهم رجل من قبيلة أخرى ممن ينعمون بالثراء ويرفلون بالجاه فيقدم لخطبتها فيؤثرونه فيحملها الى دياره فيصعق فتاها ويلحق بأظعانها وقد طار قلبه وذهبت نفسه شعاعا وراءها • ولكن ما هو حتى يقف وجها لوجه أمام هذا الحاجز الصفيق من الزواج الذي حال بينه وبين جنة أحلامه التي باتت حليلة لرجل غيره ومحرما عليه • وتأبى عفته كما تأبى عليها عفتها أن تواصل حبيبها وهي في عصمة هذا الزوج مع شدة مقتها(١٠) لابن عمها الحبيب وشدة مقتها(١١) لهذا الزوج الغريب • وينقلب على حافرته(١٢) وقد أحس بغدرة الليالي التي اغتالت سعادته فقلبت تلك الاحلام العذاب أضغاثا من السقام والعذاب • وما يلبث أن يختلط لبه ويهيم على وجهه في فيافي الضياع • أو تهده الصدمة ويرميه الدنف في كسر الخباء • وتمر الايام دون أن يسلوها أو ينساها أو يكون له مأرب في امرأة سواها • وما تعتم ينابيع الآمال أن تفيض يأسا فينضب رواء غضه وتصوح زهرة شبابه فيقضي نحبه وجدا وكمدا(١٣) • أو قد تكون النهاية على غير هذه الحالة(١٤) فنرى الفتى وقد شد حيازيمه للصدمة فطوى جوانحه على جمرة الأسى تارة يداري سعير لوعاتها وتارة يضيق بما يكابد فيزفر الحسرات ويسبل العبرات ثم لا يتلبث طويلا حتى يفدحه البلاء فيصبح رهين البلى • أو قد يبتسم له الحظ فيظفر بمناه فيتزوجها ويعيشان أسعد ما يكون حبيبان • ولكن القدر الأنكد لايمهلهما اذ تكون الحبيبة عاقرا فيسعى به أهله لطلاقها ويتزوج بغيرها لينجب وريثا لاسم الاسرة • ويعز عليه مطلبهم • ولكنهم لاينفكون عنه فما يزالون به حتى يطلقها(١٥) فاذا به يعيش العمر بغصة الندم متقلبا في جحيم الحنين والحرمان •

وما أصدق تسمية هؤلاء العشاق بالمتيمين فالتتيم هو : التعبد • يقال تيمه الحب : يعني تعبده • وتيمته الحبيبة : استعبدت قلبه بحبها(١٦) • ولا شك ان حب هؤلاء المتيمين هو من دين هذه البادية أو القرى أو المدن العربية • وهو دين له تبعاته التي تتمثل في توحيد الحبيب وصدق الصبابة وعفة الوصال •

وفي العصر الاسلامي نجد امتدادين لحب المتيمين • الامتداد الاول في العشاق الذين سماهم الرواة (بالعذريين) كعروة عفراء وجميل بثينة وقيس ليلى وقيس لبنى وذي الرمة ومي وكثير غيرهم • وحب العذريين الاسلاميين هو نفس حب المتيمين الجاهليين • حيث نشأت كل قصة من قصص العذريين مثل ما نشأت كل قصة من قصص المتيمين ، في البادية أو أثناء الرحيل او في المرعى او في الدار • وتطورت وانتهت كما تطورت وانتهت تلك لانهم جميعا عاشوا في بيئة واحدة • ولذلك تشابهت أخبارهم واشعارهم • ومن هنا خلط الرواة فيها وحار النقاد في تمييز نسبتها • ومن هنا استغل

بعضهم هذا التشابه والتخليط للتشكيك في حقيقة وجودهم وصحة ما يروى عنهم ٠

لماذا سمي هذا الحب المثالي بالحب العذري ؟

لقد نسب الحب العذري الى قبيلة (عذرة) وهي قبيلة قحطانية او عدنانية على اختلاف النسابين(١٧) ٠ عرفت بين قبائل العرب بكثرة عشاقها الذين اشتهروا بعفة الصبابة وبالصباحة وبالفصاحة بحيث بلغ من حالهم أنهم اذا احبوا ماتوا حبا ٠

فصاروا رمزا لهذا الحب العفيف العنيف ٠ فنسب اليهم كل عاشق مثلهم ٠ قال رجل من بني فزاره : ليس حسي أصدق في الحب من بني عذرة ٠ ولا تضرب الامثال الا بهم ٠ قلت يوما لعذري : أتعدون موتكم في الحب مزية وهو من ضعف البنية وضيق الرئة ؟ فقال : أما والله لو رأيتم المحاجر البلج ترشق بالاعين الدعج من فوقها الحواجب الزج والشفاه السمر تفتر عن الثنايا الغر كأنها نظم الدر ، لجعلتموها اللات والعزى ونبذتم الاسلام وراء ظهوركم(١٩) ٠

وقيل لاعرابي : ممن الرجل ؟ فقال : من قوم اذا احبوا ماتوا ٠ فقالت جارية سمعته : عذري ورب الكعبة ٠ فقيل له : ومم ذاك ؟ قال : في نسائنا صباحة وفي رجالنا عفة ٠

أما لماذا نسب هذا الحب الى قبيلة عذرة وحدها بالذات دون قبائل العرب قاطبة ، فأستاذنا الجليل الدكتور يوسف خليف يرى ان ذلك يرجع الى : كثرة ظهور نماذج هذا الحب المثالي في قبيلة عذره ٠ وكثرة ظهور العشاق المثاليين في هذه القبيلة ترجع الى ما كانت تنعم به من استقرار وخصب حيث كانت تنزل البادية العربية شمالي الحجاز الى العقبة على البحر الاحمر في منطقة تسمى بوادى القرى ٠ وسميت بذلك لكثرة قراها ٠ وكثرت قراها لخصبها ولوقوعها على طريق القوافل بين الحجاز والشام ومصر ٠ والى ان الرواة رأوا في متيمي عذره ــ على كثرتهم ــ المثل الكاملة الصادقة لهذا الحب والالسن المعبرة عنه أدق تعبير وأروعه ٠ بالاضافة الى مثل التقاليد العربية التي تسيطر على الحياة الاجتماعية في البادية فتخلق هذا اللون المتميز من ألوان الحب الروحي ٠ وبالاضافة الى المزاج الخاص بأولئك العشاق الذين يدفعهم الى التوحيد والعفة والاخلاص دون اللهو والمجون ٠ وربما يرجع السبب ايضا الى ان اقدم من عرفه الرواة من أصحاب هذا الحب في العصر الاموى هو عروة بن حزام وكان عذريا من قبيلة عذره(٢١) ٠

ولا شك ان أستاذنا الجليل الدكتور يوسف خليف قد أجمل أهم الاسباب التي تفسر نسبة هذا الحب الى عذرة خاصة ٠ على اننا ــ مع ذلك ــ لو نظرنا الى القبائل الاخرى لوجدنا ظروفها مشابهة لظروف قبيلة عذرة ٠ فقد كانت الحيرة عريقة في العمران والخصب ٠ وهي امارة عرب العراق ٠ وقد عرفنا من عشاقها المثاليين عمرو بن كعب بن النعمان بن المنذر ملك

المناذرة وابنة عمه عقيلة(٢٢) • واياس بن مرة القيسي ـ وامه من بكر بن وائل ـ وابنة عمه صفوة • التى ارتحلت مع ابيها الى اليمن(٢٣) • كما كانت اليمامة شرقي الجزيرة العربية حاضرة عامرة بحصونها وقراها وبساتينها • وهي اشبه مدن الجزيرة العربية بالمدينة • وقد عرفنا من عشاقها المثاليين المرقش الاكبر وابنة عمه أسماء(٢٤) • ومن ولد اخيه ـ حرملة ـ اشتهر المرقش الاصغر(٢٥) وابنة عمه فاطمة • وهما جاهليان من طيء • وعمرو وابنة عمه عقيلة بنت النجاد بن النعمان بن المنذر • وهما من بني حنيفة ثم من ربيعة • وكانا معاصرين للفرزدق(٢٦) •

أما مكة فعرفنا من عشاقها في الجاهلية مسافر بن أبي عمرو القريشي وكان يتعشق هندا بنت عتبه وقد مات في هواها فرثاه أبو طالب ـ عم النبي ص ـ وكان صديقا له(٢٧) •

ولا شك ان مثل التقاليد والبيئة التي خلقت هذا اللون من الحب المثالي في وادى القرى هي نفس مثل التقاليد والبيئة التي خلقته في الحيرة واليمامة وغيرهما • ولاشك ان هؤلاء العشاق جميعا قد احبوا أصدق الحب وعبروا عن حبهم أروع تعبير • والذى اود ان اذكره في تفسير نسبة هذا الحب الى عذره ـ بالاضافة الى ما ذكره استاذنا الجليل الدكتور يوسف خليف ـ هو أن الرواة هم الذين نسبوه الى عذرة بالذات فقد كان جلهم من المدينة وكانت المدينة مركز الرواية والتدوين في اوائل القرن الاسلامي الاول الذى اشتهرت فيه نسبة هذا الحب الى عشاق عذره • ولا شك ان هؤلاء الرواة هم الذين عنوا بأخبار العشاق فكانوا اكثر معرفة بقصص عشاق عذره من عشاق القبائل الاخرى والتي كانت اقرب مدن الحجاز الى وادى القرى الذى تنزله عذره •

وقد تقول : فما بال هؤلاء الرواة لم ينسبوا هذا الحب الى عشاق القبائل التي تنزل المدينة وهم اقرب العشاق اليهم والرواة بحكم هذا اكثر معرفة بقصصهم وشعرهم من عشاق عذرة في وادي القرى او ينسبوه الى عشاق القبائل في مكة وهي أهم واكبر مدن الحجاز في العصر الاسلامي الاول؟ فأقول : ان المتيمين لم يظهروا بكثرة في الحرمين الشريفين لان اكثر شبابها يومئذ وخاصة من أبناء الصحابة وابناء الامويين والمروانيين قد انغمروا في الثراء الذى صبته عليهم الفتوحات فانصرفوا الى التمتع بلذائذ الحياة الجديدة التي انعكست صورها في شعرهم غزلا لاهيا عابثا الا من كان من هؤلاء الشباب متعففا بمزاجه ومتساميا بمثله كقيس بن ذريح الذي كان أخا في الرضاعة للحسين بن علي عليهما السلام(٢٨) • أما عشاق القبائل الاخرى التي كانت تسكن اطراف الحجاز وتجد كعشاق بني عامر فقد كاثروا عشاق بني عذرة(٢٩) ولكن الرواة خلطوا في أخبارهم مما يدل على بعدهم عنهم بالنسبة لقربهم من عشاق بني عذرة •

أما الامتداد الثاني لحب المتيمين فقد تمثل في العشاق الزهاد كعبد

الرحمن الذي لقب بالقس(٣٠) لشدة تقواه وبشر الذي لقب بالعابد لشدة عبادته(٣١) وسواهما كثير من الشباب الذين تبتلوا لله تعالى في المساجد يقرأون القرآن الكريم ويحفظون الحديث النبوي الشريف في الحرمين والكوفتين وغيرهما من المراكز الاسلامية الكبرى • ولكن قلوبهم التي أرهفتها العبادة والتقوى لم تسلم من ملاك الحب بل لعلها كانت أكثر القلوب تعرضا لسهامه وأشدها تأثرا بهما • وقد امتزجت في تلك القلوب الزكية العفة بالتقوى فكان حبهم روحيا خالصا بلغ أسمى معارج الطهر والصفاء وكاد يلغي الجسد الغاء كليا •

وبهذا يمثل العشاق الزهاد غاية الحب المثالي ونهايته التي فتحت اول باب للتصوف حتى غدت اسماء معشوقات العذريين كليلى ولبنى وهند وبثينة وعزه رموزا عند الصوفية الى محبوبهم الاعظم وهو الله جل جلاله لما أصبحت تدل عليه تلك الاسماء من معاني العفاف والصفاء المطلق(٣٢) • فانظر كيف تتمثل أنبل وأجمل مشاعر العفة والتقوى في حب عبدالرحمن لسلامة المغنية • فقد مر ذات يوم بجارية تغني فوقف فسمع غناءها فلما رآها شغف بها وشغفت به • وشاع حبهما في مكة فقالت له : ذات يوم : أنا والله أحبك • فقال وأنا والله أحبك • قالت : اني والله اشتهي أن أضع فمي على فمك • قال : وانا والله أحب ذلك • قالت : فما يمنعك فان الموضع لخال ؟ فقال : ويحك اني سمعت الله يقول: الاخلاء يومئذ بعضهملبعض عدو الا المتقين(٣٣) • فأنا والله اكره ان يكون صلة ما بيني وبينك في الدنيا عداوة يوم القيامة • ثم نهض وعيناه تذرفان بالدموع(٣٤) من حبهما • ولاشك ان دموع هذا القس المتيم هي عصارة العفة العربية والتقوى الاسلامية • فقد ضرب القرآن الكريم مثلا للعفة في قصة يوسف الصديق عليه السلام(٣٥) ومن ناحية ثانية وقف موقفا صريحا وحازما من علاقة الرجل بالمرأة حيث حث على التعفف وحذر من العلاقات غير المشروعة وأوجب على مرتكبيها أقسى الحدود وحبب الزواج ويسر أسبابه كما نرى في الآيات الكريمة التالية : قد أفلح المؤمنون الذين هم لفروجهم حافظون الا على أزواجهم وما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فاولئك هم العادون(٣٦) • قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم ان الله خبير بما يصنعون عليم ، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن • وان يستعففن خير لهن(٣٧) •

فهذه الآيات وكثير معها كلها تحث الشباب المؤمن على الاستعفاف والزواج •

ومما ينسب للرسول صلى الله عليه وآله وصحبه قوله « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فانه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء(٣٨) • » وقوله : من أحب فعف ومات مات شهيدا(٣٩) • وعن ابن عباس قال : لما اعتقت بريره – وكان

زوجها حبشيا وفي رواية اسود ـ خيرت فاختارت الفسخ فجعل يطوف في المدينة باكيا يترضاها فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو تزوجته فقالت : ان امرتنى بذلك • فقال : لا آمرك ولكني شفيع(٤٠) •

أما الخلفاء الاول فكانوا يترفقون بهؤلاء العشاق ويباركون حبهم العفيف ويبذلون وسعهم في تحقيق سعادتهم • شكا أحدهم الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بلواه في الهوى فقال له عمر : ذلك ما لايملك(٤١) • وأحب مؤذن الامام علي كرم الله وجهه جارينه ، فوهبها له(٤٢) • وسعى الحسين عليه السلام في خطبة لبنى من ابيها الى قيس بن ذريح وتزويجها اياه مرتين(٤٣) • كما سعى في زواج عروة بن قيس(٤٤) •

ولابد لنا من مناقشة الباحثين الذين تعرضوا للحب المثالى • فقد حاول موسى سليمان ان ينفي عن هذا الحب مثاليته وان يجعل فيه من الغريزة والعفة بمقدار ما في العاشقين من الجسد والروح • وانه لم يرتفع عن مادية البشر الى روحية الملائكة • وصوره حبا فيه وصال ونوال بين الحبيبين • وصب همه على نفي مثاليته واثبات ماديته(٤٥)

وسوف يأتي ردنا عليه خلال كلامنا عن مثالية هذا الحب •

أما الدكتور عبدالستار الجوازي فقد عزا نشأته الى قبيلة عذره التي كانت تسكن بوادى الحجاز وزعم انه ظهر في اواسط القرن الهجرى الاول بالدرجة الاولى نتيجة للحصانة التي ضربها الاسلام على علاقة الرجل بالمرأة• وبالدرجة الثانية نتيجة لعفة التقاليد العربية في البادية • ولم يميز بين هذا الحب المثالى عن ذلك الغزل اللاهي الذي كان الشاعر الجاهلى يستهل به قصيدته فقال : « ظهرت صورة هذا الحب في الادب العربي في اواسط القرن الهجرى الاول في عذرة وحدها ولم تكن قد عرفته لا هي ولا غيرها من القبائل من قبل • واذا اردنا ان نكشف عن تاريخه وجدناه وليد التطور الاجتماعي الجديد الذي أحدثه الاسلام في الحياة العربية • على اننا اذا نظرنا في الادب الجاهلى لوجدنا في بعض ثناياه بذورا لعاطفة الحب وصورة بسيطة من صوره فيها سذاجة وليس فيها السعة التي ننشدها في الحب العذرى ولا الاغوار البعيدة التي ينفذ اليها في النفس ولا الافاق الواسعة التي ينبسط فيها • وآية ذلك ان عاطفة الحب في الشعر الجاهلى يعوزها الاستمرار والثبات فلا يكاد الشاعر يلم بها حتى يستطرد منها الى وصف الناقة التي توصله الى الحبيبة أو المفازة التي يقطعها من أجل لقائها • ولعل هذا بالاضافة الى العوامل الاجتماعية ـ التي سنفصلها فيما بعد ـ يبيح لنا ان نرجع ظهور هذا الحب الى ما بعد انبثاق فجر الاسلام وتمكنه في نفوس العرب ، وقدنشأ هذا الحب في البادية وما كان خليقا ان ينشأ في المدن والحواضر • فلقد كانت المدن والحواضر في احدى حالتين : حال الاشتغال بالحكم والسياسة وأمور الدولة سواء في ذلك تأييد الحكم القائم وتعضيده والامتثال لما يامر به كما كان الامر في الشام • او المعارضة له والتربص به والثورة عليه كما كانت

الحال في العراق • وحال اخرى اقتضتها السياسة الاموية في الحجاز • فقد وجدت ان تقصيه عن مجال السياسة واتاحت لابناء ابي بكر وعمر وعثمان وغيرهم من بناة الدين الجديد والامبراطورية الجديدة حياة اللهو والعبث بما اغدقت عليهم من طائل الاموال وما شحنت بيئاتهم من وسائل اللهو • وفي هذا العصر - عصر الاستقرار السياسي في الاسلام - يشتهر بنو عذره بشيء لم يعرفوا به من قبل بل لم يعرف به احد من قبلهم (٤٦) »

فالدكتور الجواري يحصر نشأة الحب العذري في عذرة فقط دون القبائل الاخرى وفي البادية دون القرى والحواضر • وان نشأته كانت بعد الاسلام وليس في الجاهلية وانه كان نتيجة امتزاج عفة تقاليد البادية العربية بروح الاسلام وحدوده • ولقد بينا انه لم ينشأ في عذره وحدها بل في جميع القبائل • ولا في البادية وحدها بل في القرى والحواضر • ولا بعد الاسلام بل منذ الجاهلية • اما الغزل الذي كان شعراء الجاهلية يستهلون به قصائدهم ثم ينطردون منه الى وصف الناقة والمفازة وغيرها من اغراض القصيدة فلا نراه بذورا ساذجة لعاطفة الحب العذري • فاين السذاجة والعذرية في معلقة امرىء القيس (٤٧) :

اذا ما بكى من خلفها انصرفت له ... بشق وتحتي شقها لم يحول

وبيضة خدر لا يرام خباؤها ... تمتعت من لهو بها غير معجل

او في معلقة طرفه بن العبد (٤٨) :

وتقصير يوم الدجن والدجن معجب ... ببهكنة تحت الخباء المعمد

او فيما يشبه ذلك من شعر الاعشى وغيره مما لايمكن ان ندخله في باب الغزل بله في الحب العذري •

اما الدكتور طه حسين فقد رأى في الحب العذري عند العرب مكرمة تشهد على أصالة السمو الروحي في الشخصية العربية يعتدها العرب من امجد مفاخرهم القومية • بيد انه يعز على نزعة ابي عبيدة(*) - التي يدين بها الدكتور طه حسين - ان تكون مثل هذه المكرمة في العرب • فكيف السبيل الى انكارها او التشكيك فيها او تشويهها ؟ بهذا الدافع توجه الى معالجة موضوعهم • فاقرأ هذه المقدمة التي نفث فيها وحاويج فؤاده فبث فيها شكوكه والتي جعلها توطئة للهجوم على مثالية حبهم لتحس بالدوافع الحقيقية التي دفعته لدراسة هذا الموضوع • وسيبدأ احساسك بذلك من العنوان الذي وضعه لهذا الموضوع حيث جعله الغزل ولم يجعله الحب • ثم انه قسم هذا الغزل الى قسمين • القسم الاول : الغزل الكاذب وهو الذي يمثله قيس وليلى وقيس ولبنى وعروة وعفراء وجميل بثينة ومن اليهم • اما القسم الثاني فهو الغزل الحقيقي وهو الذي يمثله عمر بن ابي ربيعة وامثاله من اهل اللهو • ثم قال عن اصحاب القسم الاول انه سيجمد

شخصيتهم وسيزعم ان هؤلاء الشعراء بين اثنين اما ان يكونوا اثرا من آثار الخيال قد اخترعهم اختراعا • واما ان لايكون لهم شخصية بارزة ولا خطر عظيم • وانما عظم الخيال امرهم واضاف اليهم مالم يقولوا وما لم يعملوا • واخترع حولهم من القصص الوانا واشكالا جعلت لهم في الادب العربي هذا الشأن العظيم الذى لايكاد يقوم على شيء • نعم سأنكر طائفة من الشعراء او سأنكر شخصيتهم وانا اعلم ان فريقا غير قليل من الذين يعنون بالادب لايحبون هذا النحو من البحث الذي ينتهي الى الانكار أو الى الشك • فهذا البحث هادم للمجد العربي معتد على الادب العربي وانما الباحث الماهر حقا عند هؤلاء هو الذى يسلك كل سبيل ويتكلف كل حيلة ليضيف الى المجد العربي مجدا ويثبت ان الادب العربي يمتاز بالالوان الفنية التى لاتحصى • اذا اردت ان ترضي هؤلاء فتملق حبهم للعرب واسرافهم في هذا الحب • واضف الى العرب ماقالوا وما لم يقولوا – وما عملوا وما لم يعملوا •واجعل امتهم اشرف الامم ولغتهم اشرف اللغات وادبهم ارقى الاداب لاتحسب في ذلك حسابا ولا تنتهي فيه الى مقدار • ولا تعترف للامم الحديثة بشيء الا تكون قد ورثته عن العرب ونقلته عنهم نقلا •• تفز بما شئت من تصفيق واعجاب(٥٠) • وبعد هذا التمهيد شرع بهجومه على العذريين فتناولهم بالانكار والتشويه والسخرية والتسخيف • فقيس وليلى وقيس ولبنى وعبدالله بن العجلان وهند وعروة وعفراء وجميل بثينة وغيرهم من المتيمين والعذريين ليسوا اشخاصا حقيقيين يعرفهم التاريخ وانما هم رموز وعمية لاشخاص خرافيين خياليين اخترعهم خيال الرواة اختراعا ليلهوا بهم الناس كما كانوا يلهونهم ويسلونهم باحاديث السعلاة وامثالها من الحكايات الخرافية • بل ان هؤلاء الرواة لم يخترعوا قصصهم وانما اقتبسوا فكرتها واسلوبها اقتباسا من الثقافة الفارسية واليونانية لان العرب عندماانتصروا على الفرس عسكريا فان الفرس والروم انتصروا على العرب انتصارا أدبيا وحضاريا وكذلك تدفقت الاداب والحضارة اليونانية وامتزجت بالاداب والحضارة الفارسية وعيثت بآداب العرب وحضارتهم فادخلت واضافت اليها لم تكن لها به عهد(٥١) • فهو باختصار بأزاء قصص فنية اخترعها او اقتبسها خيال الرواة لا بازاء عشاق حقيقيين تاريخيين ، لذلك فهو لايبحث عن قبائل هؤلاء العشاق ولا عن مثاليتهم • وانما الذى يعنيه كل العناية ويجهد في البحث عنهم هم الرواة الذين اخترعوا أو اقتبسوا هذا الفن الادبي الجديد لذى لم يكن للعرب به عهد قبل فتوحاتهم • لكنه ما أن يجد في البحث حتى يكتشف عقم شكوكه فاسمع اعترافه • « نعم أنا أعلم حق العلم ان هناك صعوبات كثيرة بيني وبين اتقان هذا البحث • أول هذه الصعوبات ان هذه القصص الغرامية لاتنسب الى كاتب بعينه ولا الى كتاب معروفين • واذن فقد تتكلف كثيرا من العناء في البحث عن شخصية هؤلاء القصاص دون ان ننتهي الى نتيجة • وقد يكون كل ما ننتهي اليه أننا

انكرنا أشخاصا معروفين دون ان نصل الى اشخاص آخـــرين • أنـكرنا اشخاص الشعراء دون ان نصل الى اشخاص القصاص ومع ذلك فلم نتكلف البحث عن اشخاص القصاص اذا لم يكن اليهم سبيل ؟(٥٢) »

فالمسألة عند الدكتور طه حسين ليست مسألة عفة هذا الحب ومثاليته وفي أية قبيلة أو في اي عصر ولا في أية بقعة نبت، ولا عن تأثير الاسلام في تطوره ولا الكشف عن عواطف العذريين وصدق حبهم ، فهذا لا يستحق الجهـد فلا طائل وراءه لان قصصهم من اساسها اختراع في اختراع او اقتباس في اقتباس •

واما استاذنا الجليل الدكتور يوسف خليف فهو بحق اول من أشار الى البداية التاريخية الصحيحة للحب العـــذري متمثلة في حب المتيمـــين الجاهليين • وان العذريين امتداد طبيعي وحتمي للمتيمـــين • وان مثل التقاليد العربية في البادية والقرى والمدن هي التي خلقت هذا الحب • وهو بذلك لم يكن ظاهرة جديدة على العرب ولم ينشأ بعد الاسلام ولم يختص بقبيلة عذرة أو غيرها انما هو نبات عربي غرسته ورعته مثل التقـــاليد العربية في الصحارى والقرى والمدن(٥٣) • هذا الى ما تأنس في لهجتـــه واسلوبه من غيرة واعتزاز بالتراث العربي الاسلامي الادبي المجيد •

وبعد هذه النبذة التي ألممنا فيها إلماما عاما بنشأة الحب العـذري ونسبته نحاول ان نقف على الصفات التي جعلته مثاليا فميزته عن الغزل اللاهي الذي ينشد اللذة في المرأة والذي يطلق عليه اغلب الباحثين صفة الحب مجازا أو خطأ •

ونبدأ بالتعرف على المعنى اللغوي لكلمة « الحب » ثم نتتبع معناهـا في رأي الاوائل قال بعضهم : « الحب مشتق من الاحباب • وهو اللـزوم والثبات الذي لابراح معه • قال الزبيدي : أحب البعير : اذا برك فلم يثر • والاحباب ان يشرف البعير على الموت من شدة المرض فيبرك ولا يقـدر ان ينبعث • وقال الجوهري : بعير محب وقد احب احبابا • وهو ان يصيبـه مرض او كسر فلا يبرح من مكانه حتى يبرأ أو يموت(٥٤) • ولا شـك أننا نلمس في هذا معنى كلام ذلك الاعرابي العذري الذي سئل : ممـن الرجل ؟ فقال : من قوم اذا أحبوا ماتوا • وهذه آية الصدق في الحـب العذري • وقال بعضهم (اصله الحب) وهو الخشبات الاربع التي توضع عليها الجرة ذات العروتين(٥٥) • فعلى هذا سمي الحب حبا لانه يتحمـل عن محبوبه ثقل ما يوضع عليه • ولعلنا نلمس في هذا آية الخلود - فلـو تأملنا في سيرة اولئك العذريين لوجدنا أنهم ظلوا مقيمين على حبهم مهمـــا لاقوا ممن يحبون • وقيل : الحب : اسم لصفاء المودة ، فالعرب تقول لصفاء بياض الاسنان ونضارتها : حبب الاسنان(٥٦) • وقيل : هو من : حـب الماء وهو الاناء الواسع لانه يمسك بما فيه ويستوفي منه فلا يدخله شيء بعد(٥٧) •

ونحس في هذا آيتي العفة والتوحيد • فصفوة صفات الحب العذري اذن هي : الصدق والخلود والعفة والتوحيد • اما العفة فهي أصفى معاني عذريته لان هؤلاء العشاق على ما يعتلج في قلوبهم من شوق مشبوب باللهفة للشم واللثم والضم لايكون فهما في اللقاء سوى النظرة والنجوى • قيل لاعرابي : ما كنت صانعا لو ظفرت بمن تهوى ؟ قال : امتع عيني من وجهها وقلبي من حديثها(٥٨) • اما التوحيد فان اقتصار أحدهم على واحدة بعينها لايعرف سواها طوال حياته مع انه لايرى منها سوى النظرة والكلمة لاصدق دليل على طهر عواطفهم وعلى سموهم بل على جبروتهم في أقوى وأعف العواطف البشرية في حين ان تعدد المعشوقات في آن واحد يدل على ضعة وضعف •

ولكن لماذا لايعشق العذري الا هذه المرأة دون غيرها من النساء فلا يحب معها او بعدها غيرها ؟ ولماذا هي أيضا لاتعشق الا هذا الرجل بعينه ولا تشرك في حبه غيره من الرجال ؟ ما سر عدم تعدد المعشوقات في هذا الحب ؟ ما سر هذا التوحيد وما دليله فيه ؟ نلتمس الاجابة على ذلك في أقوال اسلافنا الذين وجدوا ان سر التوحيد هي (وحدة روحي العاشقين) • قال الاصمعي : دخلت على هارون الرشيد فقال :

يا اصمعي فكرت في العشق مم هو فلم أقف عليه فصفه لي حتى اخاله جسما مجسما ؟ قال الاصمعي : لا والله ما كان عندي قبل ذلك فيه شيء • فاطرقت مليا ثم قلت : نعم يا سيدي اذا تقادحت الاخلاق المتشاكلة وتمازجت الارواح المتشابهة ألهبت لمح نور ساطع يستضيء به العقل وتهتز لاشراقه طباع الحياة ويتصور من ذلك النور خلق خاص متصل بجوهرها يسمى العشق • فقال : أحسنت والله ياغلام • اعطه واعطه واعطه • فاعطيت ثلاثين الفا(٥٩) • والاصمعي كان يخرج الى البادية يجمع شعر الاعراب فيقف على أحوال عشاقهم • وعشق الاعراب أسعد وأصدق العشق • فجاء تفسيره اعرابيا صادقا لما كان يحسه هارون الرشيد الذي سهده وشق عليه حب جاريته وتمنعها • • وقال ابن الجوزي : العشق : شدة ميل النفس الى (صورة تلائم طبعها) فاذا قوي فكرها فيها تصورت حصولها وتمنت ذلك فيتجدد من شدة الفكر مرض(٦٠) • وقال أيضا : سبب العشق مصادفة النفس ما يلائم طبعها فتستحسنه وتميل اليه(٦١) • وقيل سبب العشق نوع موافقة بين الشخصين في الطباع(٦٢) • وقال بعض الحكماء : العشق لا يقع الا لمجانس وأنه يقوى ويضعف على قدر التشاكل • وقيل لبعض الحكماء : أي الحب أغلب ؟ فقال : حب متشاكلين(٦٣) •

لم يك من شكلي ففارقته	والناس أشكال وألاف(٦٤)
كيف أنساك وروحي	صنعت من جنس روحك(٦٥)

وقال النظام : العشق ثمرة المشاكلة ودليل على تمازج الروحين •

وقال معمر : العشق ينتج عن المشاكنة · وهو من تقارب الطبائع وتماس الأطراف · وقال علي بن منصور : العشق من ناحية الطلاقة والمجانسة في التركيب والصيغة · وقال حماد بن أبي حنيفة : العشق لا يعلق الا على نسب التشاكل والى غاية الرقة يضاف صاحبه · وقال أبو حفصة الحداد : العشق شاهد على روح التجانس(٦٦) · وارجعه اخوان الصفا الى اتحاد الروحين وبينوا أن الاتحاد هو من خاصية الامور الروحانية والأحوال النفسانية · لأن الامور الجسمانية لا يمكن فيها الاتحاد بل المجاورة والممازجة والمماسة لا غير · فأما الاتحاد فهو في الامور النفسانية(٦٧) · وقد شرح ابن حزم هذه المشاكلة والمجانسة والاتحاد بين طبائع المتحابين فقال : والذي أذهب اليه أنه اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع وقد علمنا ان سر التمازج والتباين في المخلوقات انما هو الاتصال والانفصال والشكل دائبا يستدعي شكله ، والمثل الى مثله ساكن وللمجانسة عمل محسوس وتأثير مشاهد ، والتنافر في الأضداد والموافقة في الأنداد (هو الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ليسكن اليها) · فجعل علة السكون أنها منه · ولو كان علة الحب حسن الصورة الجسدية لوجب ألا يستحسن الأنقص · ولو كان للموافقة في الأخلاق لما احب المرء من لا يساعده · فعلمنا أنه شيء في ذات النفس · وربما كانت المحبة لسبب من الأسباب ، وتلك تفنى بفناء سببها ، حاشى محبة العشق الصحيح المكن من النفس فهي التي لا فناء لها الا الموت(٦٨) · فهذه الآراء تبين أن الحب هو تجانس روحي الحبيبين ·

واذا كان الحب تجانس روحين وليس تجانس صورتين في الجمال والقبح فلا عجب أن يقع بين اثنين هما على طرفي المفارقة بين الجمال والقبح وان يكون حبهما أصدق حب كحب عنترة وعبلة وكثير وعزة ونصيب وزينب ـ بالاضافة الى وقوعه بين متجانسين في الروح والقد · وكم من جميلين لم يقع بينهما حب لعدم مجانسة روحيهما ·

والحب العذري ليس هو أصدق أنواع الحب بل أن الحب الصادق لا يكون الا عذريا ·

---

(١) الانطاكي : تزيين الاسواق ٨٤

(٢) المصدر السابق ٨٦ . القاريء : مصارع العشاق ٢٢٧/١ ·

(٣) الانطاكي : تزيين الاسواق ٧٦ ـ ٧٨ ، ابن الجوزي : ذم الهوى ٥٠٢ ـ ٥٠٤ ، القاريء : مصارع العشاق ٢٧/٢ ·

(٤) الانطاكي : تزيين الاسواق ٨١ ـ ٨٢ ، ابن الجوزي : ذم الهوى ٤٩٥ ـ ٥٠٣ ، القاريء : مصارع العشاق ٢١٤/١ ·

(٥) الانطاكي : تزيين الاسواق ٨٠ ·

(٦) الدكتور يوسف خليف : الحب المثالي عند العرب ٦٦ ، ٦٨ ·

(٧) المصدر السابق ١٨ ·

(٨) الانباري : شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ص ١١٠ ، ١١١ ٠ المكاء : طائر يشبه العصفور قيل انه لا يغرد الا في الخصب (شرح معلقة امريء القيس) ٠

(٩) الدكتور يوسف خليف : الحب المثالي عند العرب ٠ مع تصرف في العبارة ١٨ ٠

(١٠) ابن منظور : لسان العرب مادة (ومق) ٠ المقة : المحبة لغير ريبة ٠

(١١) المصدر السابق مادة (مقت) ٠ المقت : أشد الابغاض ٠

(١٢) المصدر السابق مادة (حضر) ٠ رجع من حيث جاء ٠

(١٣) القاريء : مصارع العشاق ٢١٣/١ ، ٢٢٧/١ ، ٢٥٠/١ ، ٢٦٥/١ ، ٢٩٢/١ ، الدكتور يوسف خليف : الحب المثالي عند العرب ١٨ ٠

(١٤) المصدر السابق بتصرف في العبارة ٦٨ ٠

(١٥) المصدر السابق ٦٧ ٠

(١٦) لسان العرب والقاموس المحيط مادة (تيم) ٠

(١٧) الدكتور يوسف خليف : الحب المثالي عند العرب ١١ ٠

(١٨) ابن الجوزي : ذم الهوى ٢٢٨ ٠

(١٩) المصدر السابق ٢٢٩ ، ابن قيم الجوزية : روضة المحبين ٣٣٧ ، القاريء : مصارع العشاق ٣٧/١ ، الوشاء : الموشى ٨٥ ، ابن حجلة : ديوان الصبابة ٢٩ ٠

(٢٠) ابن الجوزي : ذم الهوى ٢٢٨ ، ابن قيم الجوزيه : روضة المحبين ٣٣٦ ـ ٣٣٧ ، الانطاكي : تزيين الاسواق ٨

(٢١) الدكتور يوسف خليف : الحب المثالي عند العرب ١٦

(٢٢) الانطاكي : تزيين الاسواق ١٠٣

(٢٣) القاريء : مصارع العشاق ١٥٠/١ ، ١٥١/١

(٢٤) ، (٢٥) المصدر السابق ٢٢٧/١ ، الانطاكي : تزيين الاسواق ٨٤

(٢٦) القاريء : مصارع العشاق ١٢٢/١ ـ ١٢٣

(٢٧) الاغاني ٥٠/٩ ، القاريء : مصارع العشاق ٢٥٠/١

(٢٨) الاغاني ١٨١/٩ ، الانطاكي : تزيين الاسواق ٤٤

(٢٩) المصدر السابق :

(٣٠) ابن الجوزي : ذم الهوى ٢٥٦ ـ ٢٥٨

(٣١) القاريء : مصارع العشاق ٢٣٥/٢ ، الانطاكي : تزيين الاسواق ١٧٧ ـ ١٧٨

(٣٢) أنظر ديوان ابن الفارض ، ومقدمة كتاب عطف الالف : للديلمي . مشارق أنوار القلوب ١٣٦ ، الانطاكي : تزيين الاسواق ٦٨/١ ، المبرد : الكامل في الادب ٦٨٢/٢ ، ابن الجوزي : ذم الهوى ٥١٢ ، ٥١٥ ، ٥٢٢

(٣٣) سورة الزخرف آية ٦٧

(٣٤) ابن قيم الجوزيه : روضة المحبين : ٣٢٥ ، ابن الجوزي : ذم الهوى ٢٥٦ـ٢٥٨

(٣٥) ابن قيم الجوزيه : روضة المحبين ٣١٧ ـ ٣٢١

(٣٦) المؤمنون آية ١ ، ٥ ، ٦ ، ٧

(٣٧) النور ـ آية ٣٠ ، ٣١ ، ٦٠

(٣٨) ابن قيم الجوزيه : روضة المحبين ٣٢٨ ، ابن الجوزي : ذم الهوى ٢٧٩

(٣٩) القاريء : مصارع العشاق ١٣/١ ، ١٤/١ ، ١٠٣/١ ، ابن الجوزي : ذم الهوى ٣٢٦ ـ ٣٢٧ ، ابن حجله : ديوان الصبابة ٣٠

(٤٠) الانطاكي : تزيين الاسواق ٣٠

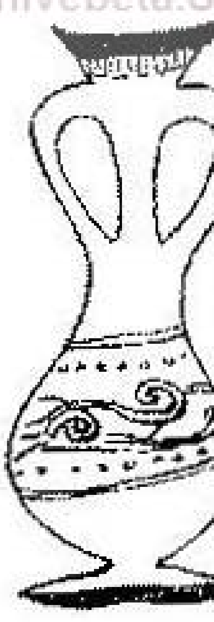
(٤١) المصـدر السابق ٩٠/١ ، ابن الجوزي : ذم الهوى ٥٨٦ ، ابن حجله : ديوان الصبابة ٣١

(٤٢) المصدر السابق ١/٣٧ ، ابن الجوزي : ذم الهوى ٦٠٤
(٤٣) الانطاكي : تزيين الاسواق ١/٣٦ ، ١/٥٣
(٤٤) المصدر السابق ص٣٠
(٤٥) موسى سليمان : الحب العذري
(٤٦) الدكتور عبدالستار الجواري : الحب العذري ٣٣ ، ٣٦ ، ٤٢
(٤٧) ، (٤٨) ابن الانباري : شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ٤١ ، ٤٨
(٤٩) المصدر السابق : ١٩٦
(*) كان أبو عبيدة يهوديا شعوبيا مجاهرا بشعوبيته . وقد صنف عدة كتب في مثالب العرب .
(٥٠) حديث الاربعاء : ١٧٣ ـ ١٧٤
(٥١) حديث الاربعاء : ١٧٣ ـ ١٨٣
(٥٢) حديث الاربعاء : ١٧٣ ـ ١٨٣
(٥٣) الحب المثالي عند العرب : المقدمة
(٥٤) لسان العرب . مادة (حبب) والقاموس المحيط والتاج : مادة (حبب) وأبو حسن الديلمي : عطف الألف ١٥ ، وابن قيم الجوزيه : روضة المحبين ١٥
(٥٥) ، (٥٦) ، (٥٧) اللسان والقاموس والصحاح (مادة : حبب) ، ابن قيم الجوزيه : روضة المحبين ١٥ـ١٦ ، أبو حسن الديلمي : عطف الألف ١٥ـ١٨ ، الانطاكي : تزيين الاسواق ١/١٨
(٥٨) ابن قيم الجوزيه : أخبار النساء ٣٢
(٥٩) القارئ : مصارع العشاق ٢/٢٠٨ ، ٢/٢١٢ ، ابن الجوزي : ذم الهوى ٢٧٦ ، ٢٩١ ، ٢٩٢
(٦٠) ابن الجوزي : ذم الهوى ٢٩٣
(٦١) المصدر السابق ٢٩٦
(٦٢) ، (٦٣) المصدر السابق ٢٩٧
(٦٤) ، (٦٥) المصدر السابق ٢٩٧ ـ ٢٩٨
(٦٦) الديلمي : عطف الألف ٣٠ ـ ٣١
(٦٧) اخوان الصفا : الرسالة السادسة في ماهية العشق ٣/٢٧٢
(٦٨) ابن حزم : طوق الحمامة ٦ ـ ٧

مصادر البحث

١ ـ الدكتور أحمد عبد الستار الجواري ـ الحب العذرى
٢ ـ اخوان الصفا ـ الرسالة السادسة في ماهية العشق . ط دار صادر وبيروت ١٩٥٧ .
٣ ـ الاصفهاني ـ الاغاني ط. دار الكتب المصرية
٤ ـ الانطاكى ـ تزيين الاسواق . ط الازهرية ١٣٢٨هـ
٥ ـ ابن الانباري ـ شرح
٦ ـ الجوهري ـ صحاح العربية
٧ ـ ابن الجوزى ـ ذم الهوى . ط السعادة ١٩٦٢
٨ ـ ابن حجلة ـ ديوان الصبابة مطبوع على هامش تزيين الاسواق

٩ ـ ابن حزم ـ طوق الحمامة ٠ ط الاستقامة بمصر
١٠ـ الديلمي ـ عطف الالف
١١ـ الزبيدي ـ تاج العروس
١٢ـ الدكتور زكي مبارك ـ العشاق الثلاثة ط دار الهلال
١٣ـ الدكتور طه حسين ـ حديث الاربعاء ٠ ط دار المعارف بمصر
١٤ـ ابن الفارض ـ ديوان ابن الفارض ٠
١٥ـ الفيروز آبادى ـ القاموس المحيط
١٦ـ القاريء ـ مصارع العشاق ٠ ط دار صادر وبيروت سنة ١٩٥٨
١٧ـ ابن قيم الجوزية ـ روضة المحبين
١٨ـ ابن قيم الجوزية ـ أخبار النساء ط بيروت
١٩ـ المبرد ـ الكامل في التاريخ
٢٠ـ ابن منظور ـ لسان العرب
٢١ـ موسى سليمان ـ الحب العذري
٢٢ـ الوشاء ـ الموشى
٢٣ـ الدكتور يوسف خليف ـ الحب المثالي عند العرب ٠ ط دار الهلال٠



المفهوم الشعري والحقيقة الحضارية

محسن الموسوي

لو توسعت الرأفة وتعرت العاطفة وانطلقت المشاعر لخرجت نفسنا القاتمة المخربة عارية ، اننا نخاف الابتلاع من كل ذلك الذي نحمي نفوسنا من الشعور به بشدة ، ولكن ماذا نعمل ازاء الرغبة الملحة لتجربة هذا التوسيع وتلك الانطلاقة ؟ فنحن نتوق لمجابهة اعماق نفوسنا كما يقول (روزنثل) •• والرغبة تلح فيأتي الشاعر بتجسيم صريح لافكارنا العميقة •• يأتي الشاعر بمشكلات الحياة ويصبها في صياغة جمالية فيكشف النقاب عن معنى الانسان المعاصر ! عن قلقه المنبعث من بحثه عن الامن والاستقرار وعن محاولاته لمعرفة نفسه على حقيقتها •• ولا غرو أن تعقد الدهشة السنتنا تجاه هذا الكشف الذي لم نتوصل اليه حتى في تمنياتنا وانطلاقة اخيلتنا •

والشاعر بحسه المرهف وقدرته الادراكية يجتاز التناقضات والازمات في ميادين السخرية والتهكم والحقائق والمراء والحياة والموت • واجتياز هذه الميادين يحفر فجوة عميقة بين ما يكنه الشاعر وما يدركه القاريء العادي • فالابهام في شعر شاعر متشاعر قد يكون متكلفا مقصودا ، ولكنه في شعر شاعر لا ينعت بالغموض •• فالفهم والادراك يتوقف على طبيعة الفرد الادراكية تبعا للغنى والضحالة • ان شعرنا المعاصر بسيط مباشر وميزته عن الشعر الماضي هي القرابة الزمنية والطبيعة التطورية • ان الحداثة في الشعر هي النغمة التي تسترعي الرضى في موقع زماني ومكاني • والحضارة مرحلة من عمل الفكر في الزمان ونموه ، فهي تراكمات المجهودات الفكرية الفاعلة ، فهي هندسة وعمارة ومصنع المعرفة • ولدراسة المفاهيم الشعرية والمعاني التي أتت عقب الثورة الصناعية أجد من الافضل ان ابدأ بتعريفات للشعر تكاد جميعها تؤكد على الشكل والمضمون في القصيدة • فيعرفه كولريج بأنه ما ظهر ناتجا من عبقرية شاعرية راسخة لها قوة الوصف والتعبير عن الصور والافكار وانفعالات عقل الشاعر • ويعرفه ووردسورث بأنه طفحة عالية من الانفعالات صيغت بعد فترة حدوثها في لحظة تأمل وهدوء • وهو التعبير المثار المنفعل والذي هو في طلعة أي علم • فطلعة الانسان لا تعني شيئا بدون تعبير •• وروح التعبير وعبير المعرفة هو

الشعر .. وهكذا أخذت المفاهيم حول الشعر تتعدد وتتركز تبعا لـروح العصر .. وأكسبت هذه المفاهيم الشعر تعريفا جديدا في رأي (ماثيو ارنولد) فهو نقد الحياة . والشاعر في رأي (رينه شار) ذو رسوخ ذاتي فذ فهو يعمل شيئا فريدا بتحويل اراء عامة وحقائق متداولة في نسـيج ابتكارات شخصية . وفي مجرى العملية فان شعوريته الفنية تتحرى وتتمركز لتصبح العنصر المقرر .

ان العقلية التي ظهرت بعد الثورة الصناعية نشطة قوية هـددت بتحطيم المعتقدات والتقاليد المتعارف عليها . كان الشاعر يعتمد على ركائز تتيح له الوقوف الصامد ولكنه سرعان ما ارتعد فرقا أثر تحطيم هذه الركائز الواحدة بعد الاخرى . والمجتمع يفتقر الى التنظيم وتتلاشى العادات والتقاليد فانعزل الشاعر عزلة تتناقض وحياته المليئة في القرن الثامن عشر . ولـم يتبلور المفهوم الحضاري عند بعض الشعراء كهاردي وادورد توماس ودي لامير فكان شعرهم بسيطا عاديا يأتي من تجارب داخلية حياتية عادية . نظر هؤلاء برعب الى الامال وهي تتحطم والى الايمان وهو يتزعزع والعادات وهي تركل بأقدام المتجبر الحضاري . وابدع هاردي في تصوير الصراع القائـم بين أنصار القديم وبين العقليات الشابة الحديثة وخاصة في قصته (متصرف كاستربرج) . ويبين هاردي بأن العقليات الشابة الحديثة هي المنتصـرة ولكن القارىء يشعر بتعاسة الكاتب وحزنه ويشاركه احزانـه وحنينـه للماضي . رأى هاردي في الحياة العصرية غموضا وابهاما وحاول أن يجـد تفسيرا لذلك ولكن شكوكه اصطدمت بجدار أخرس فتجمعت لتكون غمامة فوق سماء شعره .

يسر الماضي قيما افتقر لهـا العصر الصـناعي فبقي روزتي وييتس يرسلون حنينا متواصلا الى الماضي . وشعر الكثـير من الشعراء يدنس وتفاهة هذا العالم الجديد . وعلى أثر ضياع الخرافات والاساطير ـ مـادة الشعراء أمثال ييتس ـ اتجه الشعراء اتجاها جديدا فذهب الكثير منهـم مفتشين عن الايمان الذي زعزعه العالم الصناعي . وعلى الرغم من شعورهم بافتقار الحياة الى الايمان فهم لم ينبذوا الحياة .. فها هو ييتس في قصيدته (محاورة النفس والروح) يقول :

عندما نبذت توبيخ الضمير ، تدفقت الحلاوة في صدري ، علينا ان نضحك ونغني ، لقد بوركنا بكـل شيء ، بورك كـل شيء ننظـره . والحياة غالية نفيسة حتى في أقبح منحها :

يا لقناعتي ، وأنا اتوق لأحيا ثانية !
حياة ترمى في قذارة حفرة أعمى ،
أعمى ينهال ضربا على مكفوفين اخرين .

وحياتنا الصامتة البليدة المتحجرة تفتقر الى الايمان (ترمي في قذارة حفرة أعمى) وشعر (ماثيو أرنولد) شعور ييئس نفسه .. فالحياة تفتقر الى قيم وايمان راسخ تليد .. فهي سهل مظلم ونكتسح نحن في معمعة مرتبكة مجنونة فيقول في قصيدته (ساحل دوفر) :

ايه ايها الحب ! دع الواحد منا
يأتمن الاخر ، لأن العالم الذي يبدو أمامنا
كأرض أحلام في تنوعه وجماله وجدته
عند الحقيقة يفتقر الى المتعة والحب والنور
فلا تأكيد ولا سلام ولا مواساة لألم :
اننا هنا في هذا السهل المظلم
نكتسح مع انذارات صراع أو هزيمة مرتبكة ،
حيث تتصادم الجيوش الجاهلة في الليل .

وفي العالم المتزعزع هذا كل شيء مصيره التجزأة ويتجه مصير الانسان نحو الضياع والفناء ، وكرد فعل لكل هذا ظهر التأكيد على أهمية وجود الفرد . فالرعب والخوف من حتمية فناء الفرد جعل كيركاد والوجوديون يؤكدون على أهمية حياة الفرد وعلى اختيار قيم تتسم بالمثالية . فالشاعر أو المفكر لا يختار قيما لنفسه وانما للاخرين . ومن بين الهيئات المختلفة ظهرت هيئة بودلير المائعة المتزعجة من العالم .. ونهج كوشيه مذهب الفن للفن والتمس اخرون الدين . وتميزت فترة ما بعد الحرب بظهور انماط شعرية مثقلة بالشعور الانساني . ولنقرأ لهربرت ريد وهو يتحدث عن مصدر القصائد العظيمة كالارض الخراب : لقد وجدت العضد في هذه الصفحات ، أني أعتبر السنوات بين الحروب تافهة قاحلة ، تذهب هباء لا لفائدتي ولا لفائدة جيل بأكمله . هذه القوات التي تسحقنا ليست بشرية ولكنها قوى شيطانية عمياء لمآرب اقتصادي ، حيث تتحول جدران الايمان من خلفنا الى الهواء .

ولا شك بأن شعر هاردي والشاعر الكندي شارلز سانكستر واخرين غيرهم كان مثقلا باليأس والتعاسة والقنوط ولكن (الارض الخراب) تعد تجربة شعرية جديدة لم تتكلم عن اليأس كيأس ولكنه كيأس حصل من نير الازمة الحضارية . والألم في داخل القصيدة هو ألمنا نحن حين نشعر بأن شيئا من الايمان ضروري . ان الارض الخراب تعد بحق نقطة انطلاق جديدة في الحقل الشعري . فانطلقت مفاهيم اليوت من تجربة وشعور ذاتيين مدركان في نفس الوقت لمعاناة جيل بأكمله . أوضحت القصيدة قلق ومرارة جيلنا المعاصر وجلبت هاتين التجربتين بمفهوم جديد يعضده ما ذكر في القصيدة من اختراعات تكنيكية . والقصيدة سبيكة رائعة احتوت على نتف

من حوادث ومشاهد تنطوي على تناقضات ومفاهيم قاتمة تحير الانسان المعاصر .. واذ يجلب اليوت كل ذلك فأنه يذكرنا ايضا بالماضي البسيط اللطيف . آمن اليوت بما نتوق نحن اليه من مفاهيم انسانية نبيلة في الشعر .. مفاهيم لا تتسم بالتشاؤم او التفاؤل المتطرفين . ان الشعور الذي يتخلل القصيدة العصماء هو شعورنا نحن بالحاجة الى تضحية نبيلة وايمان تليد منتظم ورابطة اتحادية انسانية حية في عالمنا الميكانيكي . وأبدع اليوت في تصويره لقذارة وصخب المدن الصناعية ويأس الفرد وعزلته في هذا الخضم الصاخب .

تعتبر الحقبة الحضارية بعد القرن التاسع عشر قلقة جدا ومرد القلق المعاصر هو البحث والتنقيب عن الانتماء ، انتماء الأفادة والتلاحم في المجتمع . ان الاشباع المادي لم يفتر القلق ان لم يغذيه ، حيث ان الانسان يواجه حاجة قصوى او مجاعة الى الاستقرار والايمان ضد هذا التطور الغاضب . والقلق هو أصل الابداع والخلق في فترة لم يكتمل فيها الابداع ، كحياتنا في عالمنا المعاصر . صور اليوت وباوند هذا القلق ونقلوا مع غيرهم الآم الانسان المعاصر ولكن هؤلاء لم يمنحونا بديل هذه الحياة . فكانوا شعراء الصراع اللامحلول .

ونتيجة الخلق والتطوير في عالمنا الحياتي فان صفة التغيير في المضمار الحياتي ظهرت واضحة جلية .. وأبدع ادون ارلنكتن روبنس في الحديث عن الاندفاع الجنسي بصفته ركنا من أركان هذا التغيير . فالاندفاع وراء الغريزة الجنسية ما هو الا انحدار الروح البشرية .. والمعنى الاخر في شعر روبنسن هو السقوط في العمل والمجتمع والحياة اثر تفاهتها تجاه بعبع الفناء والموت . وفي قصيدة (كازاندا) يعرض روبنسن فكرة بأن الطبيعة تمنح الفرد الانسانية ولكن العالم يدمر هذا الفرد .. فهذا العالم يسيره الطمع والمال والقوة . ونتاجات مجهودات الفرد هذه التي تسير العالم هي نفسها التي تحطم الفرد في عالمنا المادي :

ايه ، ولو انك من لحم ودم
مكونات يقتات ويشرب منها نسرك
فأنت تكرمه أكثر من باقي الطيور
جاهلا ما يفكر به النسر !

وأبدع الشاعر (مور) في عرض نواح حضارية أخرى ، ان مرد العذاب الذي يتخلل شعره هو أن التأريخ والحياة الشخصية يتحكم بهما متجبر للسير في طرق متشابكة (تستمر وتستمر ولكن بلا نهاية) ففي متنوعات في معنى الزمن ، يقول :

هل ينتهي طريقنا
في مركز السهل الواسع الصامت ؟
خيولنا تحث الخطى
ايه ، علمنا بأن للزمن مثل هذه الامتدادات المتطلعة
يجوبها جيل بعد جيل
ولكنها رحلة بليدة محزنة
ما هي خطتها ؟ ما معناها ؟

وتبين قصائد مور الاخرى (تروي) والمدينة الفاضلة ، واستفهام تجربة سياسية معاصرة حيث يتحول البشر الى زبالين لازالة حطام الحضارة • وظهر بعد (روبرت لول) بعض الشعراء محاولين الاعتراف الصريح لعله ييسر لهم اكتشاف الأنا الضائعة •

ومن الضروري ان نتكلم عن الفرادة في شاعرية الشعراء • فيذكر اليوت بأن الفرادة في التأليف ليست علامة الاصالة • ولكن الاصالة تكمن في مقدار استفادتنا من التراث • ورأى وليم كارلوروز وليم ، وايزرا باوند في الماضي عالما عجيبا ومعينا لا ينضب • وتكلم وليم عن الاستعمال الملائم للتراث فقال : « الذي يود ان يربح ويعرف العظيم عليه أن يحيا حياة التناقضات القوية ، وكلما عمقت سيطرته وتوسع اطلاعه على مؤلفاتهم كلما كان عليه ان يتحرر في لحظات اخرى ليبقى انسانا » •

ومن المفاهيم الحديثة هو التأكيد على عرض الصورة في الشعر ، وأبدع باوند واليوت في منح ديباجة شعرية من الصور • والصورة الواحدة في رأي باوند تعقيد انفعالي وفكري في لحظة زمنية وهي تدرك كقلب التجربة الشعرية أكثر من أي فكرة مشوشة • والحقيقة فان الشعر يجب ان يتميز بجماليته التصويرية • فلو اراد شاعر عرض افكار جدلية جافة متفرقة لكان من الافضل له أن يكتب مقالة أو بحثا • ان الصورة تمنح نوعا من المعرفة اسمى من أي تحليل عقلي أو اكتشاف علمي ، فهي تعطي القارىء لحظة انارة اوسع من الادراك العادي فقد تعرفه بشعورية غير موجودة في عالمنا الحياتي • وهكذا تتبلور المفاهيم والمعاني الشعرية وأفكار الشعراء المفكرين حتى يتميز الشاعر المعاصر بميزات تبين أن لا صلح له مع عالم لا يستجيب لدعوته وشروطه •

فالشاعر المعاصر في رأي باوند وفي كلمات روزنثل هو : « رسول الاصلاح الاجتماعي والحالم المبدع الضائع في خيالاته • انه وراث الجيد من التراث الشعري • ولكنه أيضا الروح المرهفة الحساسة المعرضة للخطر • الروح التي تشك في نفسها • والشاعر المعاصر هو الانسان الذي يسأئل أهدافه ويحفر تحت ثقته بنفسه • ولكنه يقاسي ويحتمل النفس والاخطاء والتفاهات والتحديدات ليقدم بصورة مدهشة شعرا صلبا ومرنا في النهاية » •

اسماء المراجع

1. Cecil, David, The English Poets (London, 1902).
2. Cox, C.B.S. Dyson, R.E., Modern Poetry (London, 1963).
3. Daiches, David, Critical Approaches to literature (Great Britain, 1956).
4. Fraser, G.S. The Modern Writer and his World (London 1953).
5. Hardy, Thomas, Collected Poems (Macmillan, New York, 1925.



الرّومانسيّة في شعر الصّافي (*)

تركي كاظم جودة

اتفق الكثير من الادباء على ان النزعة الرومانسية هي تلك الصـورة المكفهرة وطابع الالم والحسرة والتبرم الشديد والصبوة العارمة والاشواق المتأججة التي تظهر على لسان المحب بعد الحرمان ثم هي تلك الخوالج النفسية المضطربة ، والمشاعر الجياشة التي تعصف بالاماني العذاب والآمال الحبالى. والتي تنشأ عن خيبة امل وعن عجز الرومنطيقيين عن ادراك ما يصبون اليه.

كما اتفق بعض الادباء على ان هذه النزعة قد بدأت في فرنسا بعـد انهيار نابليون ثم سرت في اقطار اوربا ومنها عبرت الى البلاد العربية .وقد اورد (فان تيغم) على وجه التقريب بانها سرت في صميم الحياة الاوربية منذ ١٨٢٠ الى ١٨٥٠(١) .

كما حدد الياس ابو شبكة في كتابه (روابط الفكر والروح بين العرب والفرنجة) ص ٨٠ عام ١٨٥٨ انتشار الرومنطيقية في شرقنا العربي(٢) .

الا ان البعض يذهب بالرومانسية الى ابعد من ذلك فمنهم من يعـزو مولد هذه النزعة الى القرن الاول الهجري مستشهدا بانها قد وردت في اشعار وقصص العذريين العرب والذي يقوم على التوله بالحبيب والعمل على مرضاته حيث يورد المستشرق (جب) (ان اوربا لم تكن تعرف في تقاليدها ومثلها الاجتماعية والدينية مثل هذا الحب حتى جاء القرن الحادي عشر الميـلادي وتسربت القصص والاشعار الغرامية العربية من الاندلس العربية الى فرنسا. وهنالك تكونت منه نواة الادب الرومانتيكي)(٣) ومنهم من يجعل من هذه النزعة مذهبا له رواده ومريدوه حيث يقول الاستاذ محمود العبطة المحامي في مقال له بعنوان (خليل مطران شاعر العاطفة والعقل) : « وكلمة الابداعي هي الترجمة التقريبية لكلمة (الرومانتيكي) وهي عنوان المذهب الادبي الذي نشأ في اواخر القرن الثامن عشر في فرنسا وامتد منها الى اقطار اوربا ،المذهب الذي يقوم على العاطفة المتأججة والثورة الجامحة ، والكفر بالقيم والنقمة على المجتمع »(٤) .

ومنهم من يجعل لهذه الصفة مدرسة لها طلابها ولها من يتزعمها حيث اورد الاستاذ عبدالسميع المصري متحدثا عن احمد زكي ابو شادي وعن وفائه لاستاذه الشاعر خليل مطران فقال « ولقد كان وفاؤه لاستاذه الشاعر خليل

مطران – صاحب المدرسة الرومانسية الحديثة في الشعر العربي – من اروع امثلة الوفاء ٠٠» (٥)

كما اورد مثل هذا القول الاستاذ عدنان الداعوق في معرض حديثه عن فكتور هيجو فيقول « وكان هيجو » يستلهم من نظرات زوجته الساحرة التي تشع بالطهر والوفاء روائع قصائده وبدائع شعره ٠٠ واخذ المستقبل بعد هذه الفترة القاسية التي عاشها الشاعر وزوجته يبتسم لهما ٠٠ فنشر اول مجموعة من شعره عام ١٨٢٦ ، وهو الوقت الذي بدأت فيه حركة المدرسة (الرومانتيكية) الجديدة تستعد للقضاء على المدرسة (الكلاسيكية) القديمة ، فجعل بعض الادباء المحدثين (هيجو) زعيما للقضاء على (الكلاسيكية)(٦) ٠

كما يقول في مكان آخر « وكان ان ظهرت عام ١٨٣٠ مسرحيته الجديدة (هرناني) التي كانت كقاعدة متينة في اسس المدرسة الرومنتيكية الحديثة »(٧) ٠

والواقع ان الرومانسية ليست مذهبا ، ولا مدرسة كما يراها البعض وانما هي هواجس نفسية تنتاب الرومانسيين فتعصر قلوبهم المكلومة وتجيش باحاسيسهم المكبوتة فيغمرهم الالم بعد الامل ، والخفوت بعد التوثب ، واليأس بعد الايمان ، والخور بعد العزيمة ٠ فترى الكآبة مرتسمة على وجوههم والنقمة على المجتمع واضحة من خلال احاديثهم وطابع الالم والتبرم والزهد احيانا ظاهر في معظم ما يكتبون وينظمون ٠

ومرد ذلك الى عدم ادراك الرومانسيين ضالتهم المنشودة وامانيهم المرجوة التي طالما تغنوا بها وعملوا لها في صباهم ولكنهم فشلوا في الوصول اليها ، ويرون ان المجتمع هو سبب من تلك الاسباب التي ادت الى فشل تلك الامال فنقموا عليه ٠

لقد كان اجدادنا يعتقدون بان حضارتنا ستبني فردوسا لاحفادهم لكنما الحرب العالمية الاولى وكذلك الثانية خيبت الآمال وزادت من عدد الرومانسيين الذين برموا بالحياة والمجتمع وذهبوا الى الطبيعة يبثونها آمالهم ولواعجهم ٠

ومنهم من لم يجد ما يطابق افكاره في المجتمع فيبني له عالما مثاليا خاصا به فيذهب الى الطبيعة مبتعدا عن الناس الذين يظنهم لا يفهمونه ولا يحاولون ان يفهموه حيث يجد في الطبيعة منفسا للكبت الذي يعتلج في ذهنه ٠

ومنهم من ذرف الدموع مدرارا على حبيب نذر العمر على ان يسعده وعقد الآمال على ان يكون من نصيبه وفرش الارض وردا ونثر في الفضاء عطرا ابتغاء مرضاته الا انه وجد ذلك الحبيب قد اصبح محرما عليه فاستولى عليه الحزن وتملكه الالم فراح يناجي البلبل ويسامر الايكة ويداعب الجدول وينادم الازهار معوضا في ذلك عما فاته ومعزيا عما لحق به ٠

ومن خلال ذلك نرى ان تفاوتا يظهر بين هواجس رومانسي وآخر. كل يبث ما تشعر به ذاته ويعبر عما يدور في مخيلته هو وحده على ان الطابع الذى يتصفون به هو طابع الالم والحرمان .

ومعنى ذلك انهم لا يلتزمون قواعد معينة ، ولا اغراضا محددة موضوعة كما هو في بقية المذاهب والمدارس التي تلتزم بقواعد معينة ومقاصد موضوعة مرسومة واغراض محددة مثبتة .

وقد سبقني الى هذا المعنى الاستاذ احمد علي حيث يقول « احب ان الفت النظر الى ملاحظة اراها جديرة بالتسجيل ، وهي انني اعتبر ان هناك تيارا رومنطيقيا قوامه العاطفة الجريحة التي تصعد ، في ابيات حرى ، زفرات لاهبة مستصرخة تارة او مترقرقة طورا ، عامدة في سبيل ذلك لبث لهائها المحترق الى الطبيعة والليل والرؤى والاحلام .

وهذا البث الشعري يتباين في جزيئاته من شاعر رومنطيقي الى آخر، لان الرومنطيقية اقرب الى ان تكون باعثة جو عاطفي منبجس من ذاتية الشاعر الموغلة في فرديتها منها الى المدرسة القائمة على أسس ثابتة جامدة ذات موضوعات محددة التخوم . وهذا منطقي ما دامت الرومنطيقية حركة تحرر وتعبير ذاتي وعلى هذا فليس هناك مدرسة رومنطيقية انما رومنطيقيون »(٨) .

وعلى هذا فالرومنسية هي الصفة المعبرة عن عواطف وخوالج الفرد الذاتية وتتأتى من عدة اسباب ذكرنا بعضها وكل منها كفيل بان يجعل من الفرد المرهف الحس ان يعيش عالما خياليا يمتي بالطبيعة والطفولة والانسانية ويلفظ التزويق التسفسط والتدجيل ، ويعتزل المجتمع الاناني الذى يرى فيه اس البلاء ويعزو اليه بوادر الذل والخنا والانحطاط .

فما بالك وقد اجتمع اكثر من سبب لدى شاعرنا الصافي وهو الذى عرف برهافة الحس والاستجابة لنداء الانسانية والتضحية في سبيل اسعاد الاخرين ؟ فلا عجب اذا حينما نرى قريحته تتدفق بالعاطفة المجروحة والاحاسيس المتأججة واللجوء الى الطبيعة .

لقد احب الصافي أيام شبابه واخلص في حبه وتمنى لو ينظم النجوم قلائد ارضاء لمحبوبه وعاش على امل الزواج تداعب خياله الذكريات وتجنح بمشاعره الاماني الحالمات وحينما فاض به الشوق واضطرم الجوى تقدم لطلب الزواج حيث رد طلبه فقد عارض اخوه محمد رضا الصافي الذى كفله بعد وفاة ابويه ذلك . فقد فرض عليه ابنة عمه ولكنه ابى حيث خسر الاثنتين وكان أن امضى حياته عازبا وفاء للحب واخلاصا للقلب المعنى وكان هذا اول الغيث .

وثمة سبب آخر جعل من الصافي رومانسيا ذلك انه كان يعتقد ان مجتمعنا سيخلق عالما فاضلا يزخر بالانسانية الحقة ، ويبني حضارة زاهية لا مدنية زائفة معلقا عليه الآمال الا انه لم يجد ضالته فنقم عليه فقد وجده

مقلدا تقليدا اعمى يعني بالقشور لا باللباب ، وبالشكل لا بالمضمون فيتبع الزبد حيث لا يدرك الاغوار • وقد ظهرت هذه النقمة في كثير من قصائده • ومن ذلك قوله في تقليد الشرقيين لغيرهم في التوافه من الامور •

جنون بهذا الخلق مسوه بالحجى ... فقد عطل التقليد عقلهم الاصلي(٩)

وقوله ايضا :

تقلـد يا شـرقي غيرك دائبـا ... فتحسب موجودا وما انت موجـود
لقد سلب التقليـد عقلك كلـه ... فسخفك موجود ورشدك مفقـود
تقلـد في اكل وشـرب وملبس ... ويعروك للتقليد في الليل تسهيد(١٠)

وتظهر نقمته على المجتمع الذي يرى ان داء الفساد قـد استشرى في جسمه واستفحل وقد اعضل حتى لا شفاء له جلية في قوله الذي يقذفه كحمم البركان على من لا يستحقون الحياة •

اتيت مجتمـع الدنيـا اطهـره ... جهلا فدنس مني الروح والغرضا(١١)

وقوله ايضا :

الا تبـا لمجتمـع دني ... تكون جنسه من كـل رجس
اتيت لانشـر الاصلاح فيـه ... فلم اصلحه بل افسدت نفسي(١٢)

لقد نظر الصافي الى المجتمع نظرة فاحص فالفاه مجتمعا قد مات لديـه الشعور بالعزة والانسانية وتفنن في الاذى واللؤم والخيانة فقد قال :

ارى معشـرا مات الشعور لديهم ... وقد اتقنوا فـن النميمة والذم
لغير الاذى لا يصلحون لانهـم ... جمود باحساس نوابغ في اللؤم(١٣)

والطبيعة هي ملجأ الرومانسيين ومصدر الهامهم ، وهي وحدها تستطيع سماع شكاتهم ، وزفراتهم الحرى وآلامهم المكبوتة ، وعواطفهم المجروحة • وهي وحدها التي تدرك ما يصبون اليه فتحتضنهم بعد ان يتنكر لهـم المجتمع •

قصدت الطبيعـة مستنجدا ... بها هاربا من جميع البشـر
فجئت الى روضة غضـة ... تعانق فيها قدود الزهـر
يسامرها بالغنا طائـر ... يساجله بالنشيد النهـر
فاصغي لاعذب انشـودة ... مقطعة بحفيف الشـجر
دخلت كآدم في جنـة ... وما لي كآدم عنها سفر(١٤)

وقولـــه :

انـي نظرت الى الانـــام يســودهم   جهل يحارب او همــوم تنهــك
ثم التفت الى الطبيعة باخشـــــا   ما عندها فاذا الطبيعة تضحك (١٥)

وهكذا يهرب الصافي من المجتمع الذى لا يفهمه ولا ينفس عن هاجس او يفرج عن كربه ويؤم الطبيعة التي لا يرى فيها مللا والتي تحدثه بالفلسان:

انا ان جلست الى الطبيعة صامتـا   لم اخش من ملل ومن اســزان
الـكائنات جميعهن خلائـــق   يتحدثون معي بألف لســان(١٦)

واذا كانت النبرة الحزينة هي الطابع المميز للنزعة الرومانسية ففي قصيدة (وحشة) للشاعر الصافي خير دليل على ذلك :ـ

استقبل الستين مستوحشا   لا اهــل ولا مال ولا ولــد
لا مسكن آوى لـه ثـابت   لا سكن لا هنـــد لا دعـد
احفاد اصحابي لهم ولـــد   وها أنا من عمري جـــد
كأنني اسلك في ظلمـــة   وما ارى نجما بها يبـــدو
كعاشق ماتت لـديه المنى   وقائـــد اسلمه الجنـــد
مشرد ليست له غايـــة   في مهمه ليس له حـــد
كتائه يضرب في حيـــرة   وسائر ما ان له قصـــد
او زورق يخبط في لجـــة   لا الجزر ينجيه ولا المـــد
لم يبق فرط الحس لي عالما   آلفه لو أنه الخلـــد
لـم ادر ايـــان مبيتي ولا   أعلم أيان غـــدا اغـــدو
في الشيب هل تصلح لي حالة   ما صلحت والشـعر مسود
تعود الشوك عـــلى مهجتي   من بعد ما قاطعها الــورد
عكازتي من امل واهـــن   امشي بها والجسم ينهـــد
يدخر الناس لشيخوخـــة   وكل ذخرى ربي الفـرد(١٧)

هذا غيض من فيض وقطرة من نبع مما هو مسطور في دواوين الصافي تدل دلالة واضحة على نزوع الشاعر النزعة الرومانسية وهي مشاعر جياشة تنبيء ولاشك عن عواطف انسانية تبغي الخير للجميع وتتميز غيظا عـلى الذين يقفون حجر عثرة أمام المصلحين المرشدين ويكونون سدا منيعا دون بلوغ الغاية المرجوة ٠

(*) هو الشاعر المغترب أحمد الصافي النجفي ولد بمدينة النجف الاشرف سنة ١٣١٣هـ هرب الى ايران اثناء الاحتلال البريطاني حيث مكث هناك ثماني سنين ثم عاد الى العراق وبعدها سافر الى لبنان حيث لا يزال هناك ٠

(١) مجلة الرسالة اللبنانية العدد (١) السنة الثالثة من مقال للاستاذ أحمد علي

(٢) نفس المصدر

(٣) بين شاعرين مجددين ايليا أبو ماضي وعلي محمود طه المهندس للدكتور عبدالمجيد عابدين (ص ١١٨ و ١١٩) ٠

(٤) مجلة الاسبوع البغدادية سنة ٩٥٦

(٥) من مقال له بعنوان أحمد زكي أبو شادي النجم الذي هوى في مجلة الرسالة الجديدة سنة ٥٦ العدد (٢٤)

(٦) من مقال له بعنوان نساء وراء العباقرة فيكتور هيجو في مجلة الرسالة اللبنانية العدد الرابع سنة ١٩٥٧

(٧) نفس المصدر ٠

(٨) مجلة الرسالة اللبنانية ص ١٩ـ٢٠ العدد الاول السنة الثالثة

(٩) ديوان شرر للصافي ص٥٣

(١٠) ديوان أشعة ملونة للصافي ص٥٧

(١١) ديوان شرر للصافي ص١٧٤

(١٢) ديوان أشعة ملونة للصافي ص٥٣

(١٣) ديوان شرر للصافي ص٢١٥

(١٤) ديوان التيار للصافي ص١٢٨

(١٥) ديوان هواجس للصافي ص٤٠

(١٦) نفس المصدر ص٤٦

(١٧) ديوان اللفحات للصافي ص١١٧

مصادر البحث

١ ـ مجلة الرسالة اللبنانية ٠
٢ ـ بين شاعرين مجددين ايليا أبو ماضي وعلي محمود طه المهندس ٠
٣ ـ مجلة الاسبوع البغدادية ٠
٤ ـ مجلة الرسالة الجديدة ٠
٥ ـ ديوان ألحان اللهيب للصافي
ديوان التيار للصافي
ديوان الامواج للصافي
ديوان أشعة ملونة للصافي
ديوان اللفحات للصافي
ديوان شرر للصافي
ديوان هواجس للصافي

ازياء عراقية

زي امرأة من الموصل

زي تقليدي قديم كانت ترتديه نساء الأسر الغنية في الموصل ، ويتألف من ثوب طويل من الحرير المزين بالنقوش اللامعة ، ترتدي المرأة تحته ثوباً داخلياً قصيراً من الحرير الملون تسمه منطقة الصدر وتبـدو أطراف اكمامه المزينة بالدانتلا واضحة تحت اكمام رداء قصير من قماش الصوف مطرز بخيوط الفضة يدعى محلياً بـ (الدميري) .

أما شعر الرأس ، فتعلوه طربوش قصيرة من الجوخ الأحمر بذؤابة طويلة من خيوط الحرير السوداء تنحدر بجانب الوجه لتكسبه فتنة وجمالا .

المشاجرة

ترجمة
سركون بولص

قصة للكاتب الايرلندي :
ليام أوفلاهرتي

انحنى توم الاسود ، وهو فلاح ، على المقصف في حانـــة موليغان . وبالرغم من أن فمه الكبير كان مفتوحا ، فان صوت تنفسه الذي يدخل منخريه ويخرج منهما كان يشبه هسيس البخار في آنية شاي . وكانت أسنانه العليا بارزة . وتحت قبعته الرخيصة كانت خصلة من شـعره تتدلى على جبينه . وكانت عظامه واعضاؤه ثقيلة كلها وكان طويلا طولا يظهر به رشيقا ، وما كان أحد ليعرف كم هو طويل . ولابد انه كان يبلغ ستة أقدام وثلاث بوصات .

واذ كان مائلا على المقصف ، بدا أن جسمه يذوب كالثلج ، فلقد كان يبدو طليق الاعضاء غير متماسك ، وكان ينقل ثقله من ساق الى اخرى بقلق . وكانت عيناه المعتمتان الزرقاوان مفتوحتين على وسعهما ، تحدقان في المقصف بغباء . كان مخمورا جدا . فهذه هي المرة الاولى التي يسكر بها منذ ستة أشهر . لقد باع خنزيرا في سوق « كيلموريج » مقابل خمسة باونات . وأعطى زوجته اربعة باونات وأخبرها بأن تذهب الى البيت . واستجدت منه الخامس ، وهكذا وجب عليه ان يهبها بضع ضربات على أذنها ليتخلص منها . ثم شرب ست كؤوس من الجعة المـرة في حانـة موليغان .

وقال لفتاة البار : كأس أخرى .

وكان يصفق بيديه اذ يتكلم . ثم سمع شخصا ما يضحك خلفه ، واذ هو يستدير منحنيا على نفسه ، كحصان يحمل ثقلا جسيما ، لمح عدوه بارتلي سويني يدخل البار مع اثنين من اصدقائه . وحاول ان يفكر لماذا كان بارتلي سويني عدوه ، فلم يستطع ان يتذكر سببا لذلك ، ولكن شعوره كان يؤكد له بان الرجل عدوه . ورغم ذلك فقد قال : هالو ، بارتلي . هالو يا أولاد ، ما الذي تطلبونه ؟

فمسح كل من الرجال الثلاثة فمه وقال :ــ الي بكأس !

وبصق بارتلي سويني في يده ، وهو شاب ربعة يلبس سروالا رماديا من الصوف وجرزة زرقاء ويغرز في حزامه سوطا ، ثم أخذ يد توم الاسود

في يده • وقال :ـ كيف حالك يا توم ؟

قال توم :ـ « رائع ، وكيف حالك انت ؟ » وحاول أن يبتسم دون أن ينجح الا في أن يبدو غبيا ، كطفل ينظر الى غريب •

وجلبت فتاة البار لتوم الاسود كأسه الجديدة فطلب منها ثلاثا اخرى لسويني واصدقائه • وبدأ سويني يحدث فتاة البار ، مغازلا اياها ، وعندئذ سحب توم الاسود نفسا عظيما أوشك أن يفجر منخريه ، فقد انتفخا انتفاخا شديدا • عرف في تلك اللحظة لماذا كان سويني عدوه • لقد كان يغار من سويني ويحسده ، لان سويني كان شخصا حسن المظهر وله حظوة كبيرة لدى النساء • وكان شائعا ان كيتي كوني ، زوجة توم الاسود ، كانت واقعة في حب سويني قبل أن تتزوج من توم الاسود • وفكر توم الاسود وهو يحدق الى كأسه :ـ « لعلها ما تزال تحبه حتى الان » • واحتقر زوجته ، ولكنها كانت مسألة اخرى أن تكون واقعة في حب سويني ، وربما حملت منه اطفالا ، مثلما سمع أن النساء يفعلن في الولايات المتحدة • ولقد عاش سويني في الولايات المتحدة •

أحس برغبة مفاجئة في ان يضرب سويني على قمة رأسه ، ولكن سويني استدار اليه في تلك اللحظة بالذات ضاحكا على شيء قاله للتو ، فضحك توم بدوره ، ناقلا ثقله الى ساقه الاخرى وباصقا في ضجة عظيمة داخل حنجرته • لقد عرف الان بأن سويني كان يتبعه ليقاتله •

« ها هو الحظ • » « حظا جيدا • » « حياة طويلة • »

وشربوا جميعا • وبينما كان توم الاسود يضع كأسه على شفتيه تملكه غضب مفاجيء فافرغ كأسه جرعة واحدة • انه سيلقن هذا الشخص سويني درسا لا ينساه ، انه قوي وباستطاعته ان يجرع شرابه بالرغم من انه كان بشعا ويبرز اثنان من أسنانه فوق شفتيه ، وضرب كأسه بالمقصف حين وضعها ، ثم مسح فمه بظاهر كفه وشد حزامه ، ولكن أحدا لم ينتبه اليه على الاطلاق •

كان سويني لايزال يحدث فتاة البار ، والرجلان الاخران يصغيان اليه ، وشعر توم الاسود بالاضطراب لان أحدا لم يكن يلاحظه • نظر الى فتاة البار • كانت تميل على المقصف يسندها مرفقاها ، ورأسها مائل الى جانب • وكان نهداها يكادان أن يطفرا من عنق بلوزتها ، اذ يضغطان تلقاء المقصف الذي يستند مرفقاها عليه • وكان شعرها الطائش مكوما على رأسها بعناية ، وكان خداها قد توردا وهي تستمع الى نكات سويني • وشعر توم الاسود بالرغبة تجتاحه فجأة : بحق الشيطان لماذا لم يتزوج منها بدلا من كيتي كوني ؟ لماذا ، أن سويني تطارده جميع النساء في الجزيرة وهو لم يتزوج مطلقا • الكلب • ونظر الى سويني •

كان وجه سويني الناعم محلوقا بنظافة وأرجوانيا • وكان فكاه طازجين وورديين من أثر الحلاقة • وتحت شاربه المقصوص باتقان • كانت

خطوط شفتيه واضحة ومستقيمة • وكانت في عينيه الزرقاوين ، اللتين يغطيهما جفناه ، نظرة شيطانية متباهية • وقفته وحدها ، التي يميل فيها جسمه الثقيل الى اليسار ، كانت تحمل الاهانة • ما عاد توم الاسود يطيق الاحتمال • وضرب المقصف بقبضته المشدودة وهدر • وذعرت فتاة البار • فوضعت يديها على حنجرتها ، قائلة : « يسوع ، مريم ، ويوسف » ولكن الغريب ان سويني او أيا من اصدقائه لم ينتبه اليه مطلقا • وهدر توم الاسود ثانية • فاستدار سويني اليه ، ووضع يديه تحت ابطيه وراح يراقبه • خيم الصمت ثلاث ثوان • وكان توم الاسود يهيىء في نفسه غاضبا ما سيقوله لسويني • وصرخ اخيرا :- ما الذي قلته لي في العام الماضي ؟ انك الان رجل عديم النفع ولم تعد تملك شيئا مما كنت تباهي به في العام الماضي !

فاسند سويني ظهره الى المقصف ووضع كوعيه عليه ثم فرقع الاصبع الثالثة والابهام من كل يد • وقال :

- لا يهمني ما قلته في العام الماضي أو هذا العام •

فخيم الصمت عدة ثوان ، بينما راح كل من الرجلين يحدق الى الاخر بغضب • ثم فجأة ضرب توم الاسود بقدمه اليمنى الارض وزعق ثانية •

- ليس في « انفيرارا » ثمة رجل قوي مثلي • انني لاستطيع ان أضرب باصبعي الصغيرة جميع الاوغاد ، والفئران ، والمخنثين أولاد القسس السكارى في كيلموريج •

ثم جعل يزأر ويفك ازرار صداره ببطء ، ويجهد لذلك في ان يحتفظ بتوازنه •

وهزأ سويني منه قائلا ، وعلى وجهه ابتسامة ازدراء :

- ساخبرك بما يجب عمله في شأنك • انك بحاجة الى شخص يمسح لك أنفك •

فزمجر توم الاسود ، وضرب الارض بقدميه الاثنتين ، وصر باسنانه وهو يتراجع خطوة ليقفز أو يفعل شيئا ما ، فسقط على ردفيه فوق برميل فارغ • ثم يعوي وكأنه ينتحب • وراح يولول قائلا •

- انني وحيد • اني لوحيد بين ثلاثتهم ، وليس هناك من يحمل سترتي عني بينما جحظت عيناه خارج رأسه • بحق الله ، لماذا لا يمسك بي احدهم قبل أن أقتله •

آنذاك شد سويني حزامه حول خصره ، وقد رأى عدوه مذهولا عنه بالخوف ، وألقى عنه سوطا ، ومطواة ، وثلاثة شصوص للصيد • وانتصب في وسط المكان وضرب الارض بقدمه اليمنى كمن يحب الشغب • ثم صاح ، موجها كلامه الى فتاة البار وفي عينيه نظرة لهفة :

- انني أقف كما خلقني الله ، وليس معي ثمة سلاح وما من رجل سيرفع يدا ليساعدني • والاكثر من هذا انني أستطيع أن أستل الحياة

من جسم اي رجل أنجبه أب سكران ، وأن بين الحاضرين لواحدا منهم ٠
وضحك الرجلان الاخران باستهزاء ، فزمجر توم الاسود ثانية وقد فارقه في تلك اللحظة غضبه كله ، اذ كان بطبيعته رجلا طيب الطباع ـ ليريهم انه لم يكن خائفا ٠ ووثب واقفا على قدميه فألقى عنه صداره بمحاولة أخيرة ٠ وسقط على المقصف فأسقط معه قدحا ٠ وهرع الجميع لالتقاط القدح وصاح كل منهم :ـ لا تحطم الدار ٠
فصاح توم الاسود :ـ سأحطم كل شيء ٠
واندفع ، حائدا عن سويني ، وراح يدور في الغرفة يضرب الجدران برأسه ويعض باسنانه المقاعد ، ويرفس برجليه في وحشية ٠ وتحرك سويني مقتربا من المقصف ، وهو يهتم بان يتجنب ملاقاته ٠ بدأت فتاة البار بالصراخ ٠ وأمسك الرجلان الاخران بتوم الاسود ، وقد استشعرا الشجاعة لانهما ما كانا يريدان ان يشتركا في القتال ، وحاولا ان يحاججاه ٠ ولكن ما ان حاولا ذلك ، حتى استبد الغضب بتوم الاسود ٠ وغدا متوحشا لقد صار واعيا بقوته العظيمة ٠ فأمسك كلا منهما باحدى يديه وبدفعة واحدة جعلهما يرتطمان بالحائط ، حيث وقعا مكومين دائخين ٠ ثم اندفع باتجاه سويني ، الا ان سويني خطا الى أحد الجانبين بمهارة مما جعل توم الاسود يصطدم بالمقصف بعنف ، وينهار دائخا ، بينما وقف سويني منتظرا بقلق ويداه تتدليان الى جانبه ٠ ظل توم الاسود متخاذلا بالقرب من المقصف وقتا طويلا ٠ وبدأ دماغه يعمل ثانية ٠ لقد غدا خائفا ٠ وسرعان ما أحس بأنه كان يجعل من نفسه أحمق ٠ فلربما يقبض عليه ويسجن ٠ ما الذي يفعله سويني هناك خلفه ؟
لماذا كانوا صامتين جميعا ؟ تظاهر بأنه سكران جدا ، رغم انه كان الان صاحيا تقريبا ٠ وأخذ يهذي بصخب ويصفق ويلقي بيديه باتجاه المقصف كيفما اتفق ٠ ثم كافح ليقف ثابتا ، وأخذ ، اذ هو يتظاهر بأنه لا يرى سويني ، يشدقميصه ويدمدم :
ـ ليس هناك ثمة رجل ٠٠
حينذاك ، وقد تملك سويني الغضب خوفا من ان يمسك به توم الاسود ويسحقه بين ذراعيه حتى الموت ، لطمه فجأة على فكه فوقع مترنحا الى الارض ٠
بعد لحظة عاد اليه رشده فسمعهم يتكلمون ٠
قالت فتاة البار :ـ يا للرجل المسكين ، ليس به من ضرر سوى انه يفقد عقله حين يشرب قطرة صغيرة ٠
قال سويني :ـ ما من أحد تعرض له بكلمة واحدة ٠
وقال أحد الرجلين :ـ لو ان شخصا اخر رماني بتلك الصورة ٠٠
أحس توم الاسود بالخجل من نفسه ، ولكنه كان أضعف من ان يستعيد اعتباره بالقتال ٠ بدل هذا ، شرب كأسين من الويسكي بسرعة

وترك الحانة • وفي طريقه الى البيت بكى بصوت عال • كان يتوقف وسط الطريق ويصر باسنانه مقسما على أن يقتل سويني ذات يوم •

وحين بلغ البيت حطم جميع اثاث المنزل • وتناول عصا فشحذها ليضرب بها سويني ، وأخيرا سقط نائما على المدفأة • في الصباح التالي كان الصداع يملأ رأسه حين ذهب الى العمل •

كان توم يفعل ذلك مرتين في كل سنة •



المصلحة الاجتماعية في عقاب المجرم

تحليل التطور لمفهوم الجريمة في علم الاجرام والقانون الجنائي

الدكتور عدنان الدوري

قد يميل الانسان بطبعه الى الاهتمام بكل ما يثير في نفسه دافع حب الاستطلاع أو ما ينبه فيه ذلك الميل الفطري نحو سبر غور كل ما هو غريب غير مألوف • وموضوع الجريمة لاشك من الموضوعات المشوقة المثيرة التي تثير اهتمام الانسان بها في كل زمان ومكان • فالجريمة تدفع الناس على اختلاف ثقافاتهم وتباين ميولهم الى تتبع احداثها ووقائعها ، وتثير فضولهم الى معرفة ظروفها ودوافعها • ولعل اهتمام الفرد بموضوع الجريمة وتتبع احداثها مبعثه ذلك الاعجاب من جهة والخوف والقلق من جهة أخرى • الاعجاب بشخص المجرم لما يظهره من مظاهر الجرأة والاقدام والشجاعة ، ولما يبديه من قوة وثبات وتحد في مواقف مثيرة وذلك عند ارتكابه جريمته • وانفعال الخوف والقلق والشعور بعدم الامن والطمأنينة الذي يعتري النفس البشرية في مواقف الشعور بالخطر ، وهـذا انفعال طبيعي مصدره غريزة الحياة • فالفرد يشعر دائما بالخوف على نفسه أو ماله وذلك حين يصور لنفسه ما يراه في غيره فيبدأ هو نفسه بتحسس مواطن الخطر وكأنه يضع نفسه موضع الضحية في احداث الجريمة وظروفها •

والمعروف أن تاريخ الجريمة يتصل اتصالا وثيقا بتاريخ الجنس البشري أو تأريخ حضارته أو ثقافته • فالتأريخ القديم يذكر لنا ان الانسان الاول صنع السلاح من الحجارة كسبب من أسباب الحياة وذلك ليقتل بها صيده من الحيوان أو ليقتل بها الانسان في معركة البقاء • ويذكر لنا تأريخ المجتمعات الانسانية ان الجريمة لم تكن بالحدث الغريب النادر أو بالعمل الشنيع المشين • فقد عرفت بعض المجتمعات القديمة كعمل اعتيادي من اعمال الحياة وكنظام اجتماعي له قواعده ومقوماته وموجباته • لقد اتخذ الرومان القدماء بعض آلهة للجريمة • لقد كان للرومان الهاً للقتل يدعى « ﻫﻔﻮﻓﺎﻧﻮ » والهة للسرقة تدعى « لافيرنا » ، وآلهة اخرى لانواع متخصصة لجريمة القتل

كجريمة قتل الوالدين أو وأد الاطفال ٠

وظلت كثير من المجتمعات البدائية تنظر الى الجريمة نظرتها الى عمل من أعمال الشر الذي يتصل بالدين أو العقيدة الامر الذي أدى الى اختلاط مفهوم الجريمة بمفاهيم بدائية مختلفة كالسحر وتقمص الروح الشريرة لجسم الانسان وعودة الحياة أو الروح الى الحيوان أو الجماد أو غيرها من التفسيرات الغيبية الخرافية لطبيعة السلوك الاجرامي ٠ وكانت مجتمعات أخرى تنظر الى الجريمة كضرورة اجتماعية أو ضرورة اقتصادية لها أسبابها ومبرراتها ٠ فلم يكن وأد البنات أو قتل الاطفال خشية املاق لونا من ألوان الانحراف الاجتماعي في جاهلية العرب الاولى قبل ظهور الاسلام ٠ كما قد اعتادت روما القديمة وبعض المدن اليونانية القديمة أن تجيز قتل الاطفال المصابين بعاهة جسمية أو عجز عقلي أو حتى حين يكون الطفل غير مرغوب فيه من قبل والديه ٠ وظلت القرصنة والسرقة مباحة ضد الاجانب في الدولتين اليونانية والرومانية القديمتين قبل ظهور تشريع القانون الدولي القديم ٠ وكانت السرقة تعتبر عملا من أعمال الشجاعة والبطولة التي يكافأ عليها السارق لدى الكثير من المجتمعات القديمة في اوروبا وآسيا ٠ ويذكر لنا بعض فلاسفة الاغريق القدماء أن فعل اللواط كان من الاعمال المألوفة في مجتمعهم وكان ينظر الى علانيتها باجلال واحترام ، بل كان عدم اتيانها علانية يعد من الصفات المشينة ٠ ومارست بعض المجتمعات القديمة عملية الاجهاض بحرية مشروعة ، واجازت بعضها التخلص من الشيوخ والمرضى وذوي العاهات وذلك بقتلهم على أن يكون حق القتل هذا للاقارب وحدهم دون غيرهم ٠ وعرفت بعض قبائل افريقيا الوسطى والهند القديمة عادة تقديم القرابين البشرية تقديسا لارواح موتاهم ٠ ومارس الاغريق القدماء عادة تقديم الاطفال كقرابين بشرية تدرأ عنهم أخطار العواصف الهوجاء أو تمنع عنهم سخط الطبيعة وكوارثها ٠ وكانت بعض القبائل البدائية تدفن الزوجة وهي على قيد الحياة الى جانب زوجها المتوفى اظهارا للوفاء والاخلاص للزوج الراحل ٠ وكانت هناك مبررات اجتماعية وحضارية الى جانب دافع الجوع لدى بعض القبائل البدائية التي اعتادت أكل لحوم البشر ٠ فقد تأكل القبيلة لحم شيخها أو أميرها المتوفى تمجيدا لمنزلته وتقديرا لمركزه ومكانته ، وقد يؤكل القلب من الجسم وحده زيادة في التقدير والاجلال أو ليكسب آكله ما كان للمتوفى من قوة وشجاعة وسؤدد ٠ ومن القبائل البدائية ما كانت تتخذ من الاجساد البشرية الحية هدفا في تجربة سلاح جديد قاتل ، وقد يبقر احدهم بطن امرأة حامل ليكسب رهانا معينا يتوقف على معرفة جنس الجنين ٠ وكانت بعض القبائل الاخرى تتخذ من أطفالها طعما بشريا لاقتناص الوحوش وايقاعها في شباك صيدها ٠

واعتبرت بعض المجتمعات القديمة جريمة السرقة كجزء من نظامها

الحضاري فوضعت لها القواعد اللازمة لتنظيم ممارستها • لقد اباحت مدينة اسبارطة القديمة جريمة السرقة البسيطة ولكنها حذرت السارق من استعمال العنف والاكراه عند ارتكابها • وكانت مجتمعات قديمة أخرى ترغم أطفالها على احتراف السرقة كعمل من أعمال العيش • ويذكر لنا ديودرو الصقلي مؤرخ الحضارة المصرية القديمة في احدى رواياته ان السرقة لم تكن لدى الفراعنة من الاعمال المشينة التي تستحق العقاب • فهو يروى كيف ان حرفة السرقة كانت تنظم وفقا لنظام خاص يلزم السارق ان يقيد اسمه ومحل اقامته لدى « شيخ اللصوص » وهو ملزم بايداع المال المسروق لدى هذا الشيخ بعد كل سرقة يقوم بها ، وللمجنى عليه أو صاحب الحق في المال المسروق ان يسترد ما سرق منه اذا ما قدم لهذا الشيخ فدية أو اتاوة مالية أو مكافأة تعادل ربع قيمة المسروق • ويعلل ديودرو هذا الاجراء بأنه اتخذ لغرض مكافحة تفشي جريمة السرقة في المجتمع في تلك الفترة الامر الذي جعل المشرع المصري القديم يفضل ان ترد المسروقات لقاء فدية أو اتاوة صغيرة على ألا ترد المسروقات أصلا • ويحدثنا التاريخ المعاصر كيف أن القرصنة البحرية ظلت الى عهد قريب عملا من أعمال الجرأة والبطولة ، وكيف ظهرت تلك القصص والروايات الكثيرة التي تمجد مغامراتهم وتشيد بشجاعتهم وكأن اعمالهم تلك هي من الاعمال الجليلة التي تستحق الاعجاب والتقدير الاجتماعي الكبير •

وهكذا يبدو لنا من هذا العرض التاريخي الموجز كيف تطور مفهوم الجريمة خلال مراحل حضارية متعددة • وقد يبدو أن الجريمة تنطوي في معناها اللغوي على معنى الذنب أو الخطأ أو الجنوح • ولكن مفهوم الجريمة مفهوم اجتماعي معقد ينطوي في الواقع على معان مختلفة تختلف باختلاف استعمالها وباختلاف وجهة نظر الباحث في ماهيتها وطبيعتها • فقد يقصد بالجريمة تلك الخطيئة التي ينهى عنها الدين وهذا هو المعنى الديني للجريمة • وقد يراد بها ذلك الشذوذ الاخلاقي وانتهاك قواعد الاخلاق العامة التي يقرها المجتمع لافراده • وقد يراد بالجريمة في معناها الاجتماعي العام وهو الجنوح والخروج عن جادة الصواب التي رسم المجتمع حدودها وذلك عن طريق قواعد الضبط الاجتماعي كالعرف والدين والاخلاق والتقاليد وغيرها • ولعل الشائع ان يراد بالجريمة تلك المخالفة الصريحة لنص في القانون العقابي في مكان وزمان معينين • وهنا يضع القانون مفهوم الجريمة في اطار قانوني ثابت يجعل منها ظاهرة قانونية تخضع في ابعادها لنص من نصوصه ولا جريمة ولا عقوبة الا بنص في القانون كما هو معروف في مبدأ شرعية العقوبة •

ومع ذلك فللقانون الجنائي معنى اجتماعي عام ، حيث انه يمثل اداة من أدوات الرقابة الاجتماعية ووسيلة من وسائل الضبط الاجتماعي •

فالقانون الجنائي يهدف الى مراقبة سلوك الافراد أو يضبط تصرفاتهم وذلك ليجعل منها سلوكا اجتماعيا مقبولا ينسجم وما يرسمه المجتمع من قيود وحدود أو يتمشى وما تتعارف عليه الجماعة من قيم ومعايير وقواعد سلوكية جمعية ومواقف اجتماعية مختلفة • فالمجتمع هو الذي يفصل بين ما يقر من سلوك الافراد على انه سلوك صائب سليم مقبول وبين ما يستنكره أو يشجبه أو يحرمه من سلوك لا اجتماعي ضار بمصلحته • والقانون الجنائي لا يخرج عن أن يكون احدى الوسائل التي يعبر المجتمع بها عن مصلحته •

أما مصادر تحريم السلوك اللا اجتماعي فهي مصادر متعددة لا تقتصر على القانون وحده • فقد يتضمن السلوك الضار بعض ما يعارض قيما دينية أو أخلاقية أو أدبية أو اجتماعية • ولكن فلسفة التشريع الجنائي لا تتطلب غير تحقيق مطلب واحد وهو حماية المجتمع وضمان سلامته • وتحقيق مثل هذا المطلب الاساس يستلزم ان يلحق ضرر معين بالهيئة الاجتماعية وعندها يتوفر للمشرع ذلك السند التشريعي الذي يبرر تثبيت هذا السلوك الضار في اطار قانوني ثابت ندعوه بالجريمة التي يحق للسلطة العامة ان تتدخل لتؤكد تحريم مثل هـذا السلوك بالعقاب المقرر له • ومع ذلك فالقانون الجنائي لا يعمل بمعزل عن قواعد الدين وقواعد العرف الاجتماعي والاخلاق ، فيما لو حاول المشرع المعاصر بعثها في تشريعاتنا الجنائية الآن •

ولـكنه يقر الاهم منها فيثبت ما يهدد مصلحة المجتمع منها وما يتعرض لـكيانه وسلامته قبل كل شيء • فقد يجد المشرع الجنائي بعض السلوك الذي ينهى الدين عنه ، وقد يجد بعض السلوك الذي ينافي قواعد الاخلاق أو يخرج على عرف أو تقليد أو قاعدة اجتماعية سلوكية جمعية ، ومع ذلك فقد لا يجد المشرع السند الكافي لتدخله في تشريع التحريم المطلوب • وبعبارة أخرى فقد لا يجد المشرع في سلوك معين ما يهدد مصلحة الجماعة ، وفي مثل هذه الحالة يظل مثل هذا السلوك بعيدا عن متناول القانون بالرغم من أنه يظل سلوكا غير مرغوب فيه لاعتبارات اجتماعية أو أخلاقية أو دينية •

ويعد مفهوم المصلحة الاجتماعية من المفاهيم الاجتماعية المعقدة التي لا تعـرف الثبات والاستقرار ولا تتصف بالشمول والوضوح • فالمصلحة الاجتماعية مفهوم اجتماعي يتغير وفقا لنواميس التطور الاجتماعي ويتكيف وفقـا للضرورات الاجتماعية والمواقف الاجتماعية الجديدة • وما تأريخ المجتمعات الانسانية خلال عصورها الحضارية المتعاقبة الا عرضا واضحا لتطور مفهوم الجريمة وتطور فلسفة عقابها وفقـا لتطور مفهوم المصلحـة الاجتماعية ذاتهـا • ففي المجتمعات البدائية الصغيرة المنعزلة كانت هـذه المصلحة الاجتماعية تعنى مصلحة أفراد الجماعة انفسهم • لقد كانت مفهوما بسيطا واضحا يرتبط ارتباطا مباشرا بحياة الافراد وضمان سلامة عيشهم • وكانت قواعد العرف الواضح والقيم والتقاليد والدين والطقوس المختلفة

وقواعد السلوك الجمعي وغيرها من قواعد الضبط الاجتماعي تقوم بدور الرقيب المباشر الذي يسهر على تحقيق مصلحة الجماعة وتوفير أكبر قسط من الامن والاستقرار والعدالة الاجتماعية للافراد في تلك الجماعة • ولعل في تاريخ الجريمة والعقاب ما يفسر لنا بعض الجرائم الغريبة وعقوباتها التي عرفتها بعض المجتمعات البدائية والتي قد تثير الكثير من السخط والسخرية فيما لو حاول المشرع المعاصر بعثها في تشريعاتنا الجنائية الان •

ولكن مفهوم المصلحة الاجتماعية لم يبق على تلك العزلة والبساطة والوضوح التي طبعت حياة تلك المجتمعات البدائية الصغيرة • فالمجتمع لا يعرف الثبات والجمود ، وانما يخضع لنواميس التطور الاجتماعي ويتكيف لطبيعة الحاجات والضرورات والمواقف الجديدة • وتاريخ المجتمع الواحد يفيض بذكر تلك الضرورات والحاجات والظروف والمواقف الاجتماعية الجديدة • فزيادة السكان بنسبة هائلة ، والانتقال الكبير من حياة الريف البسيطة الى حياة المدينة المعقدة • وحركة الهجرة المستمرة ، وظهور بعض النظم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الجديدة • وطغيان القيم المادية على القيم الروحية في المجتمعات المعاصرة • وظهور النزعة الفردية وما فيها من مظاهر التنافس والصراع وطغيانها على روح التعاون والتعايش السلمي الجماعي السليم • والتغير والتبدل والاضطراب التي تناولت روابط الاسرة والعلاقات الاجتماعية في الجماعات الاولية والجماعات الثانوية المعقدة • وفقدان الكثير من قواعد الضبط الاجتماعية لاهميتها ووظائفها في الضبط والرقابة الاجتماعية • كل هذه التغيرات الاجتماعية وغيرها جعلت من مفهوم المصلحة الاجتماعية مفهوما جديدا معقدا يختلف عما كان عليه من البساطة والوضوح في المجتمعات البدائية الصغيرة • لقد تحول القانون غير المكتوب الذي اشتمل على العرف والعادة والدين والعقيدة والقواعد الاجتماعية الواضحة الى اطار وضعي جامد لا يحقق عدالة اجتماعية كاملة لجميع أفراد المجتمع الكبير في ظروف كثيرة • فالقانون الجنائي المعاصر أداة في يد السلطة العامة التي تعتبر نفسها ممثلة للافراد في الدفاع عن مصالحهم أو بالدفاع عن المصلحة الاجتماعية في معناها الجديد • لقد صارت مصلحة المجتمع بهذا المعنى هي مصلحة السلطة العامة ذاتها وما القانون الا مظهرا من مظاهر هذه السلطة وعنوانا لسيادتها • وصار العقاب حقا من حقوق السلطة العامة تتخذه بحق كل من ينتهك حرمة هذه السيادة أو كل من يخرج على هذا السلطان • وسواء كانت نشأة الدولة في معناها السياسي تستند الى أساس واقعي من القوة والتغلب ، أو كانت تقوم على اطار فلسفي يتضمن فكرة التعاقد أو العقد الاجتماعي أو الحق المقدس ، فقد أوكل الافراد الى هذه السلطة الحاكمة حق تعريف وتفسير وتقدير مفهوم الجريمة أو ماهية السلوك الاجرامي • وعلى هذا الاساس الواقعي وحده قامت فلسفة التشريع الجنائي

المعاصر في تقدير مضمون المصلحة الاجتماعية في معناها المعاصر • لقد شمل التطور الاجتماعي مختلف نواحي الحياة الاجتماعية لافراد المجتمع الامر الذي لحق بمفهوم المصلحة الاجتماعية ذاتها حيث تعرضت هي الاخرى لتطور اجتماعي كبير • لقد ظهرت جرائم جديدة واختفت جرائم قديمة • ان متطلبات طبيعة التطور والتغير الاجتماعي الكبير فرضت جرائم جديدة املتها ضرورات ومواقف وظروف اجتماعية جديدة • وهكذا اختفت جرائم تقليدية قديمة واختفت معها تلك العقوبات الشديدة الصارمة ، وحلت محلها جرائم جديدة كمخالفات المرور ومخالفات قوانين العمل والضمان والائتمان وقوانين الصحة العامة وقوانين المواصلات البرية والبحرية والجوية وغيرها من مجالات الحياة المعاصرة •

الا أن هذا التطور الاجتماعي الشامل لم يقتصر على تعديل الصفتين الشكلية والموضوعية لمفهوم الجريمة ومفهوم المصلحة الاجتماعية • انما امتد اثر هذا التطور الكبير الى ظهور فلسفة اجرامية خاصة لها مقوماتها ومبرراتها • لقد ظهرت فلسفة اجرامية جديدة تناولت أهداف المجرم وبواعثه وغاياته وقيمه ومواقفه واتجاهاته المختلفة من جهة ، ومن جهة أخرى فقد تعدلت أساليب الاجرام وتطورت فنون الجريمة ووسائل ارتكابها • وظهرت الجريمة المعاصرة في ثوب جديد قد يثير بعض الاعجاب والاغراء • لقد فقدت جرائم القتل والسرقة والايذاء مكانتها التقليدية في عالم الجريمة وظهرت فلسفة اجرامية جديدة تقوم على مبدأ الكسب السريع والحصول على أكبر مغنم بأقل جهد ممكن ودونما الحاجة الى استعمال الاكراه أو اللجوء الى أساليب العنف المعروفة • وصار المجرم الجديد كرجل الاعمال يحرص كل الحرص على تحقيق كسب غير مشروع بطريق مضمونة لا تعرض حياته أو عمله الى خطر جسيم • فهو رجل أعمال مخاطر مغامر وهو يحاول جهده ان يعمل بكل روية وحكمة ، ويتخذ ما امكنه من حذر وحيطة ، ويقوم بعمله خير قيام وبكل ما لديه من مهارة وخبرة ، مستعينا بكل ظرف وموقف ، حاسبا لكل شيء حسابه •

وبدأت الجريمة المعاصرة تأخذ طريقها نحو الكمال في التنظيم والدقة في الطريقة والاسلوب • وبدأ ظهور ما يعرف بالاجرام المنظم وظهر صنف من المجرمين يعرف بالمجرمين المحترفين الذين احترفوا الجريمة عملا من أعمال العيش والحياة ، لا يعرفون سواه ولهم فلسفة اجرامية خاصة تقومه وأسلوب في الحياة ينظمه ويرعاه • فالمجرم المحترف رجل سلم يخشى استعمال العنف والقسوة في عمله وحرفته الا عند الضرورة القصوى • وللمجرم المحترف فلسفة خاصة يدين بها في حياة الجريمة والعيش في عالم الاجرام السفلي • انها فلسفة خاصة خاطئة تقوم على اطار واقعي من القيم والمعايير المعكوسة التي اتخذها المجرم المحترف لنفسه سلاحا يعارك فيه عالم الامانة والاستقامة ويعارك فيه عالم النزاهة والعيش الشريف • فالمجرم

المحترف لا يميز بين ما هو مشروع وغير مشروع الا بمقدار ما في العمل من جهد وخبرة وفطنة وقدرة وذكاء يجنبه الوقوع في يد القانون والعدالة • فهو يرى ان الناس جميعا لا يتورعون عن ارتكاب الجريمة والحصول على كل مغنم غير مشروع حين تسنح لهم الفرصة أو يسمح لهم الظرف المناسب، ولكن بعضهم قد تعوزه الجرأة والشجاعة أو يفتقر الى المبادأة والاقدام، وهذا هو أساس الاختلاف بين المجرم وغير المجرم • وما أكثر ما يجد المجرم المحترف في واقع مجتمعنا المعاصر من الامثلة التي تبرر رأيه وتدعم موجبات فلسفته الاجرامية الخاصة • فهو اليوم يلمس الكثير من سوء التصرف والاثراء غير المشروع في ميادين الطب والقضاء والاعمال الحرة وغيرها من مجالات الكسب غير المشروع • وهو يجد في جرائم ذوي الياقات البيضاء أو ما تعرف بجرائم الخاصة ما يقيم دليله الواضح على ما تقوم به مثل هـذه الطبقة المترفة الموسرة من أعمال غير مشروعة في ميادين التجارة والصناعة وعالم المال والخدمات العامة والترفيه دون ان تمتد اليها يد القانون لاسباب كثيرة •

وخلاصة ما تقدم فقد يبدو لنا ان مفهوم المصلحة الاجتماعية قد اختلط بمفاهيم متعددة تختلف باختلاف المصالح الاقتصادية والمصالح السياسية التي ظهرت كنتيجة طبيعية لتطور المجتمعات الانسانية وتعقد علاقات الافراد وتشابك مصالحهم • فمن الصعوبة بمكان ان نحدد الآن تلك الافعال التي تضر بمصلحة معينة من هذه المصالح المتعددة المتضاربة المتصارعة • فالتعريف القانوني للجريمة لا يسعفنا بشيء وذلك لانه ينطوي على ذكر الافعال التي ينص القانون الجنائي على تحريمها بالعقاب • اما التعريف الذي يقدمه لنا علم الاجرام وهو العلم الذي يعنى بدراسة السلوك الاجرامي دراسة علمية منظمة فهو أن الجريمة هي كل فعل ضار بالمجتمع حتى وان لم ينص القانون الجنائي على تحريمه بالعقاب • فليس كل خرق لقواعد القانون الجنائي يعتبر في حقيقته عملا ضارا بالمجتمع أو تهديدا مباشرا للمصلحة الاجتماعية • وعلى هذا فان معنى السلوك الضار اجتماعيا لايعني أكثر من وصف مجرد لسلوك معين ولكنه لا يعين الضرر ولا يحدد موضوعه ونطاقه • وهكذا يترك تقدير الضرر لتقدير الباحث وفقا لاحكامه القيمية الذاتية وهذا تقييم نسبي لا يضع لنا معيارا ثابتا أو قاعدة موضوعية تصلح للقياس السليم • فما هي المصلحة الاجتماعية بالذات ؟ ومتى يصبح الاعتداء عليها أو متى يصبح انتهاك حرمتها جريمة يعاقب عليها المجتمع لصالح الهيئة الاجتماعية ؟ والذي نراه هنا أن على الباحث في هذا المجال ان يحدد أولا فكرة السلوك الضار بالمجتمع وذلك على ضوء معيار محدد وقاعدة ثابتة موضوعية • وقد يكون هذا اما بتحديد قواعد السلوك العامة وذلك بتعيينها وحصرها وتصنيفها وتبويبها وتحديد أوجه الشبه واوجه الاختلاف بين صنوفها بشكل لا يترك مجالا للغموض والالتباس في ماهيتها وفي هذه الحالة

يتسنى لنا أن نتبين تلك الافعال التي تعد خرقا لهذه القواعد العامة وذلك عند حدوثها • أو قد يكون من المفيد حقا ان نعيد النظر في صياغة تعريف جديد للجريمة في معناها القانوني القديم فنتوسع في اطلاق مفهومها أو في طبيعة السلوك الاجرامي ذاته • وهنا ينبغي ان يتناول التعريف الجديد كافة الافعال التي تعتبر ضارة بالهيئة الاجتماعية على ضوء كافة الضرورات والمواقف والظروف الاجتماعية الجديدة التي يتعرض لها المجتمع في تطوره المتواصل • وفي هذه الحالة يشتمل تعريفنا القانوني للجريمة على جميع الافعال التي قد تضمنها ذلك التعريف التقليدي للجريمة الى جانب كافة الافعال والانماط السلوكية الجديدة الضارة بالمجتمع والتي تجاوزها القانون الجنائي في تعريفه القديم •

مراجع البحث

بالعربيـــة

١ ـ علم الجريمة ـ تاليف حسن شحاته سعفان ـ ١٩٦١ •
٢ ـ علم الاجرام ـ تاليف رمسيس بهنام ـ الجزء الاول • ١٩٦١ •
٣ ـ المجلة الجنائية القومية : المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ـ القاهرة •

بالانكليـــزية :

1. Crime in Modern Society, Elliott, Mabel, 1952
2. Society and the Criminal, East, Norwood, 1951
3. Crime and Abnormality, Binney, Cecil, 1949
4. Encyclopedia of Criminology, Vernon Branham, Samuel Kutash, 1949
5. Crime and the Community, Frank Tannenbaum, 1938
6. Sociology of Deviant Behavior, Marshal Clinard, 1957
7. The Challenge of Delinquency, Teetersand Reinemann, 1950

كتب الشهر

العراق في الشعر العربي والمهجري

تأليف

الدكتور محسن جمال الدين

(٤٩٤) صفحة من القطع الكبير ، مطبعة الارشاد ببغداد

لم يزر العراق أحد من اخوتنا العرب في دنياهم الواسعة الكريمة الا وخرج منه يحمل المحبة والاعتزاز والشكر لما لمسه فيه من علم وفضل وسخاء وأريحية ، فكان ان ظفرنا بحصيلة غنية من الشعر والنثر الذي انطلق من أفواه اولئك الزائرين فرأى الدكتور محسن جمال الدين أن يجمع تلك الاقوال والاشعار في كتاب ليحتل مكانا متواضعا في رفوف المكتبة العربية التي لا زالت بحاجة ماسة الى المزيد من الآثار والمؤلفات التي تدرس الرافدين وتاريخه وآدابه ومواطنيه وتكشف عن اصالته العربية العريقة وسجاياه الحميدة وأدبه السمح وتاريخه العظيم .

ولقد جمع المؤلف أقوال الادباء والشعراء من اجزاء الوطن العربي : من وادي النيل ومن فلسطين ومن الاردن واليمن والمهجر ... الخ فكان أن قدم لنا نماذج من حليم دموس وأنور العطار ، الأخطل الصغير ، الياس قرحات ، شبلي ملاط ، علي الجارم ، محمدعلي الحوماني ، الشيخ مصطفى الغلاييني ، زكي مبارك ، نزار قباني ، محمد الاسمر ، شكرالله الجر ، حسن الامين ، الامير صقر الهاشمي ، بدوي الجبل ، الشاعر القروي ، عمر أبو ريشة ، أمين نخلة ، زكي المحاسني ....

والواقع ان الدكتور محسن جمال الدين لم يكتف بايراد ما قاله اولئك في العراق .. بل قدم للقارىء دراسات موجزة عنهم وانطباعات شخصية تعين على تفهم الكثير من النماذج اضافة الى حياتهم الادبية .

السجع وأطوار استعماله في أدب العرب

تأليف

عبدالستار فوزي

[٤٨] صفحة من القطع الكبير ، مطبعة الشركة المركزية للطباعة والاعلان ببغداد

لقد استعمل العرب منذ جاهليتهم (السجع) .. هذا النوع من النثر

الموزون حيث تتواطأ الفواصل فيه على حرف واحد · وربما كان استعماله في تلك العصور من مميزات بلاغة العرب القطرية اذ كثيرا ما نلاحظ ان النصوص المسجوعة كانت تنقل على ألسنة البدو والأعراب وهم الذين أخذت عنهم فصاحة اللسان ·

والمشهور أيضا ان الدين نهى عن السجع لمضاهاة الكهان ، ولانه خروج عن طبيعة اليسر في التعبير ولما فيه من الفراغ الفكري والفضول المنطقي · ولكن العرب الذين انقطعوا عن السجع ما لبثوا أن عادوا اليه مرة ثانية في زمن الجاحظ وبعد ذلك الزمن دون أن نغفل عما في السجعين من فوارق ·

وهذا البحث الذي يقدمه الاستاذ عبدالستار فوزي يبين لنا تلك الفروق والأطوار التي مر بها السجع ·

العقوبات ونظم الوقاية
تأليف
جان كرافن

ترجمة الدكتور حمودي الجاسم
(١٥٢) صفحة من القطع الكبير ـ مطابع دار البصري ببغداد

···· ان تعريب هذا الكتاب القيم له دوافعه وأسبابه · فلقد أرادت الجمهورية العراقية اعداد قانون العقوبات العراقي بدلا من القانون الموضوع سنة ١٩١٨ وكذلك قانون أصول المحاكمات الجزائية البغدادي ، وكان المعرب أحد الذين اختيروا لاعادة النظر في القوانين القديمة فكان ذلك حافزا له ليقدم الى العربية بحوثا غنية في مادتها وفي شرح روح التشريع وأهدافه ووسائله الوقائية والعلاجية والتهذيبية والتأديبية لتعين على الدراسة والمقارنة والاختيار فعمد الى ترجمة كتاب [العقوبات ونظم الوقاية في قانون العقوبات السويسري] للعلامة الفرنسي جان كرافن ، وقد أحسن المعرب صنعا حين زود ترجمته بهوامش كثيرة للمقارنة مع ما هو موجود في القوانين العراقية المعمول بها وبين التشريع الجديد ·

ضريبة الدخل في العراق
من الوجهة الفنية والاقتصادية وفقا لآخر التعديلات القانونية

تأليف : الدكتور صالح يوسف عجينة
(٧٣٦) صفحة من القطع الكبير ـ المطبعة العالمية بالقاهرة

لا شك ان موضوع ضريبة الدخل من أهم الموضوعات التي تشغل

بال الحكومات ، ولا سيما الحكومات التي تتطلع الى النمو الاقتصـــادي والعدل الاجتماعي . ولقد أحس المؤلف بذلك فعمد الى دراسة ضريبـــة الدخل في العراق فاصطدم بعدم وجود أية مصادر عن الموضوع .. الا ان هذه العقبة الكبيرة لم تثبط همة المؤلف ، بل صارت دافعا قويا يدفعه الى أن يضع كتابا في الموضوع الذي تفتقر اليه المكتبة العربية . فكان أن وضع هذا الكتاب الذي بدأه ببحث تمهيدي موجز عن نظام الضرائب في العراق ثم بحث في ضريبة الدخل الحالية من الوجهة الفنية ثم بحث فيها من الوجهة الاقتصادية والاجتماعية .

مهـرا لعينيهـا

ديوان شعر

محمدعلي الخفاجي

١٩٢ صفحة من القطع الصغير ـ مطبعة النعمان ـ النجف

« عيناك عروس ، وللعروس مهر ، وحزمة سنيني العشرين هي المهر » بهذا الحديث قدم الشاعر ديوانه الى القراء .. عدا مقدمة الدكتورة سعاد البزري التي قالت عن صاحب الديوان انه : « شاعر شاب ، شاعر يعرف كيف يجرح كبرياء الحرف وعنفوان الكلمة ، ويسلب تقوى التعبير وورعه » تضمن الديوان (٢٧) قصيدة .. حملت سبع منها عنوان العـــين .. أما الباقيات فهن من الشعر الوجداني أيضا . والديوان كما قال عنه الدكتور عناد غزوان « محاولة شعرية جديدة وناجحة دون أدنى شك ولربما سنقرأ بعد (مهـرا لعينيها) آملا أخضر سيولد عن ذلك المهـــر في ديوان ثالث شاب » .

مذكراتي في صميم الأحداث

بقلم

محمد مهدي كبـه

٤٤٨ صفحة من القطع الكبير ـ منشورات دار الطليعة ببيروت

واكب الشيخ محمد مهدي كبه الأدوار السياسية المختلفة التي مرت على العراق ، بل كان عنصرا بارزا في بعضها ان لم نقل أغلبها فهو اذن من القلائل المطلعين على الكثير من الخفايا والاسرار السياسية التي هي خافية على الرأي العام .

وقد عزم المؤلف على تدوين مذكراته بعد أن شعر بأن الواجب الوطني يلزمه بتدوين الحقائق التي يعرفهـــا وتسجيل الوقائع التي لاتسجلهـا المحاضر الرسمية ، فكان ان رجع الى ما كان قد سجله على أوراق ودفاتر مبعثرة ، يصنفه ويبوبه ، والى ذاكرته يستنطقها الحقائق ، دون أن يغفل الرجوع الى مصادر اخرى ككتاب الوزارات العراقية للاستاذ الحسني لتعينه في تذكر بعض الحوادث وشخوصها وتواريخها • ولقد بدأ الاستاذ المؤلف كتابه بالحديث عن ولادته في سامراء ، ثم تأسيس ما سمي بالحكم الوطني ، ثم المعاهدة العراقية ـ البريطانية الاولى •• ثم الحياة الحزبية آنذاك •

ثم تحدث عن تأسيس حزب الاستقلال ، وكان الاستاذ المؤلف رئيسه، وعلاقته بالاحزاب الاخرى • وانتقل بعد ذلك الى معـــاهدة بورتسموث ووثبة الشعب التي أحبطت تلك المؤامرة • ثم تحدث عن حرب فلسطين ، والاتحاد السوري العراقي واتفاقية النفط •• ثم انتفاضة الشعب في العراق عام ١٩٥٢ ••• ثم حلف بغداد وما صاحبه من حكم ديكتاتوري • وأخيرا أضاف المؤلف الى كتابه القيم ملحقا يتضمن بعض المذكرات الهامة التي رفعها المؤلف باعتباره رئيسا لحزب الاستقلال الى الحاكمين في حينه •

• • •

آراء وتعقيبات

مرورا بمعرض شاكر حسن آل سعيد

قامة الرسام المتحرك باشراق

عبدالرحمن طهمازي

في المرة الاولى التي دخلت فيها الى معرض رسوم شاكر حسن آل سعيد ، خرجت قبل أي انسان دخل المعرض ولم يخرج بعد ، ولكني مع ذلك كنت أحس ان الوضوح قد جانب الكثيرين ممن دخلوا المعرض للتفرج على الرسوم • فذهبت له مرة ثانية وتأكد لي شيء الح علي لدرجة الامانة وهو ضرورة تفسير المعرض تفسيرا صوفيا ، وقلت من الضروري عمل تفسير صوفي لرسوم شاكر ، لان الاشياء لديه لا تتخذ شكلها الاعتيادي ، بل يعيش فيها المثال ، وتتخذ ايضا صفة التعالي والارتفاع نحو ما يبغي هو •

وذهبت اذن للمعرض ، لهذا السبب ، أكثر من مرتين ، لدفع ما اريد صناعته للرجل •

فاللوحة لدى شاكر حسن جسد ، يحمل التوتر الخلاق من الرصيد الصوفي المذخور ، فيجب أن تكون معاملتها على هذا الاساس ، أساس الاحتفاء وما يحمل من معاني تطلع الجسد ، والخروج به من المعدة والامعاء والاصابع والتنفس ، لذلك تكون اللوحة حركة صوفية ذاتية تتحرك وداخل الفنان نفسه ، وتحمل فرح الصوفي وخوفه ، وحركة اطرافه وثباتها واحتجاجه الصارخ على الحياة في الاضراب على الموت داخل الناس وتكون القيمة آنذاك متساوية • موت = حياة أو كما يقول الحلاج :

اقتلوني يا ثقاتي ان في قتلي حياتي
وحياتي في مماتي ومماتي في حياتي

وتكون حتى ثنائية التبعية العضوية في الجسد خلال عيشه ، بين الموت والحياة ، وتلك هي خبرة الصوفي •

وحينما تكون اللوحة جسدا لا مجال للتوقع – آنذاك – للحركة وغير

الحركة وللمنطق وغير المنطق ، فليست الرقابة قائمة هنا من الرائي الى الرسوم ، حتى ان الوفاق بين المتفرج واللوحة قد ينتهي بتسرع من النظرة الاولى . اما الخط لدى شاكر فهو غير مستقر بمعنى انه حتى تحديد النظر فيه لا يعني شيئا ، فهو يتحرك بقوة حتى يخفى عن مكانه ، عند ذلك يبدأ اللون بتقديم الجواب ، والجواب هنا ايضا ينسب الى الخط ، هنا وللمرات كثيرة في معظم اللوحات تبدأ الصعوبة في هذه الاحالة (احالة اللون التفسير الى الخط) [حضور الخط ١٥] .

ولعل هذه الصعوبة مع صعوبة أخرى تجعل المعرض يبدو باردا لدرجة لا تحتمل وخاصة للزوار الذين اتوا متفرجين ، اذ ان التفرج لا يكفي لرسوم شاكر حسن ، بل ان سبب فشل الكثيرين في فهمها يرجع الى ان الزائر يأتي بصفة المتفرج ، فالرؤية هي الحل حينما تبدأ الرسوم بالفناء داخل الرسام نفسه . الزائر هنا اذن رائي يلاحق بقوة واصرار الرسام ، الرائي يكون للمرات الكثيرة هو الرسام خلال رسمه . المسألة تبدو أكثر صعوبة ، اذ أن عالما داخل عالم يحتاج الى رواد من نوع فريد .

ويتكون شاكر حسن انسانا برسومه اولا ، وبالاتكاء المريح الى التذكر للوقت والارض والسماء ، وحدة التذكر ومعاملة مادته بقسوة تدمر الحاضر كمجال للتذكر ، حيث يبدو الحاضر مستقبلا للايام المنصرمة ، وفي الآن نفسه يبدو ماضيا للايام المقبلة . ثم بالحث على الوصول والتحول والتذكر الذي يلزم السفر نحو التوحيد الفاني [انا انت هو ٣٧] والحلــول والوحدة .

والعنوان لديه هو شبكة العلاقات الكاملة للفن في رسومه ، لان تمزيق الشكل ، وجعل التجريد الضرورة لا الاحتياط ، ينحل للمرات كلها الرائي ، فمركز الصورة اذن يعلقه في ذهن الرائي العنوان ، يبتدأ الرائي بالعنوان وينتهي ، بعد التعب البارد ، الى العنوان المنقذ .

ويحتل العنوان مقعد المنقذ الصوفي للرسم ، لان شاكر حسن ، كما يبدو ، يفهم طبيعة العبارة الصوفية المحضة فهما موضوعيا صميميا ، وقد ادت العناوين دورها في الالغاز على الزائرين ، لان المدلول اللغوي عند الصوفية يتحول الى مصطلح متحدد بالرصف الترتيبي لحروف الكلمة .

ويتمدد شاكر حسن على اللفظة الصوفية لحد سحقها والدخول اليها بكل عظامه واعطائها صفة التعريف واضافتها الى الرسم اضافة جدية قديرة مختصة [المقام الرمادي ٥٢ ، المقام الازرق ١٩] . وتبتدىء الهداية عنده وجفاف العين لحد الرؤية الواضحة الشرسة للاشياء في تدميره للعين واحالتها الى التنقل الآلي المحايد [حضور الخط ١٥] فالخط هو دليل النصبة للاشياء على الله ، والصوفية يكمن حزنهم في ان منشور الاختيار واضح الخط ولكن الاستخراج ضعيف .

ثم تستطيل الاشياء لديه لحد الارتفاع ، فجثة الفنان تبدأ بالصعود حتى الفناء ، الصعود الى الله ويكون معراج الفناء هو ذكره أي فناء العبد فيه و (لما علم الحراس ان اصواتهم بسمع الملك هان عليهم السـهر) [معراج فنائي (ذكره) ٢٠] والتأهب للسفر يكفي المسافر المؤنة ، لان ما بعد الليل هو الوصول ووقوف الاشياء في العلانية ، والمسافر يتلمسها تتقدم اليه ، ولكن شرط السفر وخيطه هو أن يكون المسافر خفيف النوم ولا يطيق السفر في الليل للوصول ، الا مضمر المجاعة حيث النجائب في الاول وحاملات الزاد في الاخير [ما وراء الليل ٩] .

ولعل اللون العجمي في ثلاث لوحات [الديك ٤ ، الوجه المجنح ٥ ، بغدادية (١) ٦] يجمعه اكمجاز تاريخي حي للارتباط بالحب العجمي حيث تستطيع هي الالوان العجمية بتقديم جميع التنقلات والفكرات عن الاستعداد .

ويتخذ العنوان ايضا طابع اللهجة الصوفية في كتب الصوفية القدماء [فصل في التنافذ ٣٣] وهنا يتقدم الينا شاكر وهو يحمل شارة اللهجة الصوفية بمكان آخر .

وبغداديتاه [٦ ، ٧] تشكل كاستعارة جغرافية لعدم التضحية بعوالمه والاحتفاظ بها لحد الالفة والمراجعة .

والغياب والحضور لدى شاكر يتخذان جادتين للوصول ايضا فمهما تعددت السبل فالوصول واجب ومأمون فـ [غياب القصد ٤٥] هو الوصول بارسال السجية وهو بالتالي مقام المراد حيث الرؤية المتسعة تغني العبارة والتدني ، وهو كذلك يمحو كل تشخيص لان الوضوح لدرجة الخفاء يبدأ أولا بازالة التشخيص — حتى التشخيص المتـأكد في البدايات الصغيرة [غياب التشخيص ٣٢] .

ودلالة المسائل تبدأ في ذهن الصوفي لا من الباطن فحسب ، لان الباطن والظاهر يختفيان عند الغرض ، حيث يكون مأخذ المسائل كفراسة ايمانية ، يدعو النبي محمد الناس ان يتقوا من اجلها عين المؤمن لانه ينظر بنورالله . الجواهر تؤخذ من اعراضها احيانا ، في الانسان ، والوجه يعطي سيميا الرجل ، السجود أو الفجور أو غيرهما ، [العندليب من لون قفصه ٣٨ ، النار من لون وهجه ٤٤] .

وتتخذ الاشياء ذات الطابع اللاحسي صفة المرور في الصوفي ، فالمثال لا يقع أبدا في الارض ولا ينتظر الناس سيره على الطين بأحذية ، فتتخذ الاشباح « مكان الروح » عند الصوفي ، فالارواح في الاشباح كالاطيار في الابراج وليس ما أعد للاستفراغ كمن هيء للسباق كما يقول بن قيـم الجوزية فالشبح اذن قاعة السبق للارواح [اشباح ٤٠] والاشباح ككلمة لا تتخذ لدى شاكر مدلولا لغويا يؤخذ من المعجم .

وكذلك الطريق الذي لا يدنس ولا يفوته العابر بيسر ، فالاشياء عليه

ولا تغطيه بل هو الذي يرفعها والاشياء مفرقة ممتنة اليه ، وهو الحقيقي وهي البدعة ، لان الطريق هو حظ العابر والسابلة والساقة ، والنوم ، اذا كان ثمة نوم ، فيجب أن يكون على الطريق لان حراس البلد يصيحون دنا الصباح والامير يراعي الساقة كما يقول بن قيم ، والعار ليس هو الطريق [العار ظل على الطريق ٣٤] وما زال على الطريق باقيا .

وتتخذ الاشياء عند شاكر حال الخروج عن السلطنة والمكان الى الماوراء ، أي ان عملية الرسم لديه تكون ما بعد الاختبار = ما بعد الانفعال = ما وراء الحال [٥٣] .

ولكن حس الماوراء وعدم قبول الوقت ورفض الماقبل والشروط التي ماتت فيه ، كل ذلك يكون ، لان التكشف والتلقي يبدأ في الماوراء وبعد عملية المجاهدة تبدأ المشاهدة والكشف .

وشاكر حسن آل سعيد يعين بعض الاشياء ويساعدها كي تقوم ، حيث يكون اللون لديه مكانا وسلطنة ، وهنا تخرج رسومه الى الخارج — خارج الاطار ، وتنفسح حينما يتاح لها مجال الانفساح ، وتمزيق المكان .

وتتخذ لديه النقطة صفة الشمول حتى البسط ، والابتعاد عن الموطن حتى الانس به — حتى القبض [شمول النقطة « القبض والبسط » ٢٥] .

هكذا يمكن أن تضاف بعض ملاحظات حول معرض الرسوم هذا ، ولكن هذه الملاحظات تبقى ذاتية ايضا ، لانه ليس هناك تحديد واحد لمفاهيم التصوف ، عند المتصوفة أنفسهم ، فكما ان ممارسة الطريقة هي ذاتية فطريقة التعبير عنها تبقى ذاتية كذلك .

لذلك كانت علامة الاستغراب تظل تدخل معرض شاكر حسن آل سعيد مع دخول الزائر ، ولم تكن لحسن حظ شاكر تخرج بخروج الزائر .

اضواء على السياسة العالمية

في بداية الشهر الماضي مرت العلاقات العراقية الايرانية في احرج مرحلة من مراحلها وصلت في نهايتها الى تقديم مذكرة الاحتجاج التالية من قبل الحكومة العراقية وهذا نصها :

مذكرة احتجاج تقدم للسفارة الايرانية

استدعى الدكتور عدنان الباجه‌جي وزير الدولة للشؤون الخارجية في الساعة السابعة من مساء أمس في مكتبه الرسمي في ديوان وزارة الخارجية القائم بالاعمال الايراني في بغداد وسلمه مذكرة الاحتجاج التالية :ـ

« تهدي وزارة الخارجية تحياتها الى السفارة الشاهنشاهية الايرانية ببغداد وتتشرف بان تبدي انه قد لوحظ في الآونة الاخيرة ـ مع الاسف الشديد ـ ان حالات اسداء المعونة المادية والمعنوية الى المتمردين في شمال العراق من جانب الجهات الايرانية قد ازداد بشكل محسوس وبلغ الامر درجة من الخطورة بحيث سمح للمتمردين باستخدام الاراضي الايرانيـة لقصف مواقع قطعات الجيش العراقي وآخر ما حدث من هذا القبيل استخدام المتمردين بتاريخ ٢ و٣ من كانون الثاني عام ١٩٦٦ الاراضي الايرانية قاعدة قصفت منها مدافعهم مواقع قطعات الجيش العراقي في بنجوين مما أدى الى تكبد هذه القطعات خسائر بالارواح والتجهيزات ٠

ومن أمثال المساعدات المقدمة الى المتمردين تجهيزهم بأسلحة لا يمكن ان تمر داخل أي قطر أو بلد الا بعلم سلطات ذلك البلد نظرا لطبيعتها وحجم القطعة الواحدة منها والكمية المنقولة مثل مدافع الهاون ١٢٢ ملم و٨١ ملم وقاذفة ٨٣ ملم و٥ر٣ عقدة وكميات كبيرة من اعتدتها الامر الذي يسر للمتمردين الرمي بها كأي قوة عسكرية مقاتلة وبشكل لم يكن مألوفا من قبل هذا بالاضافة الى استعمالهم الرمانات اليدوية نوع « ركس » والغاما نظامية حديثة ضد الدبابات وضد الاشخاص ٠

ولدى المراجع العراقية المختصة نماذج من هذه الالغام وعتاد الهاون وبقايا قسم من الاعتدة المرمية الاخرى وكذلك تجهيز العصاة باعداد كبيرة من بنادق البرنو من انتاج المعامل الحربية الايرانية مع كميات كبيرة من اعتدتها وهي من نفس الانواع المجهزة بها القطعات الايرانية ٠

ان الوزارة لعلى يقين بان السفارة المحترمة تقدر تماما خطورة قيـام المتمردين بقصف القطعات العراقية من الاراضي الايرانية وما يمكن ان ينجم

عنه من عواقب وخيمة فيما اذا استمر ٠

ولاجله فان الوزارة اذ تحتج احتجاجا شديدا على هذا العمل ، لها وطيد الامل في الوقت ذاته بان الحكومة الشاهنشاهية الايرانية ستبادر الى اتخاذ الاجراءات اللازمة والسريعة لوضع حد له وللمساعدات الاخرى حرصا منها على الحفاظ على علاقات حسن الجوار بين البلدين وعلى الامن والسلام في المنطقة ٠

تنتهز الوزارة هذه الفرصة للاعراب للسفارة المحترمة عن فائق تقديرها واحترامها ٠

وتبع ذلك ان استدعى السيد وزير الدولة للشؤون الخارجية سفراء الدول الكبرى واطلعهم على حقيقة الموقف الذي تتخذه السلطات الايرانية في تصرفاتها غير الحكيمة ٠

ثم سعى السيد رئيس الوزراء الاستاذ عبدالرحمن البزاز ـ بوصفه صديقا للسيد رئيس وزراء ايران ـ لدى صديقه الايراني فارسل له رسالة شخصية يستعيد معه بعض الذكريات حول لقائهما في لندن وأحاديثهما وذكره الاستاذ البزاز بالرغبة التي كانت لديه في زيارة العتبات المقدسة في العراق وشوقه الى هذه الزيارة محبذا أن تتم في هذا الوقت بالذات ليلتقي به ويحدثه في شؤون العلاقات بين البلدين لعل ذلك مما يساعد على حل كثير من المشاكل التي قد تبدو مستعصية لاول وهلة ٠

الا ان رئيس وزراء ايران أباح لنفسه الحق في اعتبار هذا الكتاب الشخصي كتابا رسميا ودعوة رسمية له خول لنفسه حق رفضها الا اذا كانت مشروطة ببعض الشروط وأباح كذلك لنفسه ان ينشرها ويجعل منها مجالا لحديث لم تكن الرسالة الشخصية لتتطرق اليه أو تعنيه ٠

وعلى الاثر دعا السيد رئيس الوزراء الاستاذ البزاز الى مؤتمر صحفي شرح فيه طبيعة الموقف مع الجارة ايران بصورة خاصة وكان أهم ما ذكره ان الحدود الطويلة بين العراق وايران جعلت المشاكل التي تحدث متناسبة معها من حيث الكثرة والزمن فمنذ زمن ليس باليسير تقوم حول الحدود ـ وهي بين جبل وواد ونهر الخ ٠٠٠ ـ مشاكل من حيث مناطق الرعي أو الاستفادة من المياه أو ما الى ذلك وجميع هذه المشاكل تحدث بين البلاد التي ترتبط بحدود طويلة غير متماثلة ، وتحل هذه المشاكل بالطرق اليسيرة اذ يقوم على حلها ما يسمونه بـ « قوميسيرو الحدود » وهم مخولون صلاحية حل هذه المشاكل ٠

أما الحال الذي دعا الى تقديم المذكرة فهو لا يتصل بمشكلة الحدود وانما يتصل بعمل معين قصدت من ورائه السلطات في ايران ان تخلق جوا تلبسه لباس المشاكل القائمة على الحدود ولذلك فقد كانت الحكومة العراقية حريصة على موضوعية المشكلة وتقدمت بالتمهيد لها بجملة مقترحات منها انسحاب القوة الايرانية التي اقتربت من الحدود العراقية ، الى مسافة

مناسبة تجنبا لما قد يحدث من استفزاز قد يعقد الموقف ومنها تأليف لجنة مشتركة للبحث في المشاكل يسبقه توقيف الحملات الاذاعية والاعلامية ونحن نود ان نؤكد هنا للمرة الثانية ان اجهزة الاعلام في الجمهورية العراقية لم تقم بأية حملة دعائية تسيء الى ايران في الوقت الذي بقيت أجهزة الاعلام الايرانية وبخاصة الرسمية منها تكيل السباب وتوجه الكلام السيء الى العراق والمسؤولين فيه ومع ذلك فقد التزمت أجهزة الاعلام في الجمهورية بالصمت وضبط النفس ·

ردود الفعل

كان الشعب في الداخل مؤيدا تأييدا كاملا خطوات الحكومة وكان يضغط باستمرار لاتخاذ اجراءات حازمة حيال الاعتداءات الايرانية والتدخل الايراني في الشؤون العراقية بمساعدة المتمردين وقد سارت وفود من المتظاهرين في الشوارع معلنة سخطها وشجبها لتصرف الحكومة الايرانية · وابرق المواطنون الى المسؤولين يعلنون استنكارهم لتصرف المسؤولين الايرانيين ويذكرونهم بما يجب ان تكون عليه علاقات حسن الجوار وروابط الدين والحب المتبادل ·

ومن ثم اعلن السيد وزير الدفاع في تصريح واضح ان للصبر حدودا، وذلك يعني ان الحكومة مستعدة لان تواجه الاستفزازات الايرانية بما يسكنها ويوقفها عند حدها ·

ويبدو ان الحكومة الايرانية حين فكرت مليا في العواقب التي ستؤول اليها مثل تلك التصرفات ادركت أن المصلحة المتبادلة تقتضي أن يكون طريق السلام والعودة اليه هو الطريق الوحيد الذي ينفع مع العراقيين الذين خبروا كل أنواع الضغط فما لانوا ولا استكانوا ولا فرطوا في وطنهم وسلامته وامنه وطمأنينته ، فعادوا الى جانب التعقل واستجابوا لما دعتهم الحكومة ·

ودار بين الناس حديث حول ماذا سيتم بحثه مع الجانب الايراني ؟ أهي أمور قائمة منذ سنوات طويلة تريد ايران نبشها الآن والتحدث عنها أم هي أمور طارئة أملتها الظروف الحاضرة ·

ثم جاءت تصريحات المسؤولين بأن ما يبحث مع ايران هو المشاكل التي أدت الى الازمة التي وقعت والتي تبودلت المذكرات بشأنها اما ما يقال عن شط العرب ومياهه وعوائده وما الى ذلك فتلك أمور لا يمكن ان تبحث لانها سبق ونظمتها معاهدات واتفاقيات لا يمكن ان ينفرد جانب واحد بالقول أنه يعتبرها غير قائمة والعراق متمسك بما له وما عليه بموجب الاتفاقيات الدولية التي يتحتم على جميع الاطراف احترامها ومراعاتها ·

سفر السيد رئيس الوزراء الى السعودية

من احداث الشهر الماضي ان السيد رئيس الوزراء غادر الى المملكة العربية السعودية في زيارة للعمرة وكانت مناسبة لان يجتمع خلال وجوده في المملكة السعودية بالملك فيصل وبحث مع الملك وضع العلاقات العربية والعلاقات العراقية الايرانية باعتبار ان الملك فيصل كان قد زار ايران قبل فترة قصيرة وقد علقت الصحف على تلك الزيارة تعليقات مقتضبة واعتبرتها من الزيارات الناجحة في توثيق اواصر الاخوة العربية وكان من تصريحات البزاز اثر هذه الزيارة قوله :

« ان العراق يرغب مخلصا ان يسوى مشكلاته مع جارته ايران التي ترتبط بالعراق في العقيدة الواحدة ودية وسلمية · والمرجو ان يتم الصفاء ويتحقق قريبا حسن الجوار بالشكل المخلص الذي نريده نحن وتريده ايران كذلك » ·

تأييد الدول العربية

لقد كانت الازمة مع ايران مجالا لتسابق الدول العربية في تأييدها للعراق وسياسته وموقفه فقد اعلنت كل من الجمهورية العربية المتحدة وسوريا والكويت ولبنان وتبعتها الدول العربية الاخرى تأييدها الكامل لموقف العراق وبذلك اثبتت الامة العربية على انها واحدة في المشاعر والاهداف والغايات وان الازمات التي تمر توحد بين الاخوة وتشد من ازرهم وعزيمتهم· وقد بلغ الامر ان سفير ايران في بيروت صرح بحديث اعتبر مسا بشخصية عربية فاعتبرته لبنان شخصا غير مرغوب فيه وامرت باخراجه ولعل ذلك العمل سيعطي درسا للصحف العميلة التي تسمح بالتطاول على المخلصين من قادة الامة العربية ، وتلقن العملاء دروسا اشد وانفع ·

السياسة العربية

تطورات في قضية ابن بركة

ذكرنا في عدد سابق من هذه المجلة ان أصابع الاتهام تشير الى وزير داخلية المغرب السيد محمد اوفقير واليوم وقد تطور التحقيق في هذه القضية تتثبت أصابع الاتهام هذه نحو اوفقير وجماعته من رجال البوليس السري المغربي ، بعد ان أصدر قاضي التحقيق الفرنسي مذكرة دولية باعتقال المسؤولين الثلاثة المغاربة وعلى رأسهم اوفقير نفسه ، ومعنى هذه المذكرة خطير وكبير معناها ان كل دولة ترتبط مع فرنسا بعلاقات دبلوماسية من واجبها ان تسلم اوفقير اذا ما دخل ارضها للسلطات الفرنسية ومعناها بصورة أوضح ان فرنسا حكمت على وزير داخلية المغرب بالحبس داخل

المغرب وحرمت عليه التصرف بحرية • وقد أجاب المغرب الرسمي على هذه المذكرة بتصريحات لعل اهمها ما فاه به الملك الحسن الثاني صباح يوم العيد من تصريحات يفهم منها أنه يثق بوزير داخليته ورجاله ويبعد عنهم التهمة التي الصقها الفرنسيون بالرسميين المغاربة •

أما الرأي العام العالمي فينظر الى كلا الجانبين نظرة أخرى والاجماع في الامر ان اوفقير بين متهم له ومبرىء من واجبه ان يحضر أمام القضاء ليقول فيه قوله ان كان مجرما أو بريئا وهو الطريق الوحيد الذي لا ثاني له لاثبات البراءة التي قد تكون صفته الحقيقية في هذا الحادث •

ان كثيرا من الناس لا يعرفون ابن بركة وميوله ومكانته ولكنه يعلمون ان انسانا تدبر له مثل هذه المكيدة يساهم فيها رجال لهم مسؤوليتهم في البوليس الفرنسي ورجال لهم مكانتهم في السياسة المغربية يسخرون من ضعة النفس وخسة الطبع فلا الحقد الدفين يكون سبيلا لتحقيق هدف كريم ولا المال الوفير يكون نافعا اذا ما استخدم لهذه الغاية الحقيرة ولهذا القصد الخسيس • ان اول منفذ لهذا المخطط قتل برصاص أصحابه ولعل أكبر رأس في المخطط سيجد نفس المصير لان السير في مثل هذه الدروب لا يمكن ان يؤدي الا الى المهالك ، وخلق الجبناء لا يمكن ان يكون واسطة لتحقيق غاية كريمة نبيلة •

●